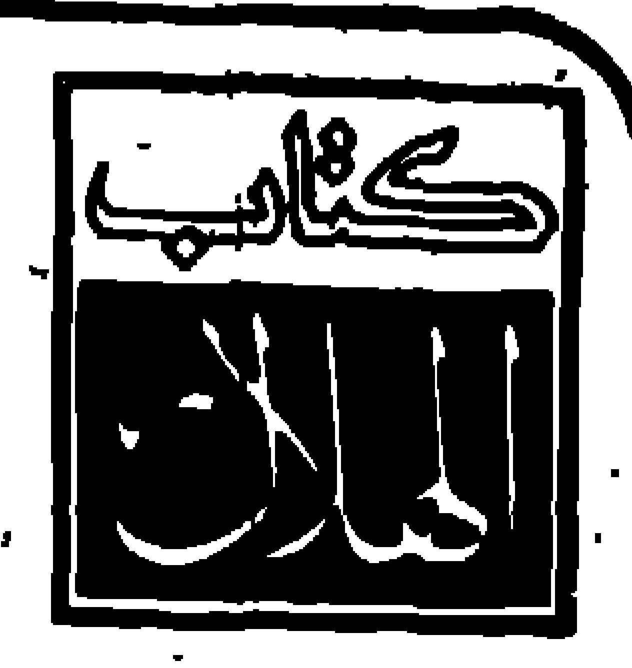
كتاب الهلال

ذكريات باريس

د. زكي مبارك





سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٢٠ ● أغسطس ٢٠٠٢ ● جماد أول ١٤٢٣

No 620 - AUG 2002

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٥٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى / أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - المغرب ٣٥ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٥ فرنكات

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

ذكريات باريس

صور لما فى مدينة النور من صراع
بين الهوى والعقل والهدى والضلال

بقلم :
الدكتور زكى مبارك

دار الهلال

الاهـداء

إلى الصديق الذى وصل جناحي وراش سهمى
إلى الاستاذ "عبد القـــادر حمزة"
أهـــدى هـــذا الكتاب

زكـى مبـارك

مصر الجديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣١

الغلاف للفنان
محمد أبوطالب

تقديم

بقلم الدكتور: محمد رجب البيومى

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات عن الدكتور زكى مبارك : (١)

«وزكى مبارك مجاهد باسل من المجاهدين القلال الذين شقوا طريقهم فى الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد ، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع ، وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبى على الظروف والحظ ، وإذا كان الحظ قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود ، لأنه تعلم بكدح قلمه ، وتقدم بفضل جهاده ثم كانت الظروف التى تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة .. ولو استطاع زكى مبارك أن يتملق الظروف ، ويصانع السلطان ، ويحذق شيئاً من فن الحياة لا تقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع ، وجفاوة الصراحة ؛ ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس ، ويبقى ذلك المجهود الذي قدمه للأدب العربى فى شتى مناحيه ، شاهداً على صدق

---

(١) مجلة الرسالة – العدد ٢٨٧ – ٢ يناير سنة ١٩٣٩ .

خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة .

فى هذه السطور القليلة قدم الأستاذ الزيات عناصر أصيلة تصلح أن تكون أساساً لمؤلف رائع ، يترجم حياة زكى مبارك ، وقد أغنتنى فى هذا التقديم عن الحديث عن مجده الأدبى . وكفاحه المرير ، متنقلاً إلى الحديث الأصيل عن كتاب (ذكريات باريس) وأنا حين أتحدث عن الكتاب لا أبعد عن ترجمة حياة الدكتور لأن صفحاته حافلة بالكثير من تاريخ هذه الحياة ، وأسلوبه الرائق الشفاف يجذب كل قارىء إليه، بل إنه يغفر كثيراً مما يسهب فيه من الحديث عن نفسه ، لأنه مع صدقه الواقعى مسرح «لآلام مضنية لم يشأ الكاتب أن يحبسها فى ضلوعه ، بل هتف بها فى إخلاص وجد تجاوبه من القارىء البصير ، لأنه يدرك تمام الإدراك أن كاتبه مجاهد شريف :

تلمس هذه الحسرة الكاوية فى أول فصل من فصول الكتاب ، حين يذكر المؤلف أنه اتجه إلى محطة باب الحديد مسافرا إلى الاسكندرية فكان مودعوه ثلاثة ! وغاب عن الوداع أصدقاء كان يأمل لقاءهم ، فحسد المسافرين الآخرين الذين احتفل بهم مودعوهم الكثيرون ، ومن بينهم فتيات من

الجنس اللطيف الذى يحسن التوديع بالقبلات والعناق ، ثم التلويح بالمناديل البيض » ! وأنا أنقل ذلك لأنص على أن الدكتور زكى مبارك كان لا يخفى عن قارئه الدقيق من خطرات نفسه . بل إنه فى سائر فصول الكتاب يسمعه همس الجوانح ورفيف الشغاف ، وأظن كثيراً من المسافرين قد أحسوا إحساسه فى مثل توقفه ، ولم يستطيعوا الجهر به ، ولكن الرجل يلتمس زيت وقوده من أعصابه المتأججة ، وعواطفه المشتعلة ، ولا يهمه أن يقع حديثه موقع الرفض أو القبول .

ثم يتابع حديثه المرير ، فيتحدث عن جلوسه فى الباخرة التى أقلته من الإسكندرية فيقول (ونقلت أمتعتى إلى مكانى فى السفينة ، وشغلنا عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات : فقد تهادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن ؟ وما فراقه ؟ إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب) .

وإذا كان الدكتور مبارك قد وطن نفسه على أن ينقل مشاهداته إلى جريدة البلاغ ، حيث شاء صاحبها الأستاذ الكبير عبد القادر حمزة أن يجعله مراسلاً للجريدة فى مدينة

النور بأجر يسعفه ببعض تكاليف الحياة ، إذا كان الدكتور قد فهم مهمته تلك ، فإنه أحسن أداءها خير الاحسان ، حيث كان في كثير مما كتب يتجاوز أسلوب الصحافي إلى أسلوب الشاعر المرهف ، وكتاب الرحلات يحملون صفة المؤرخ الراصد ، ولكن زكي مبارك مع احتفاظه بخصائص كاتب الرحلة قد ضم إلى أسلوبه ما لا يستطيع الفكاك منه إذ هو في أعماقه أديب مطبوع تنفحه الشاعرية بصور لا تتاح إلا للملهمين من ذوي الاستيطان النفسي الدقيق ، ويظهر ذلك جليا في أول فصول الرحلة ، فبعد أن وصف بإجمال أماكن الغذاء والنوم والرياضة جال بشاعرية إلى ما رآه من أحوال الراهبات والرهبان ممن كانوا زملاءه في الباخرة بعد أن سجل في خفة روح أن الملائكة استراحت من تسجيل آثامه في رحلة الباخرة ، حيث اضطر إلى الانزواء متأملا وجوه الراهبات ، وقد قال في تحليله الأدبي البديع إن الراهبة أعقل من الراهب ، وأبعد من الفضول وقد لاحظت أن بينهن فتيات يترقرق في وجوههن ماء الحسن ، وتعطر من أعطافهن دم الشباب ، فبدا لي أن الله قد أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال (هذا كلام لا يقوله غير شاعر) ورأيت أن التقوى لا تصلح الا

من مــثل تلك الوجـوه الملاح ، وليس من العنف فى شىء أن نصـارح القارىء بأنه لا خير فـى تقوى كـثيـر من الناس لأن أكثرهم لا يتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق » ثم أمتد الحديث فى هذه المعانى ، وهى تؤكد تماما أن الدكتور يكتب كل ما يفد على خاطره دون احـتياط ، وهو مـذهب فى الأدب كان الدكتور رائده الأول فى مصـر ، وقد جر عليه من العداء ما باعد بينه وبين ما يستحقه من المناصب المرموقة كما أشار إلى ذلك الأستاذ الزيات ، ولم يكن العداء بسبب آرائه الوجدانية ، بل لمهاجمته من يراه موضع المهاجمة من الكبار : وفى حديثـه عن الباخرة ثورة على من يتظاهرون بالتقى وهم مـراءون ، وكـأنه بذلك يبـرر صـراحتـه الكاشـفة للنقـائص ، الجاهرة بالنقد الجارح ، يقول الدكتور «والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام ، فأوغلوا فيها ، وافتنوا فى جمع أسبابها، والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل، فأسرفوا فـى العناد حتى لا أمل فى ردهم إلى الحد المعقول ؛ وأنا والله غير نادم ، فتلك كلها حظوظ لا يفـرح بها غـيـر الضعفاء» .

وأنتقل بعد حديث الباخرة إلى ما وصف به الكاتب شعوره

وقد ركب الطائرة لأول مرة فى حياته ، وكانت فى ذلك الوقت فطنة إشفاق لدى الكثيرين حتى حذره أحد أصدقائه من ركوبها ، فلما صمم قال له : أكتب وصيتك إذن !! ركب الدكتور الطائرة ، فلاحظ أنها أرفق بركابها من السيارة فوق الأرض ، ومن الباخرة فوق الماء ، فسير الطيارة لين هين لا عنف فيه ولا اضطراب ، فهى أرق فى نظره من المطايا الذلول التى تجوب البيداء ، وأسعفته شاعريته الممتازة بخواطر لا تتاح لرحالة إلا إذا كان أديبا من طرازه ، فقد قال فيما قال:

لقد شعرت بالعزة الإنسانية حين توغلنا فى آفاق السماء ، وكنت بين الراكبين كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به من المنازل والقصور والبساتين ، فراعنى أن شعورى بجمال الطبيعة كان أعمق مما تربى فى حياتى وأيقنت أن الطير أكثر نعيما منا ، وأذق إحساساً وأعمق شعوراً ، وأبصر بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال ، وكيف لا ، وأنت على الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة فى زخارفها ، وتهاديلها ونقوشها وصنورها وجميع ما تتحلى به من الحس المجلوب

والجمال الموهوب ، وإن نظرة إلى بعض مناظر باريس التى أخذت من الطيارة تريك الفرق البعيد ، بين المنظرين ، منظر يؤخذ من مصور يقف على الأرض ، ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء » قلت أن زكيا كان شاعراً لأنه فسح لخياله أن يتصور مبالغات هى موضع جدل ! لأن راكب الطائرة لا يرى علوه السامق القصور والدور إلا كبعض الأشباح ، فهل كان له بصر زرقاء اليمامة التى ترى ما لا يراه الناظرون ! أو لديه من الجلاء البصرى ما يتحدث عنه المتصوفون ! وقد كان منهم فى وقت ما كما قرر ! ووافقه الأستاذ الزيات :

ومظاهر الحب ، وسحر الفتيات أكثر ما يلفت الرحالة الشاب من معالم باريس ، وكذلك كان زكى مبارك فقد شغل صفحات كثيرة فى الحديث عن عرائس باريس ، وإذا كنا نعلم أن الرحلة مقالات متفرقة نشرت خواطرها فى أعداد مختلفة من جريدة البلاغ فلا محل ليتلمس بعض المتناقضات فيما يروى الدكتور ، لأنه فى يوم ما يرى من مشاهد العفة والطهر ما يسجله عن صدق ، وفى يوم آخر يرى من مشاهد التبذل والإسفاف ما يسجله عن صدق ، وإذن فلا يقول قائل هذا

عكس مـا رؤى من قـبل ، وإنما يدرك أن الليل والنهـار يتداولان الحياة ، ولكل لونه الخاص ، فالدكتور يقول فى موضع من كتابه «أتريد الحق ، إن أهل باريس لا يرون فى الحب ما نراه ، هو عندهم شريعة الحياة ، وقد يقع أن يتعانق فتي وفتاة فوق أحد المقاعد ، وبجانبه صبية مشغولة بكتاب تقرأه ، أو شعار تحوكه ، أو أمل مرموق ، فى صدرها المفتون ثم تظل فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القبل ، وهدير العناق ».

وقد يزيد فيأتى بحديث التى تساوم على المتعة ، وتطلب الأجر المضاعف ، مما نكتفى بالإشارة إليه فحسب ، ثم يقول فى موطن آخر «لقد تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية ، ولم يصل أحد إلى مثل ما وصلت إليه من الألفة الصافية ، والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم فى باريس وغير باريس ، فالمرأة الفرنسية الصميمة الأصيلة يغلب عليها النبل والطهارة والعفاف ، وإن نبرة من صوتها لتبدل الأرض غير الأرض وإنها لتذل من تذل ، وتغر من تغر ، وهى فى مكانها كالطود الراسخ لا تغلب ولا تنال ، ولو كانت المرأة الفرنسية هينة إلى الحد الذى يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم

المقادير تحت أقدام المومسات فى فرنسا لما أنجبت فرنسا كاتبا ولا شاعراً ، وظل أهلها فقراء العواطف موتى الأحاسيس ».

«ويندفع إلى أبعد ما يبلغه المحامى» لمدره فيقول : هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والملاجىء والمستشفيات ؟! وأنا أقول له إن أمير الشعراء كان أبعد نظرا ، حين حكم بوجود الجانبين فى المدينة ، جانب اللهو والتبذل ، وجانب العلم والدرس فقال يخاطب هذه المدينة الساحرة .

إن كنت للشهوات ريا فالعلا
شهواتهن مرويات فيك
ومن العجائب أن واديك الشرقى
ومراتع الغزلان فى واديك !

فالناحيتان موجودتان ، وتلك سنة الحياة !

وحديث الدكتور عن الحى اللاتينى صادق فى مجموعه ، فهو يقرر أنه عصابات من النساء ، وأسراباً من الفتيات يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللاتى يبحثن عن

معالم الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظماء إلى الحسن الغض ، وهناك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق ولا يجدن ! على أن أحسن ما جاء فى هذا الباب هو ما قرره الدكتور عن المرأة الشرقية حيث قال :

إن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة فى الشرق (سيدة) وأن زعموا أنها تعيش فى أقفاص ، هى سيدة لأنها لا تزال تطلب وتعشق ، ويقال فيها الشعر ، أما المرأة الغربية فقد مضت دولها ، ودلت أيامها لأن الغرب رزىء ببلايا زهدت الرجال فى النساء» .

وهذا عن باريس ، أما مصر ، فقد كانت ماثلة فى ذهن زكى مبارك ، تجيش عواطفه نحوها بأصدق انفعالات الحب ، حتى حين ينقد أوضاعها ، إذ يأتى النقد صادرا عن رغبة فى الإصلاح ، وحافزاً للتقدم ، كما ينقد الوالد ابنه فى تصرفه وقد يهم بعقابه بالضرب لا كراهية له ، بل رغبة فى إصلاحه ، فإذا أخذ المؤلف على الكتب المدرسية اهتمامها بالقديم دون الحديث ، وإذا أخذ على الشباب المصرى أنه يعرف عن خلفاء العباسيين والأمويين أكثر مما يعرف عن مصطفى كامل وأحمد عرابى ، فهو توجيه سديد ، وقد حادث بعض الشباب

فى مصر فرأى أنهم يقولون أن النهضة المصرية بدئت بثورة سنة ١٩١٩ فهم يجهلون إذن كفاح عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ، ومرد ذلك إلى الكتب المدرسية التى لا تحتفل بغير القديم ! وكم كان المؤلف شديد الأسف على سبق فرنسا السياسى إذ قورن بمصر ، منتهزاً كل فرصة لتوعية قومه بما يجب أن يكون ، إذا أن حديثه هذا ينشر تباعا بجريدة سيارة هى جريدة البلاغ ، ومن أمثلة ذلك حديثه عن المعرض الدولى الباهر الذى أقيم بباريس فجذب أنظار العالم جميعه ! لقد وصف المعرض وصف الأديب البارع ، ثم إتجه إلى أمر له مغزاه ، ذلك أنه لاحظ أن وزراء فرنسا قد جاءوا إلى المعرض كما يجىء أى فرد من أفراد الشعب ، حتى لم يشعر بهم زكى مبارك إلا حين أخبره أحد الزائرين عرضا بأنهم جاءوا فرادى وذهبوا دون أن يشعر بهم أحد ، يقول زكى مبارك .

«لقد دهشت حين علمت بعد نصف ساعة من ذهابهم ، أنهم حضروا وشاهدوا ما أهمهم من مختلف المعروضات وأنصرفوا ولم يشعر بهم أحد ، فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب ، لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس

حيث لا مدفع ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .

وحين يتحدث زكى عن حرية النقد فى صحف باريس وصدوره عن صدق خالص لا يعرف المكر . يأسف كل الأسف لما يراه فى الصحف المصرية من مجاملات فارغة لا تمت إلى النقد الصحيح ، ويقول متألما فى خطاب (كم رأينا من أذلاء ، لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال : هذا مؤلف بارع ! وذلك كاتب مجيد ، وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع ، فلتعلم أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : اصنع معروفا واكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية ، إذ أعرف أن أكثر التقريظ من وضع المؤلفين» .

وقد يكون من المناسب أن أذكر أن الدكتور زكى مبارك خص كبار الأدباء من زملائه ببحوث جيدة ، نشرت فى كتاب مستقل بعد وفاته ، وهؤلاء جميعا قد سكتوا عن مؤلفاته

سكوتا مخزيا ، غير كلمتين للمازنى وأحمد أمين لم تخلوا من نقد ! وأنت تقرأ كتاب ذكريات باريس فلا تجد ما يدل علي صلة ما بينه وبين كبار الأدباء ممن زاملهم فى تحرير الصحف والمجلات ، إنك تجد رسائله لأحمد الزين ومحمد السباعى وحسن القاياتى ، وذكرياته عن عبد الباقى سرور نعيم ومحمود بيرم التونسى ولكن أين طه والعقاد والمازنى وهيكل ومحمد لطفى جمعه ؟ وقد كتب عنهم جميعا فأفاض ! لقد كان هذا التجاهل أحد أسباب الألم النفسى الذى تراكمت دواعيه مع آلام أخرى أدت إلى العزوف فالانهيار ! فوا أسفا!

فإذا تركنا مصر إلى البلاد العربية فإننا نجد عواطف الحب والإخلاص تشع زاهية براقة فى كثير من الصفحات ، لقد شهد احتفالاً لعيد الحرية بباريس فساءه أن يرى أبناء الجزائر والمغرب يشاركون فى الاحتفال ، وهم مكبلون بأغلال الاحتلال الفرنسى ، فصاح متأوها :

ويلاه ، هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء ، ملكتهم هذه الدولة العاتية - يريد فرنسا - فمزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف (بعض الوصوليين فقط) فعادوا ثبا يؤكل : ومن أعجب العجب

أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إغراء ، وكانوا كلما لوحوا بإشارة الرضا ازددت حسرة على حسرات ! كان هؤلاء الجنود يخطرون بخيولهم على شاطىء السين وهم صاغرون ، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوربا ، وأذلوها فى القرون الوسطى أشنع إذلال ، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير » هذا هو مبارك العربى المسلم الأصيل !

وبعد فلو كان لكاتب المقدمة أن يطيل فى الاستشهاد لأطلت ، ولكن الكتاب يقدم نفسه للقراء بما يغنى عن كل تقديم واستشهاد وهو زهرة ناضرة من روضة زكى مبارك تقدمها دار الهلال فى حب واعتزاز، لتكون بعد ذلك نسمة عاطرة تنفح القراء بعبير فواح ، ومرأى قشيب !

د. محمد رجب البيومى

تمهيد

أيها القارىء !

كنت عودتك إلف المقدمات الطوال ، كالذى فعلت فى تقديم كتاب «حب ابن أبى ربيعة» وكتاب «مدامع العشاق» ولكنى لا أجد ما أقول في تقديم هذا الكتاب غير السطور الآتية :

عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلماً تقدر لانسان سواى، ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام . وإنما كان ذلك لأني وصلت إليها بعد يأس وبعد شوق . وكانت كل زورة تبدو لعيني وكأنها الأولى والأخيرة ، فكنت أنهب محاسنها فى شره ونهم كما يفعل الصب المولع وهو يودع حسناء ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب ، ويا طالما ودعت من أسراب الحسان ! أضيف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه إلا الأقلون ، وكنت قبل ذلك ألفت تلك اللغة ألفة شديدة ، حتى كان لا يتكلم بها جماعة فى جد أو هزل إلا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس الفاحص الذى يدرك ما ظهر وما بطن من أسرار الحديث (وهذا كل ما عندى من عيوب الفضول) فكان ذلك معواناً على فهم ما طبع عليه

الفرنسيون من شتى الغرائز والخلال .

طالت إقامتى فى باريس ، وكانت لأغراض علمية سدد الله فيها خطاي وهدانى سواء السبيل . ولكن دراساتى لم تحل بينى وبين التأمل فيما يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال ، فأنشأت كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة بعضها من وحى العقل وبعضها من وحى الوجدان .

وقد عدت إلى تلك الثروة الأدبية فأضفت جزءاً منها إلى أصول كتابى «سرائر الروح الحزين» وجزءا إلى مواد الطبعة الثانية من كتاب «البدائع» والباقى هو هذه الأقباس التى أقدمها اليوم .

يقول المسيودى كومنين : إن الكريم لا يذكر البلاد التى رحل عنها إلا مصورة بصورة من عرف فيها من كرام الناس، وكذلك تبدو باريس على البعد ممثلة فى شمائل انسانين اثنين هما المسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال ، والمسيو بلانشو - سكرتير اتحاد الطيران فى باريس - آية من آيات النبل والخلق العظيم ، وابنة خاله الآنسة سوزان مثال أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس وحياة الوجدان . ويعلم الله ما

ذكـرت هذين الانسـانين إلا غلبنى الدمع وقـهـرنى الشـوق وصـهـرنى الحنين . وسـتظل باريس قبلة روحى ما بقـيت فى النفس ذكرى ما لقيت عندهما من عطف ورعاية وحنان.

تلفت حتى لم يبن من دياركم
دخـــان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه
طوال الليـــالى نحوكم ليزيد

بعد هـذين الانسـانين تتمـثل باريس فى صـور الاسـاتذة الكبـار الذين انتـفـعت بعلمـهم هناك أمـثال دومـيك ومـرسـيـه وديمومبين وكولان ومـاسـينيـون وتونلا وديبويه ومـيشـو وشـامـار ومورنيه .

وبعـد أولئك وهـؤلاء تتـمـثل باريس فى صـور تلك الوجـوه الصباح التى رأتها عيناى وألفـها قلبى ثم أقصتنى وأقصتـها ضـرورات الحـيـاة إلى حـيث لا أمل فى تراسل أو تلاق ، برغم ما قيدنا من العناوين ، وما حددنا من المواعيد .

يا أخت ناجية السلام عليكم
قبـل الرحيل وقبل عذل العدل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يـوم الفراق فعلت ما لم أفعل

واليوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجاً في عنف وطغيان فتغرق الروح في كوثر النعيم المتخيل المرموق ، فماذا عسى أن أفعلَ للنجاة من ذلك الطوفان ؟ أأفزع إلى صفحات هذا الكتاب ؟ كيف ولم يكن الإ ظلالا خفيفة لما لقيت في باريس من متع الحياة ، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات.

لأن أطيب الذكريات لا يكتب ولا يقال ، وإنما تقلبه النفس في هدآت الليل كما يفعل الشحيح وهو يقلب كنزه المدفون .

رباه ! ماذا أبقيت لي من باريس ؟ ألا تراني أروح إلى السينما الناطق في صبوة وجنون أتسمع كيف يتكلم الباريسيون وأنظر كيف يجدون وكيف يلعبون ؟ إلى اللقاء يا باريس إلى اللقاء يامدينة المحبة والحب والجمال ! إلى اللقاء ياوطن المسيو بلانشو والآنسة بونال !

إلى باريس

قبل الرحيل

بعد شهور طوال أسهرت فيها ليلي ، وأشقيت فيها نهاري، صحت مني العزيمة على العودة إلى باريس . وكانت نشوة فرح تشبه نشوات الطفل حين يحدثه أهله عن سفر سعيد ، وكدت أكتب إلى خلصائي : أيها الاصدقاء ، أنا عائد إلى باريس ! ولكني توقرت ، وكتمت فرحي ، وأقبلت أعد ما لم أكن أعددته من المفكرات والمذكرات .. والملابس ! وانطوت الأيام بسرعة خاطفة ، ومضيت إلى «سنتريس» لتوديع أبي وأهلي وأصدقائي ، وكان مني ما تعودته من الجمود حيال تلك الدموع الحرار التي يسكبها الوالد - لا عدمته - كلما أسلمني إلى رفق الله ولطفه في سفر بعيد . ومضت بي السيارة وهي تحمل مني قلباً راضته الأيام بعد الجموح ، وعلمته كيف يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وجاء صباح السبت الأخير من يونيه ، وإذا أنا أمض بأقدام ثابتة إلى محطة «باب الحديد» ، وفي انتظاري أصدقاء قلائل جداً ثلاثة أو يزيدون ! وغاب عن ذلك اليوم أصدقاء كنت آمل أن أراهم هناك . وهم القطار بالقيام

فحسدت المسافرين الآخرين : لأن مودعيهم كانوا من الجنس اللطيف الذى يحسن التوديع ، ويقدم اليه أصلح وقود من التقبيل ، ثم التلويح بالمناديل البيض ! واكتفيت من مودعى الفضلاء بعبارات : فتح الله عليك ، وجعلك من السالمين الغانمين ! .

فاللهم تقبل من عبادك الصالحين !

فى الباخرة:

مرت الساعات بين القاهرة والاسكندرية وأنا مقسم الفكر، منتشر الروية ، أنظر تارة فى الصحف ، وأخرى إلى ما نمر. به من الحقول ، حتى أسلمنا القطار إلى الباخرة فى غير عناء. ونقلت أمتعتى إلى مكانى فى السفينة ثم جاءت ساعة الغداء فشغلنا عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات ! فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب .

وضعت المائدة ، وأقبلت أتخير مكانى بين المسافرين والمسافرات ، فلمحت مكانا خالياً بين سرب من الظباء . فبادرت إلى احتلاله . وإذا صديق من زملائى الفرنسيين

يقول : ماذا تريد يامسيو مبارك ؟ هذا مكان مشغول !

ماذا أريد ؟ ! ماذا أريد ؟!

الخبيث يعلم ما أريد ، ولكنها الأثرة والغيرة واللؤم ، كل أولئك حمله على إقصائى عن المكان المنشود !

ورجعت أتلفت علنى أجد مكاناً طيباً بين جيرة يخفق لهم القلب ، وتهفو اليهم الجوانح ، فلم أجد بعد البحث الطويل . وانتهى بى المطاف عند طرف من المائدة فيه اثنتان من العجائز ، وفيه رجل مصرى . أما العجائز فالقارىء يدرك أن الأنس بهن محال . والرجل المصرى ، ما حاجتنا إليه ، وقد تركنا فى مصر خمسة عشر مليوناً غير آسفين ! على أن المصرى فى مثل هذه الأحوال قد يكون هو «الإنسان» الذى عناه الشاعر حين قال :

عوى الذئب فاستأنستِ للذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير

وكذلك مرت أيامى فى الباخرة والملائكة مستريحون لم يكتبوا فيما أظن سطراً واحداً فى صحيفة السيئات ، وأحسبهم يتورعون عن تقييد تلك الخواطر «البريئة» التى كانت تمضى فى التحسر على مافات من مجاورة الحسان !

على أن الغى فى بعض الأحوال قد يكون أطهر من الرشد . وقد يكون الإثم الجارح أسلم عاقبة من التقى المصنوع !

رجال الدين :

فى أكثر المرات أجد فى سفرى طوائف من الراهبين والراهبات . ولى فى كل مرة ملاحظات وتأملات ، ومشاهداتى فى هذه المرة أمتع وأنفع ، وإلى القارى البيان :

الجنس اللطيف لطيف دائما ، فالراهبة أعقل من الراهب وأبعد من الفضول ، كتابها فى يدها دائما ، تقرأ آياته فى تقى وإخلاص ، وقد لاحظت أن بين الراهبات فتيات يقطر من وجوههن ماء الحسن ، ويترقرق فى أعطافهن ماء الشباب ، وفيهن من سحر الجفون آيات بينات ، فبدا لى أن الله عز شأنه أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال ، ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل تلك الوجوه الملاح ، وليس من العنف فى شىء أن نصارح القارىء بأنه لا خير فى تقوى كثير من الناس ، لأن أكثرهم لا يتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق : فهى تقوى ضرورة ورياء ، لا تقوى بر وإيمان ، وبعض الأتقياء لئام لا ينهون عن الغى إلا حسداً لأهله على ما آتاهم الله من نعم المال والجمال والشباب ، ولو أنهم ظفروا

بسبب من أسباب الفتك لودعوا التقى وهم فرحون . وحسن السلوك عند أشباه الأبرار أشبه بسلوك العبيد فهو فى جملته ضرب من الصعلكة ولون من ألوان الموت ، وهم يعلمون ذلك، ولكنهم يتكلفون الرضا بحظهم من الصلاح !

الراهبة أعقل من الراهب ، كذلك أفترض ، فقد كان معنا فى الباخرة راهب شنيع الإسراف ، لا يرضيه نبيذ المائدة ، لأنه شراب عادى يبذل بسخاء للجميع ، فكان يطلب لحسابه أجود أنواع الشراب ، ثم يدعو من حواليه من الشواب النواهد إلى التفضل بمشاركته فى ذلك الورد المباح ! يفعل ذلك ، وأنا أنظر إليه وملء جوانحى حقد وضغن ، فهو يفعل كل ما يريد ويظل قديساً ، وأنا لا أفعل شيئاً ثم يهاجمنى ذلك الزميل الفرنسى اللئيم قائلا : ماذا تريد يا مسيو مبارك ؟!

هـذا وحق اللـه من نكد الزمان وسوء حظى !

والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام فأوغلوا فيها ، وافتنوا فى جمع أسبابها ، والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردهم إلى الحد المعقول . وأنا والله غير نادم ، فليظفر من

شاء من الأحبار ، والرهبان ، والأشياخ ، بما شاء من طيبات الحياة ، تحت ستار التقى والدين ، فتلك كلها حظوظ سافلة لا يفرح بها إلا الضعفاء الذين يعرفون أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض بأثقاله إلا الأقوياء الأشداء .

فتاة تشكو الفراق :

كان ذلك حظى من رفقة المائدة ، ولم يكن بد من السعى الحثيث للترويح عن النفس ، وقد وصلت بعد جهد إلى التعرف إلى فتاة كانت تغنى فى مسرح .. بالقاهرة ، وهى فتاة ناهد حسناء ، رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، وفى عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت الذى ورد ذكره فى القرآن ، وفى صوتها غنة موسيقية كأنها غنة الظبى الوليد ، ولأناملها رقة جذابة تفيض بالكهرباء ، وفى خطراتها تكسر وتثن أين منهما الغصن المطلول ، ولها رفق بارع فى إذكاء نار الحب والوجد فيمن تختار من أصحاب القلوب .. هى فتاة فرنسية تعودت اللهو بالأشخاص ، وبالأشياء ، وبالأوطان ، فلم يعد يهمها من تلقى ولا من تفارق ، ولم تعد تفكر أى أرض تسكن ، وإلى أى وطن تعود . ولكنها فيما تقول وقعت أخيراً فى أشراك الحب ، بعد إذ سخرت بآلاف المحبين ،

وبعد إذ بذلت فى مرضاتها التضحيات الخطيرة بلا حساب .
أما الانسان الذى استطاع أن يكويها بناره ، وأن يردها وهى صاغرة إلى زمرة الأشقياء : فهو شاب مصرى فقير ، لا يجد أسباب اللهو فى أحياء القاهرة ، ولكنه يملك فقط عينين ساجيتين ، وشباباً قوياً ، وجاذبية تميد لهولها الجبال .

كم ساعة قضتها تلك الفتاة وهى تبث إلىّ شكواها من مرارة الفراق ، وكم لوعة ثارت فى صدرى من حنينها إلى سواى ، وكم خلوة حلوة على ظهر السفينة استمعت فيها إلى أنفاسها الحرار وهى تتكلف أسباب الصبر الجميل !!

أيتها العاشقة الحسناء !

أنا أيضاً .. شاب فقير !

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الحب الأثيم فى باريس

الانســـان فـى عــرف المناطقـــة حـــيـــوان ناطـق ، لأن ارسطاليس عرفه كذلك ، وفى مقدورنا أن نقول : الانسان حيوان مخدوع وكنت أحب أن أقول : حيوان مغرور ، ولكنى وجدت التعبير الأول أدق وأصدق فى تحديد ذلك الحيوان الخادع المخدوع الذى اسمه إنسان !!

الانسان حيوان مخدوع : لأنه يخدع نفسه بما يسميه «تجارب واختبارات» فالرجل الذى تستهويه امرأة فاجرة . فتقوده إلى بؤرة من بؤر الفساد فى باريس ثم تسرق ما يملك من عين أو نقد يرجع إلى بيته أو مثواه وهو يخدع نفسه بعبارة «هذه تجربة» أو «ما ذهب من مالك ما وعظك» على حد المثل الذى كنا نعطيه لتلامذة المدارس الثانوية ليضاف إلى موضوعات الانشاء . والشاب الذى يحمله جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضا يعيا فى برئه الأطباء ، يجر رجليه على شواطىء السين وهو يدمدم : «هذه تجــربة ، هذا اختبار لمكاره الحياة» وذلك كله خداع فى خداع ، والرجل هو الخادع وهو نفسه المخدوع .

لا أذكر أن فكرة تملكتنى وسيطرت علىَّ كما استبدت بى

هذه الفكرة : فأنا موقن أن غنيمة التجارب ضرب من الافلاس أو هى الافلاس ، وإلا فما نفع التجارب إذا كنا سنظل طول حياتنا عبيداً للأهواء والشهوات ، وسخرية فى يد الهوى القاهر ، أو النزق الغلاب .

هذه تجربة ! أى والله ! ولكن متى تنفع ؟ وهذا إختبار ، ولكن متى يفيد ؟

التجارب المرة تنفع صاحبها فى شىء واحد ، ذلك بأنها تعطيه لونا من ألوان الأنين تكبر به قيمته عند من يستمعون لأحاديث البؤس والشقاء . والحكماء فى العالم كله قوم أفنوا أنفسهم وخسروا شبابهم وثروتهم ، ثم أقبلوا يتحدثون إلى الناس بما يجب أن تتحلى به مجموعة الحيوانات التى تتكون منها فصيلة الإنسانية . ونحن حين نستمع لأقوال الحكماء فى صمت وخشوع لا نفعل ذلك اعترافا بفضل الحكمة ، ولكننا نقبل عليها بأنفس مهددة بنفس المصير الذي تخوفنا منه حكمة الحكماء : فالواعظ يبكى نفسه حين يعظ ، ولكنه يوهمنا بأنه يبكى اشفاقا بنا ، رحمة لنا ، وخوفا علينا ، ونحن نوهمه أننا نبكى لبكائه ، ونزل عند حكمته ، والواقع أننا نبكى أنفسنا حين نسمع أخبار من أشقتهم الرذيلة وأفناهم

الإسراف ، لأننا ننحدر إلى نفس الهاوية ، ونهوى إلى ذلك القرار الذى يعز منه الخلاص .

* * *

طالما تحدث الناس عن الحب فى باريس ، ولذلك رأيت أن أكتب هذا المقال لأن أكثر المتحدثين عن الحب فى باريس يخوضون فيما لا يعرفون ، وهذه فائدة جديدة للتجارب أستطيع بها أن أستطيل على القراء فأدعى العلم وأصمهم بالجهل البسيط ، راجيا أن لا تجرحهم هذه الكلمة ، وأن لا يستكثروا على رجل أشقته دنياه ، وحمله شبابه على أن يطأ جمرات الشهوات ، أن يعزى نفسه بكلمة «جربت» و«شاهدت» إلى آخر ما فى القاموس مما يتصل بهذه التعابير !

الحب فى باريس نوعان : حب شريف ، وحب أثيم

والحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون غير الهوى العذرى الذى يجد القارىء آثاره فى كتاب (مدامع العشاق) فنحن نعرف أن الهوى العذرى آية من آيات الوجد المنزه عن الاثام والشهوات ونعرف أن العشاق العذريين قوم يجدون لذتهم الباقية فى النوح والحنين ، ويجدون غذاءهم الروحى فى التغنى بمثل هذه الأبيات :

سقى بلداً أمست سليمى تحله

من المزن ما تروى به وتسيم

وإن لم أكن من قاطنيه فإنه

يحـــل به شخص عليّ كريم

ألا حبذا من ليس يعدل قربه

لدى وإن شـــط المزار نعيم

ومن لامنى فيه حميم وصاحب

فرد بغيظ صـــاحب وحميم

الهوى العذرى الذى تحدث عنه العرب وأنطق الشعراء بأجمل وأروع ما أوحى الحب النبيل من آيات الشعر الوجدانى هو غير الحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون ، وأكثر الألفاظ مقول بالتشكيك له عند كل قوم مدلول !

لكن ما هو ذلك الحب الشريف ؟

هو الذى يجرى بين فتى وفتاة ، أو رجل وإمرأة لغرض غير مادى ، وتقع حوادثه فى الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة .. وهو حب معقد كل التعقيد لا يفهمه إلا من راضوا أنفسهم على مكارهه ، واكتووا بناره .. وهذا النوع من الحب يخالف الهوى العذرى ، لأنه يستبيح أشنع الذنوب

والآثام . ولكنه مع ذلك يجرى فيه الأرق ، وتسيل من أجله المدامع ، وتعرف فيه نكايات الوشاة والعذال ، وتتخذ من أجله الرسل ، وتدون له المكاتبات . وعلى الجملة هذا النوع من الحب هو الذى خلق شعراء فرنسا وكتابها وفنانيها وفلاسفتها أيضا . ولا يوجد فى فرنسا رجل عبقرى لم يمسه بعذاب أليم .

وهذا الحب شريف لأنه يقع غالبا فى ظروف قاهرة لا يمكن منها الفرار ، ففى فرنسا نساء جميلات حبتهن الطبيعة بأكرم ما تهب من ألوان السحر والفتون . والمرأة الجميلة فى فرنسا خطر على عالم القلوب ، وأقسى الأفئدة يلين ويتفجر بالعطف والحنان أمام تلك الظباء الأوانس اللائى يخطرن من حين إلى حين فى الأحياء المرحة الجذلة التى تفيض وتزخر بأسباب الطيش والجنون . ونحن والله أرق أكباداً من أن نرمى عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور . فهم قوم مساكين منحهم الله عيوناً تنظر ، وقلوبا تشعر ، وأكباداً تتوجع ، وأحشاء تتفتت ، وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشيء كن فيكون ، فكيف بالانسان الذى تغنيه الإشارة ، وتكفيه اللمحة ؟ إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال

خلق ليعشق ، فليس بعيداً أن يسرف فيعبد الجمال من دون الله .

هذا النوع من الحب طبيعى لا يمكن حربه ولا دفعه لأنه فى الفطرة ، ولا يمكن أن يقال إنه خاص بفرنسا دون الأمم فهو حظ مشاع بين جميع الشعوب . ولكل أمة منه نصيب ، حتى مصر ! وإنى لأحسب أنه ألزم للإنسان من ظله ، وأنفع له من الماء والهواء .

* * *

أما الحب الذى انفردت به باريس فهو الحب الأثيم ، وهو الحب الذى تغلب فيه الدعارة والفجور ، وهو حب له ظاهر خلاب جذاب لأنه يشبه الحب الشريف من بعض الوجوه ،ففيه أيضا تعاطف وتراحم وحنان . وإنك لتدخل حدائق باريس فى المساء فتجد مئات العشاق متعانقين فوق المقاعد مظللين بالأشجار المورقة ، ومحروسين بالحشائش الخضر . وكم من مرة تأملت هذه المناظر المريبة وأنا وافر الاعجاب بما يملك أهل باريس من أسباب الحرية المطلقة التى لا نجد قبساً من شعاعها فى مصر . ولكن ماذا تخفى هذه المناظر ، ماذا تخفى ، ماذا تخفى من عوامل الضعف والتدهور

والانحطاط ؟

إن في باريس طوائف من الفتيات ألجأهن الفقر والعوز إلى مرافقة الشبان ، أو حملتهن أزمة الزواج على الإسرع بالتعرف إلى الرجل الذى جبن عن مجابهة تكاليف الحياة الزوجية الشريفة ، وقنع بما تحمله إليه المصادفات من غنائم الإثم والفسوق ، هؤلاء الفتيات الفقيرات خطر على باريس وزوار باريس . وهن خطر محقق على الشبان المصريين والشرقيين الذين حرمتهم التقاليد الإسلامية من الأنس بالمرأة الفاجرة ، فكم من شاب مصرى أسلم شرفه وعرضه لامرأة بغى في أول ليلة دخل فيها باريس ، وكم من شاب مصرى جاء باريس ليتعلم فظل جاهلا ثم عاد إلى أهله يحمل أشنع وأوبأ ما عرف الطب من جراثيم الأمراض . والفرنسيون يعلمون علم اليقين أن عاصمتهم موبوءة ، وأن الحى اللاتينى حى الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء ، ومن أجل ذلك رأيت منهم من يتباهى بأنه لم يعد إلى ذلك الحى منذ كان طالباً . ومن الأساتذة من لا يعرف من ذلك الحى غير السوربون والمعاهد الملحقة بجامعة باريس .

وبعد ذلك فلمن أكتب المقال ؟ إن ذلك الحيوان المخدوع الذى اسمه إنسان سيعلل نفسه دائما ويخدعها بما يسميه التجربة ، فهل أستطيع أن أقترح فقط على صديقنا الدكتور الديوانى مدير البعثة المصرية فى باريس أن يضع نظاماً يفرض فيه الكشف الطبى على الطلبة المصريين من حين إلى حين ، علهم يتقون الله فى أنفسهم فيفرون من أوباء الحب الأثيم .

باريس في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مصر في باريس

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل أمة دار يأوى إليها أبناؤها المغتربون : فلأمريكا وبلجيكا واليابان دور فى مدينة الطلبة . حتى الأرمن لهم دار ! أما مصر فمسكوت عنها فى تلك البقعة الجميلة . وقد اقترح بعضهم مرة فى مجلس النواب على وزير المعارف أن يفكر فى إنشاء دار مصرية بمدينة الطلبة في باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن ينبثوا فى الأوساط الفرنسية .

وهم قد انبثوا بالفعل . ولكن أين ؟ فى الحانات والقهوات !

الحب فى باريس وفى ليفربول

صديقى «ن ...» شاب جميل الوجه ، طيب القلب ، سليم الذوق . عرفته لأول مرة فى القاهرة فى صيف سنة ١٩٢٥ وقد فرقتنا الأيام بعد ذلك ، فذهب إلى ليفربول ، وبقيت أنا موزع الجهد ، مقسم القلب ، بين القاهرة وباريس .

وفى هذا اليوم صادفته هائماً فى حديقة لكسمبور ، فتعانقنا وتبادلنا أطيب التحيات ، وسألته وسألنى عما لقى وما لقيت ، ودعوته إلى لحظة نقضيها فى قهوة داركور أمام السوربون .

جلسنا ، وتحدثنا ، وشربنا .

لكنى لاحظت أن صديق سنة ١٩٢٥ غير صديق سنة ١٩٢٩ فقد كان الصديق الأول فى سذاجة ، وطهارة ، ونبل ، وإخلاص . أما الصديق الثانى فهو إنسان مداور ، ماكر ، خبيث ، محتال ، لاتصل إلى قلبه إلا عن طريق النفاق .

ابتدأ فلعن باريس ، وأهل باريس، ومحبى باريس . فقلت : استثن من فضلك ! فأجاب : العفو يابيه !

باريس فى رأيه مدينة دعارة وفسق ومجون وشهوات ، وليس فيها على حد تعبيره إلا فاسق أو ختال ، وقد انطلق

كالقذيفة يصف الفرنسيين بأشنع ما حوت القواميس من قبيح الصفات والنعوت ، ثم إندفع يقابل بين الأخلاق الانجليزية والأخلاق الفرنسية ، فكان الانجليز فى رأيه ملائكة ، وكان الفرنسيون شياطين . هنالك ابتسمت ، وقلت : الآن ياصديقى أطمأننت عليك !

فقال : وكيف ؟

قلت : كنت فى شك من أمرك ، فقد كنت أخشى أن تعيش فى بلاد الانجليز بدون فائدة ، كما هو حظ كثير من أعضاء البعثات المصرية ، أما الآن فقد عرفت أنك استفدت !

قال : هذا غريب . أنت لم تختبرنى حتى تعرف إلى أى حد وصلت .

قلت : بلى ، قد اختبرتك ، وأن لم أوجه إليك سؤالا ، ولم أسمع منك جوابا ، فإن حملتك الشعواء على الأخلاق الفرنسية تدل أوضح دلالة على أنك أشربت أخلاق الانجليز وسجاياهم وقد علمتنى التجارب التى كوت يدى ، وأشباطت دمى ، وأيأستنى من صفاء الطبيعة البشرية ، وأقنعتنى بأن الإنسان حيوان لئيم ، علمتنى تلك التجارب أن أجهر الناس صوتاً فى الدفاع عن الفضيلة هم المنافقون ! وأنت يا صديقى

تتـأفف من هواء باريس ، وتعلن أن جـوها مـشـبـع بأوزار الغواية والفسوق ، وفى هذا دليل على أنك أصبحت انجليزيا صميما ، ونحن نرسل أبناءنا إلى انجلترا ليتخلقوا بالأخلاق الانجليزية ، فلم تضع إذن الدنانير اليومية التى أنفقت عليك ، فلطالب البعثة فى كل يوم دينار ، كأنه ابن الملك فى أساطير الأولين !!

قال الصديق ، وغلى وجهه بوادر الألم والغيظ : أوضح فإنى لا أدرك تماما أى هدف ترمى ، ولا أى وجه تريد .

قلت : يجب أن تعلم أن الانجليز أقدم الناس عهداً بالنفاق . وأنا لا أتكلم عنهم من الوجهة السياسية فقد يكونون فى السياسة صرحاء ! إنما أتكلم عن الأخلاق : الانجليز يعملون كل شىء ، ويكتمون كل شىء : يقترفون أشنع المنكرات ، ويظهرون دائما سيماء الطهر والعفاف . والويل كل الويل لمن يفتضح أمره بينهم فإنه لا محالة مطرود منبوذ . وهم فى هذا يعملون كما كان يعمل الأسبرطيون قديما : فقد كانوا يعاقبون السارق لا لأنه سرق ولكن لأنه لم يعرف كيف يخفى السرقة ويمشى فى ثياب الأبرياء .

قال الصديق : هل عاشرتهم ياسيدى حتى تحكم عليهم

هذا الحكم ؟

قلت عاشرتهم قليلا ، ولكنى قرأت أكثر ما نقل من مؤلفاتهم إلى الفرنسة وأقتنعت كما أقتنع كثير من أحرارهم ومفكريهم بأن الحواضر الانجليزية أوكار خبث ورياء ، وأن لندن بوجه خاص تضم إلى جنباتها أخطر ما عرف من أساليب الإثم المستور !

وأنت ياصديقى تمثل نفس الدور أصدق تمثيل ، فأنت تركت ليفربول لتقضى إجازتك فى باريس ، والشيطان يعلم لم جئت باريس ، ونصيحتى لك أن تعيش فى فرنسا بنفس فرنسية لا انجليزية : فالفرنسيون تضيق صدورهم بالنفاق ، ويحتقرون المنافقين وهم حين يحبون فى صراحة ، وحين يبغضون يبغضون فى وضوح ، وقليل منهم من يحسن المداورة ويميل إلى التضليل .

لكن صديقى لم تغنه هذه الخطبة ، واستمر يقبح الأخلاق الفرنسية ، ويمجد الأخلاق الانجليزية .

فما الحل ، وكيف السبيل إلى هدايته ؟

آه ! لقد إهتديت إلى الحل .

فما هو ؟

كأس من بيكون ! فإن لم تغن الكأس الأولى فكأس ثانية وثالثة حتى تصفو نفسه ، ويخلو رأسه من عقارب النفاق ، ويعود طفلا محبوبا كعهدى به لا يشارى ولا يمارى ولا يكذب ولا يمين .

يا غلام ! هات كأسا من بيكون !

جاءت الكأس مترعة ، ونظر إليها الصديق نظرة غزلة ، ثم شربها فتقطبت لها أسارير وجهه ، وتطلقت أسرار قلبه ، ودعوت بكأس ثانية فكاد من طرب يهيم ، وخلته ينشد وهو نشوان :

جمعت بالكأس شملى   الله يجمع شملك
بحق رأسك دعنى   حتى أقبل نعلك

وعدنا نتكلم عن باريس وصراحة الباريسيين . فقال : أنا الآن معك ، فباريس هى المدينة الوحيدة التى يعيش فيها المرء على فطرته ، يحب مايحب ، ويبغض ، فى صراحة وجلاء . وأنا معك أيضاً فى أن الانجليز منافقون . ولكنى أحب أن تعلم أنهم ليسوا جميعاً سواء .

قلت : كيف ؟

قال : نحن نعيش فى ليفربول . والحرية فيها تكاد تكون

تامة ، ويكفى فى بيان ذلك أن أقص عليك النادرة الآتية :

قامت فى الجامعة مناظرة موضوعها :

«أيهما أحب إليك : أن تكون أحببت مرة وأخفقت ، أو أن تكون خلى القلب من نعيم الحب وعذابه ؟» .

وقد أعطى الطلبة لأنفسهم مذاهب من الآراء لا حد لها فى المفاضلة بين الوجهتين ، ثم قام فى الختام مدير الجامعة وقال :

«تتكلمون عن الحب ؟ هذا جميل ! ولكنى أرى أننا مقبلون على جفاف ، فقد كنت ألمح فى شرفات الجامعة الطلاب والطالبات أزواجاً أزواجاً يتهادون التحيات والقبلات فى خفر وحياء ، وكنت أتعامى حتى لا أفرق بين حبيبين يتناجيان . أما اليوم فقد عدت أمشى فى أرجاء الجامعة بخطاً مسروقة ولا تقع عينى على محب ولا محبوب .

أيها السادة ! الحب فى خطر ! أنقذوا سمعة الجامعة !» .

قص صديقى هذا الحديث ، ثم نظر فرآنى أفكر ، فقال :

ما خطبك ؟ قلت لا شىء ! لقد تذكرت أن هذه المناظرة ألقيت هذه السنة فى الجامعة المصرية فمن المحتم أن يكون أقترحها أحد الأساتذة الانجليز ، ومن المرجح أن يكون قد

أستقدم من ليفربول : فنحن نأخذ بقاياكم فى العلم والحب ، لو تعلمون .

وعند هذا الحد كانت صفت نفس الصديق ، وتحلل حقده المزعوم نحو باريس ، وسألنى عن بعض الناس في مصر . فقلت : إنهم بخير ، ولا عيب فيهم إلا أنهم انجليز أو أشباه الانجليز ، وأنك تعلم ماذا أريد !

باريس فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٢٩

صيد القاهرة أم صيد باريس

صديقى ...

كتبت إلىّ تسألنى أن أصف لك ألوان الحياة فى باريس ، وألوان الحياة لها فى نفسك معان غريبة تشوق النفس وتثير الوجد ، فباريس عندك مدينة الفتنة واللهو والمرح والمجون ، وشارع عماد الدين الذى تقضى فيه ليلك وشطرا من نهارك يجب أن يكون فى لجبه ، وضوضائه ، صورة مصغرة جداً لشوارع باريس ، وقد ضاق عليك ذلك الشارع البهيج فيما أظن ، فأنت تريد أن تحيا حياة أوسع وأطيب ، ولو عن طريق الخيال ، متأسيا بالشريف الرضى إذ يقول :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى   فلعلى أرى الديار بسمعى

وأنا والله عاذرك ، فقد أتيح لى أن أواجه الحياة فى مغانى القاهرة والأسكندرية ودمياط والمنصورة وأسيوط ، ثم رأيتها جميعا أضيق من سم الخياط ، ومات عسى أن يطيب العيش بين أقوام لايفرقون بين الهزل والجد ، ولا يحلو لهم غير القيل والقال ، وهم فى أنفسهم أصغر من أن يقدروا نضرة السراء ، أو قسوة الضراء ، فمن حقك علىّ وأنا صديقك الذى يأسى لقلق نفسك وبلبلة خاطرك أن أتحفك ببعض الصور الناطقة

من حياة باريس ، ولكن ماذا أقدم لك ياصديقى ؟ وماذا أختار من بين ما أرى وما أسمع ؟

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش مايصيد

لكن اسمع ، اسمع فقد وجدت الجواب !..

أنت بالطبع تعيش فى مغانى القاهرة عيشة خالية من كل معانى السعادة لخلو القاهرة المسكينة من أودية الصيد ! هذا مفهوم جدا ، ولا موجب للمواربة لأننا بحمد الله لم نرزق مثقال ذرة من نعمة النفاق التى يرتع فى ظلالها المنافقون . وكل حظك فيما أظن لايتعدى المناوشات الصغيرة فى طريق الأهرام أو طريق السويس وأحيانا فى شارع شبرا المتواضع حين يخلو جيبك من بقايا تلك الأوراق الممدودة التى تقلبها بين يديك مرة ومرة ، وثالثة ، أول يوم من الشهر ، ثم تتفقدها فلا تجدها فى صبيحة اليوم التالى . أليس كذلك ؟ بلى وما أحسبك من المكابرين !

ولكن ما رأيك فى أن ذلك الصيد الذى تظفر به فى بعض غدواتك أو روحاتك أطيب مساغا وأحمد عاقبة من صيد باريس . لا تلو وجهك ياصديقى ولا يثقل عليك كلامى فأنا أقول الحق . إن صيدك فى القاهرة حلو وديع لايحمل

المسدس ولا يحسن الضرب بالرصاص . هل فهمت الآن ؟ إن صيدك يكاد يجن من الفرح حين يقع فى الشباك . وقد يتأنى ويتمنع ، ولكنه يتمنى أن يظل سجين الفخ أبد الآبدين ، وقد يكون صيدك مسلحا ، ولكن بأى سلاح ؟ سلاح الطرف الغضيض الذى يحمل فى تكسره مابقى من سحر هاروت وماروت . وقد يطمع صيدك . ولكن فيم يطمع ؟ فى نزهة بالسيارة فى حراسة القمر وعلى شواطىء النيل . فإن نفحته بشىء من بقايا فضلك فأنت فى عينيه أكرم من أقلت الأرض وأظلت السماء .

أما صيد باريس فيختلف عن ذلك الصيد أشد الاختلاف .

ولكن هل فى باريس صيد ؟ لقد بحثت كثيرا هذه المسألة ، نظرتها أولا فى أمهات الكتب وفى المعاجم والقواميس ، وأختبرتها ثانيا فى المسارح والمشارب والحدائق والشوارع والميادين ، وسألت عنها الناس ، من جميع الأجناس ، وانتهيت بعد البحث الطويل إلى الحقيقة الآتية :

«ليس فى باريس صيد . ليس فى باريس إلا ظباء هرب منها قانصوها» .

هذه هى الحقيقة التى لايمترى فيها إلا كل مغرور مفتون ،

وأى لذة وأى فتنة ، وأى سحر بقى لتلك الظباء الغوادر اللاتى أضناهن كيد الليل ومكر النهار ؟ إن الفتاة لاتجدك إلا بعد أن تكون قد ألفت جميع ضروب الختل والخداع : وفى صدر كل فتاة باريسية خاطر يوسوس وقلب يخون ، ويندر جداً ألا يكون فى جيبها سلاح محشو بأسباب الحتف والهلاك . ففى كل جريدة وكل نشرة وكل مجلة أخبار مزعجة بشعة مخيفة عن ضحايا الحب الأثيم ، وإذا كنت تجد أحياناً فى الصحف المصرية صدى لحوادث الفتيات الفاتكات فذلك وشل قليل جداً إذا أضيف إلى هذه المجازر البشرية التى تقع فى باريس مدينة النور فيما يزعمون .

ولك أن تسأل ياصديقى عن سر هذا الوباء الخلقى الذى يفتك بالناس فى باريس ، وتوضيح ذلك سهل : فإن جمهرة الفتيات اللائى تتكون منهن عصابات الإثم والغواية ينشأن عادة من طبقات فقيرة والطبقات الفقيرة هنا هى طبقات العمال . والعامل الفرنسى فى الأغلب رجل خشن جاف تشقيه مهنته ويضنيه عمله . فإذا شبت له طفلة ألحقها بعمل من الأعمال يكون غالباً فى دار من دور التطرين ، وفى تلك الدور طبقات مختلفة من النساء يعرفن جميعاً كيف ينظم

الهندام الفتان ، وكيف يكون للمرأة اللبقة أصحاب وأخدان ، وكذلك تقضى الفتاة يومها فى بيئة لينة تقتل الوقت بالعمل وبالتحدث عما وقع لفلانة مع فلان ، والفتاة الحدثة متشوفة تصغى لكل حديث ، وتتطلع إلى كل قادم ، وتتأمل كل حركة ، وتميل مع كل ريح . فإذا جاء المساء عادت إلى مأواها فوجدت أمها فى ثيابها الخلقة ، ولقيت أباها كعادته قذر الثياب عابس الوجه لايعطف ولا يلين ، ثم تقدم المائدة فتراها باردة لا طعم لها ولا لون ، لأنها مائدة عمال فقراء يتقاسمون اللقمة ويتناهبون الحساء ، فترجع الفتاة إلى ذاكرتها تستحضر ما سمعت طول اليوم من وصف المآدب والموائد حيث كان النساء العاملات يعددن بإسهاب وإطناب ما كان من ترف وفتنة ورفاهية مع الأصدقاء والخلان .

ومن تلك اللحظة تتسع الهوة بين الفتاة وبين أهلها فهى بينهم فى سجن مظلم لا نوافذ له ولا أبواب ، وتمر الأيام تلو الأيام وهى تفكر وتدرس وتقارن بين حالتها التعسة وحالات رفيقاتها اللائى يمرحن فى بحابح النعيم . وتسأل نفسها : أيكون هؤلاء الرفيقات من بيوتات أغنى وأقدر على جلب أسباب المرح والرغد والأقبال ؟ ثم يتضح لها بعد البحث أن

النشأة تكاد تكون واحدة وأن هؤلاء اللاهيات المرحات لايمتزن عنها إلا بشيء واحد ، شيء واحد فقط لا أكثر ولا أقل ، وذلك الشيء الواحد ماهو وما عسى أن يكون : هو الصديق !

الصديق : نعم هو الصديق الذي يغير الفتاة من حال إلى حال ، وهو من أمرها على كل شيء قدير ، ولكن كيف السبيل إلى هذا الكنز الثمين ؟ كيف ؟ كيف ؟ ذلك ما تحار فيه الفتاة، لأنها لاتزال فى أول عهدها بالحياة ، وهى ككل فتاة ناشئة تحمل فى صدرها بقايا طيبة من عناصر الخجل والحياء ، وكذلك تقضى عدة أسابيع أو عدة أشهر وهى فريسة الهواجس والبلابل والتأملات السود ، لأنها أضعف وأوهن من أن تصارح أمها أو رفيقاتها بتلك الحاجة الملحة : حاجة الفتاة الشقية العذراء إلى الصديق .

وفى أثناء هذه الأزمة الخطيرة تتأمل وهى فى دار من دور السينما فإذا فتى يسارقها النظر ويهدى إليها طيف إبتسامة، فتعود المسكينة إلى نفسها فإذا قلبها يخف ، وبصرها يزيغ ، وتدمدم فى فرح مشوب بالخوف : هذا صديق ! ثم تجرؤ رويداً رويداً فتبادله النظرات والبسمات فى هدوء متكلف مصنوع ، لأنها صارت كالثمرة الناضجة تنتظر أول هزة

لتودع الدوح وتهوى إلى الأرض !

ويتلاقي العاشقان على الباب ، فيقول الفتي : مدموازيل !

فتجيبه الفتاة : مسيو ! ويقف الأمر لأول مرة عند هذا الحد .

فإذا مضت الفتاة إلى بيتها قضت الليل كله أرقة مهتاجة لاتعرف السبيل إلى القرار . هذا فتي رشيق حلو الشمائل مليح الهندام ، يظهر أنه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب فى إحدى كليات الجامعة ، أو موظف ناشيء فى إحدى المصالح العمومية ، ألا يكون هذا هو الصديق المنشود ؟

وفى اليوم التالى تبكر الفتاة إلى نفس الملهى علها تجد رفيق الأمس ، وما أشد سرورها حين تراه ينتظرها على الباب وهو فى رواء آنق وأروع ، وقد أخذ زينته ، وموج شعره ، وأصلح من هندامه، وأحضر لها باقة من الزهر النضير .

هذا ياصديقي شعر بديع يقع على قلب الفتاة موقعاً أخاذاً يأسر منها العقل والحواس .. ثم تمضي الأيام فى فتنة متصلة أنت أعرف بمالها من دقائق وتفاصيل ، إلى أن يقع

الخطر ، وهذا الخطر يبدو لأول وهلة بسيطاً مأمون العواقب لأنهما قد تواعدا على الزواج. ولكن كيف يكون ذلك والفتى قد نشأ فى بيئة غنية وقد أرسله والداه ليتم دراسة الطب أو الحقوق فى باريس ، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعينه أهله على التزوج من فتاة فقيرة ليس لها مهر ولا ثروة ، والمهر والثروة هما أساس الزواج فى أوروبا وخاصة فى باريس .

وكذلك يفترق العاشقان بعد أن تكون الفتاة قد ألقت نفسها إلى الأبد فى هاوية الشقاء . ومن هنا ينشأ الحقد الخالد حقد الفتاة اللعوب على كل فتى جميل ، فإن سمعت أن فتاة باريسية سلبت عاشقها مايملك ، أو ضربته بالمسدس ، أو طعنته بالسكين ، فاعلم ياصديقى أنها تنتقم من عاشقها الأول ، وكل عاشق هو فى عينها صورة مكررة لذلك الغادر الختال ..

افهم هذا واقنع بصيد القاهرة ، واذكر أخاك بخير ، والسلام .

باريس فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

شهداء السين

شهداء السين ؟ أى والله ! وكم للسين من شهداء .

إننا لا نتحدث فى هذا المقال عن ضحايا الحب ، ولا عن الصرعى الذين تنقل الجرائد أخبارهم صباح مساء ، فإن باريس من بين مدن العالم تمتاز بهذه المآسى الشنيعة المزعجة التى تقع بين العشاق فى كل حى من أحيائها العديدة. ولعل السر فى هذا يرجع إلى أن أهل هذه المدينة شديدو الحساسية ، سريعو التأثر والانفعال .

والباريسى بطبعه رجل قلق كثير الوسواس والشجون . ويزيد فى هذا سيادة النظام الخطر : نظام المخادنة ، وهو نظام لايقصر شره على الأعزاب وحدهم ، وإنما يتعداهم إلى الأزواج : فليس من المستغرب هنا أن يكون لكل زوج خليلة ولكل زوجة خليل . والقوم قد درجوا على الشر حتى لايرجى لهم شفاء ، فحوادث الحب والخيانة هى كل مايجرى فى المسارح ودور السينما ، وكل مايجرى أيضا فى الدراسات الأدبية التى يتلقاها الشبان فى المعاهد والجامعات . ولنظام المخادنة خيره وشره : فهو خير لأنه شبه دواء لهذا الجنون المستعر جنون الشباب ، وهو شر مستطير لأنه يخلق من

الفساد الخلقى والاجتماعى أمراضا كثيرة أيسرها الموت الذريع كلما هبت رياح الشقاق لا نتكلم هنا عن ضحايا الحب ، وإنما نتكلم عن شهداء الفاقة والبؤس ، فإن باريس لم تستطع ولن تستطيع أن تصير أهلها جميعاً سعداء ، وكيف يمكن ذلك ونحن فى عصور لا تعرف ما القناعة . وما الزهد وما الرضا بالقليل ، وقد عفت منها جميع الرسوم الدينية التى كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم فى الحياة ، ومن النادر أن ترى كنيسة مزدحمة بأسراب المؤمنين والمؤمنات ، حيث تلقى العظات والكلمات الحكيمة للتأسى بالأنبياء والقديسين ممن قضوا أعمارهم ينتظرون ما تسوق إليهم الرحمة الآلهية من صنوف البر والإحسان . إنما يعيش أهل باريس فى التطلع بعضهم إلى بعض وحسد من يجد لقمته فى الصباح وحساءه فى المساء ، وقد يتشوفون إلى من تواتيه الظروف فينحدر إلى الحانة يعب ما طاب له من ألوان الشراب . تلك هى حياة أهل هذه المدينة التى تأكل أبناءها كما تفعل القطة المجنونة ، وليس فى الدنيا مدينة يموت فيها الإنسان جوعا إذا نفدت دراهمه غير باريس ، وتشبهها لندرا وبرلين فى هذا الجانب المظلم . فليس أزدهار

المدن فى الواقع إلا متعة للأغنياء والموسرين ، أما الفقراء فلهم من المدن المزدهرة حظ البأساء والضراء .

فى باريس طائفة كبيرة من أهل البطالة والفراغ ، وهذه الطائفة كثيرة التطلع والتشوف إلى حوادث الطريق ، فهذه الملاهى الوقتية التى تسوقها الحوادث هى كل ما يملكون من أسباب التسلية . وكذلك تراهم يتجمعون تجمع النمل فى لحظة واحدة إذا تصادمت سيارتان ، أو سقط كلب تحت الترام ، أو قبض البوليس على رجل متشرد ، أو وقف بائع متجول فى ناحية يعرض ما عنده من طرائف الأشياء ، وهؤلاء الناس يسميهم الباريسون «بادو» badaud ولهم فيهم قصص وأحاديث .

* * *

كنت أمس فى الساعة الحادية عشرة صباحاً أمشى على شاطىء السين فما راعنى إلا فتى يلقى بنفسه فى الماء . وسرعان ما تجمع الناس وفى دقائق معدودة جاء البوليس وجاء رجال الإسعاف ، وفى هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة : من عسى أن يكون هذا الفتى ؟ ومن أى طبقة ؟ وما هى محنته ؟ وكيف أستسلم

إلى هذا المصير الفاجع ؟ وكيف بدا له أن يودع باريس ؟ وكيف كان حقده على الوادعين والوادعات ، والآمنين والآمنات، قبيل اللحظة التى أقدم فيها على هذا الجرم الفظيع؟ وما الذى كان يمر بباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها ، حين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء ؟ وكيف كان شعوره بالموت والحياة ، والعدم والوجود ؟ وفيمن كان يفكر ؟ وإلى من كان يحن ويشتاق ؟ وعلى من كان يعتب ؟ وكيف كان يتمثل ظلام الهلاك ؟

مرت هذه الأسئلة بالخاطر ، مر الطيف ، ثم رفعت بصرى أتأمل ماأمامى ، فإذا رجال الإسعاف قد نزلوا فى فلك صغير يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لايهتدون ، وبعد لحظة تراءى للمتجمهرين شبح على الماء فأهابوا بالبحارة ، فمضى بعضهم فى فلكه حتى أدرك ذلك الشبح . ولكنه لم يجده إنساناً إنما هى لفافة من الورق تطفو على وجه الماء ، فعاد البحار يبحث فى مكان آخر ، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة الغريق فرفعوه ، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس ينوس ، ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة ، وزادهم طمعا فى نجاته ما بدا من بريق شعره ،

ونضارة جسمه . وجاء الطبيب فخلع عن المسكين ملابسه ، وشرط أذرعته فخرج الدم يتصبب ، وبدئت عملية التنفس الصناعى فى مهارة ونشاط .

وكان الناس يشاهدون هذا المنظر فى تطلع لايصحبه ألم ولا حزن . أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب أنظر ما سيكون ، ولعل هذا يرجع إلى أننى كدت أغرق فى عهد الحداثة لولا أن أتاح الله لى مروءة ذلك الفلاح الصالح المرحوم أحمد الصواف ، وقد أنقذت بنفسى أربعة من الغرق ، أعاننى الله على إنقاذهم من تلك الميتة الشنعاء ميتة الأختناق .

منظر محزن يخلع القلوب . رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس فى باريس ، وقد أدهشنى أن رجال الإسعاف كانوا يتضاحكون أحياناً وهم يجرون عملية التنفس ، وزادت دهشتى حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت فى طمأنينة وهدوء ، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس فى القهقهة بشكل مخجل مريب ، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم ، ثم تركهم فى غيهم يعمهون .

ومضت ساعة كاملة فى عملية التنفس والصريع ملقى على وجهه يقاسى جسمه الفانى ألوانا من الإجهاد ، وطال بى

الوقوف وقرصنى الجوع فمضيت أتناول الغداء ، ولا أدرى كيف عدت بعد ذلك لأرى مصير الغريق ، وقد رأيت الناس لم يتفرقوا ، ورأيت رجال الإسعاف ماضين فى عملية التنفس بنفس النشاط الذى أبتدءوا به فلما دقت الساعة الثانية وكان قد مضى على عملية التنفس أكثر من ساعتين عرفوا أن لا أمل في ذلك الصريع الذى سقط شهيد البأساء في باريس .

وسرعان ما جاءوا بنعش صغير حملوا فيه جثة الميت ، حملها رجلان إثنان وتبعهما الناس وهم يتزاحمون كأن لم يروا من قبل ميتاً يحمل على الأعناق ، وسرت مع السائرين أنظر ما سيكون فرأيتهم يدخلون به المستشفى الذى يسمى (بيت الله) فعجبت كيف صحت التسمية لذلك المستشفى الذى يتلقى على الرحب والسعة من لم يبق لهم غير رحمة الله .

وقد خفت حركة الناس حين وصلوا بالميت إلى ذلك المكان إذ رأوا أن ملاحقته هنالك ضرب من الفضول المرذول ، وأقبل عدد من السيدات فى الثياب البيض ثياب التمريض فتلقين الميت ببعض التسبيحات والدعوات .

* * *

كان ذلك الحادث أمام كنيسة نوتردام وكان مفهوما بالطبع

أن الغــريق من أهل ذلك الحى . ومع ذلك لم ير أحــد يهــتم بالميت فلا أهل ولا أصدقاء ، ولم ير فى الحاضرين من يقول : هذا هو المسكين فلان الذى كان يعمل فى مخزن فلان .

فكيف وقع ذلك ؟

الجواب حاضر : ذلك أن باريس تستقدم إليها العمال الفقراء من جميع الأقاليم الفرنسية : ثم تتركهم بلا ناصر ولا معين .

وفى باريس منازل لإيواء البائسين فيها ما يسمونه «منازل الحبال» وسميت كذلك لأن فيها حبالا يضع عليها البائسون ثيابهم ثم ينامون على البلاط : بأجر مقبول هو ثلاثة مليمات فى الليلة ، وفيها مايسمى «بيت الشعب» وهو بيت كبير جداً ينام فيه الفقراء ويتناولون لقمة فى الصباح وحساء فى المساء: بأجر مقبول أيضاً هو ثمانون قرشا فى الشهر . ولكن أتظن أن جميع الشبان البائسين يصبرون على مواجهة الحياة فى بيت الشعب ومنازل الحبال ؟ هيهات ! فقد غرست فى أبنائها روح الترف ، وعلمتهم كيف يثورون علي أوضاع الاجتماع ، كما غرست فيهم روح السخرية ، وعلمتهم كيف يشهدون مصارع المنتحرين فى هدوء مطبوع .

باريس ! أيتها الطاحونة العاتية ! أيتها الدنيا الغادرة !
كم فيك من قلب مفطور ! وكم فيك من دم مطلول ! ومع ذلك لاتزالين أمل الآمل وأمنية المتمنى ، ومأوى ماند وشرد من ألباب الشعراء وعباقرة الفنون .

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠

كان ياما كان

تحدث بعض الناس فى هذه الأيام عن وصول العرب إلى أمريكا قبل كريستوف كولومب ، وهى مسألة تحتاج إلى تحقيق طويل ، والذى لاشك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم من الأمم القديمة ، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو ثلاثة قرون ، وهى مدة ليست قليلة فى سيادة الشعوب .

كل هذا جميل ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الأسبان، أو يدرى القارىء ماهى تلك الأعجوبة ؟

تلك هى احتلال فرنسا وانجلترا وإيطاليا لأكثر أقطار الشرق الأدنى فى أقل من أربعين عاما .

لقد آن أن نفكر فى الحاضر ، وأن نعرف أن احتلال العرب لجزء من أوروبا وتفكيرهم فى فتح أمريكا لا يغنيان شيئا فى هذه الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستعباد .

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار ، لو فكرت جديا فى الخلاص وزهدت فى المجد المكذوب الذى يمثله هذا البيت :

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة

فيها أمير المؤمنين ومنبر

سهرة فى قهوة الجامع

صديقي الأستاذ أحمد الزين .

تحيتى إليك من هذه الديار التى طالما تشوقت إليها ، وحننت إلى ربوعها العامرة ، وقرأت أخبارها فيما ترجم عن حياتها إلى اللغة العربية .

وبعد فقد كنت سألتنى أن أكتب إليك ، ووعدتك مخلصا بذلك ، وهأنا أفى بالوعد ، فسامحنى أولا إن لم أقل «هأنذا» فإنها ثقيلة ولم يلتزمها إلا المتكلفون ، وأنت تعرف إلى أى حد يملنى التكلف ؛ ويثقل علىَّ التزام مالا يلزم فى الكتابة وفى الحديث .

لقد ذكرتك يا صديقى ، ولكن حاشا أن يمر ببالك قول عنترة العبسى .

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
برقت كبارق ثغرك المتبسم

لا تذكر هذا لأنك تعرف أولا أن الله كتب علينا أن نعيش فى سلام هو شر من الحرب : فلا رماح ولا سيوف ، وتعرف

ثانيا أنه ليس فيك أى سمة من سمات الملاحة حتى نذكر بسماتك العذاب ، وهذا لا يجرحك بالطبع ، لأنه ما حاجتك إلى الجمال وقد وقفت حياتك على مغازلة الصحف البالية فى دار الكتب المصرية . إنما يحتاج إلى الجمال أديب متأنق تقضى عليه تكاليف الحياة بأن يلتقط الأسرار فى صالات الرقص وأبهاء الوزراء ، أمثال فلان وفلان ، وقد أراحك الله من كل ذلك ، فاحمده حمد المخلصين على أن منحك فقط بنية متواضعة وذهنا ثاقبا ، ولسانا فصيحا يصل بك إلى ما تريد، أو بعض ما تريد ، فى عصر لا تغنى فيه بلاغة القلم ولا فصاحة اللسان .

لقد كنت نسيتك يا صديقى ، ولم يذكرنى بك إلا قهوة الجامع فى باريس، فقد سافر خاطرى إلى قهوة الحلمية الجديدة بالقاهرة . حيث تقضى سهراتك فى صحبة أصدقائنا الأساتذة محمد الهراوى وحسن القاياتى وكامل كيلانى ومحمد عبدالمطلب . وحيث تشربون مالذ وطاب من قهوة أبى الفضل لا قهوة أبى نواس ، وأنا لا أتهمكم يا صديقى بأنكم تؤثرون قهوة أبى الفضل لأنها رخيصة ، كلا ، معاذ الله أن يمر بخاطرى ذلك ، فأنا أعرف أنك لا تعاقر

الراح لأنها لا تتناسب على الأقل مع رجل معمم يحمل إجازة الأزهر الشريف ، وصديقنا الهراوى رجل محتشم أشد الاحتشام ، والسيد حسن القاياتى من سلالة أبى هريرة رضى الله عنه ! وأخونا كامل كيلانى مشغول بتدبير صحته؛ وهو عافاه الله مهدم لا يخاطر بحياته فى منازلة الصهباء . يبقى الشيخ عبدالمطلب وهو رجل لو رأته الكأس لولت هاربة إلى حيث لا تعود ، فليس منها وليست منه ، مهما حشر نفسه فى زمرة الشعراء ! وبهذه المناسبة تستطيع أن تطمئن على أخيك من هذه الناحية ، فأنا أيضا لا أشرب الراح ، أو على الأصح لا أشربها إلا مشعشعة مقتولة لا ترخى المفصل ، ولا تزيغ البصر ، ولا يسرى روحها إلى قرارة الأسرار وليس لى منها يعلم الله صبوح ولا غبوق الا حين أبكى عهدا سلف ، أو أطرب إلى عهد مأمول . وقد صحا القلب ، والحمد لله، فلم تبق داعية إلى معاقرة الشراب ، وتذكر الأحباب . وأغرب ما يمر بخاطرى فى هذه اللحظة حديث الشيخ يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه بالأزهر أنه لا يشرب إلا الماء ويعلق على ذلك بقوله : والماء مع هذا شراب الحمير ! وكنت إذ ذاك أعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أن لم يرزق

من الشراب إلا ما يشاركه فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك أن الكلام قديم ، وأنه يرجع إلى الأخطل الشاعر النصرانى المعروف . وهذا الكلام له معناه على كل حال ، فأكثر الناس يتنسكون كارهين ، ولا يعزيهم إلا ما يرجون أن سيكون من الرحيق المختوم فى دار النعيم . والرحيق المختوم سر لا يعلمه إلا الله ، فقد كان أبو نواس يصف قهوته بأنه ختم عليها من عهد نوح . وستعرف بعد عمر طويل إن كان مصيرك إلى الجنة كيف يقول شعراؤها فى ذلك الختم الذى ورد ذكره فى القرآن الشريف ، على أنه سيكون هناك أيضا رحيق غير مختوم ، ستكون هناك أنهار كاملة من عتيق الشراب ؛ وستنسى يا سيد أحمد تلك القهوة السوداء التى تتصبح بها كل يوم فى دار الكتب المصرية ، والتى يلقانا بوجهها البنى القاتم صديقنا الأستاذ أحمد زكى العدوى كلما زرناه فى مكتبه حتى كدنا ننقطع عن زيارته فرارا من وجهها الآدم المحبوب !

وأعود فأقول : إنى ذكرتك فى قهوة الجامع ، وذكرت معك قهوة الحلمية ، وهى قهوة سخيفة لا هى بالجديدة ولا هى بالقديمة ، ولا أعرف لأى سبب هجرتم من أجلها قهوتكم

الأولى التى كانت تسمى «قهوة الآداب» وقد كان يُظن أنها سميت بذلك من أجل حضراتكم ، ولعنة الله على العقوق ! هى قهوة سخيفة لا تحفظ شيئا من تقاليد الماضى . وخير منها فى هذا المعنى قهوة أحمد عبده فى حى سيدنا الحسين (١) وليس فيها أيضا شىء من سمات الحاضر ، فليس على جدرانها صور ولا خرائط ولا لوحات فنية ، وليس فيها قانون ولا عود ، ولا يخطر ببال أهلها أن يضعوا فيها معدات السينما ، أو يستقدموا لها - ولو مرة فى السنة - بديعة ، أو نعيمة ، أو أم كلثوم ، ومن المحتمل فقط أن يكون صديقنا الأستاذ رامى يطرفكم هناك ببعض أغانيه وتغريداته . فعهدى به رخيم الصوت مخضرم الملامح ، فيه بقايا من اللطف والايناس !! على أن فى إنشادك الشعر يا صديقى متعة كافية لقضاء السهرات فى مَرح وطرب ، وهذا لا يمنع أن أقترح عليكم أن تهاجروا إلى مقصف حديقة الأزبكية ، فإنكم إن فعلتم ذلك دللتم على أن المصرى يميل

---

(١) فى هذه القهوة كان يسهر الوراق الشهير الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ليستشير أهل الفضل فى إحراق كتاب «الأخلاق عند الغزالى» وكان ذلك قبل سفره إلى بيت الله الحرام !

بطبعه إلى المهاجرة ، وأنه ليس كالماء الآسن الذى يفسده الركود .

أما قهوة الجامع فى باريس فهى تختلف عن قهوتكم أشد الاختلاف ، هي قهوة عربية بكل معانى الكلمة ، وتذكر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والاستانة والقيروان ، فحيثما رفعت بصرك فمناظر عربية وإسلامية طريفة لا نقص فيها ولا تحريف . وأنت حين تجلس فى قهوة الجامع تروعك الموسيقى الشرقية التى تطالعك بأجمل الألحان . وفي القهوة مغنون بعضهم من تونس ، وبعضهم من بغداد ، وفيهم مغن من الاسكندرية (١) ، وقد سمعت فى الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية ، وليتك كنت معى لتعرف كيف يحيا ابن هانيء الأندلسى حين يردد المغنى قوله فى ترجيع مملوء بالعطف والحنان :

حسبوا التكحل فى جفونك حلية
تالله ما بأكفهم كحلوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتهموك

والدور الذى مطلعه «على روحى أنا الجانى» والدور الذى

---

(١) هو العواد الشيخ عبده درويش .

فيه «إ متى أشوف أنس الجميل» وقد طربت إلى هذه الأغانى حتى كدت اقترح عليهم أن يغنونى «صيد العصارى يا سمك» أو «يانخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا» أو «الفؤاد ناوى ونادر، إن جفاك ما عاد يعود لك» لولا أن صديقا أفهمنى أن مثل هذا الاقتراح له ثمن فى مثل هذه القهوة ، وأنا كما تعلم فقير أو بخيل !

ويهذه المناسبة أرى من واجبى أن ألومكم على التهاون فى الأنس بالموسيقى ، فأنا لا أذكر أنى رأيتك مرة فى حفلة غناء تهز رأسك وتقول : الله ! الله! ولم أر الهراوى أيضا يطرب لمثل ذلك ، ولعله يتوقر عن تشجيع الغناء ، وإن كان يشجع الكتاب والمؤلفين ، والسيد حسن القاياتى يجلس دائما فى ركن مظلم إن ذهب إلى حفلة ساهرة ، وأخونا كامل ترك تقاليده الجميلة حين كان يفتش عنا بحماسة لا حد لها لنسمع معه أغانى الآنسة ملك أو عبداللطيف البنا أو صالح عبدالحى. والشيخ عبدالمطلب لا يطربه المغنى إلا إن رفع عقيرته وصاح :

أمن تذكر جيران بذى سلم

مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وانصرافكم عن الموسيقى والغناء هو سبب تخلفكم فى

الشعر فقد أصبحت شياطينكم مستأنسة لا تفزع إلى واديها الأول . وادى الجن وادى عبقر الذى نسبت إليه العبقرية ، كما أن السر فى نبوغ شوقى هو تهالكه الفاضح على الموسيقى والغناء ، ولولا السهرات الطروبة المجنونة التى يقضيها شوقى فى بيئات اللهو والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان ! وقد كانت تكونت فى مصر عصابة لقتل شوقى ، وأعدت لذلك «نبوتا» غليظا اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان وانهزمت العصابة وبقى شوقى يطغى كالحية النضناض . إنى لألومكم على ترك الموسيقى لوما عنيفا ، ولا ألوم نفسى لأنى تركت الشعر وتركت معه عالم الأحلام . وصناعتى الآن كما تعرف : مؤلف كتب ، ومنشىء مقالات ، ومدرس ، وهى أثاف ثلاث . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل !

وينجذب الناس إلى قهوة الجامع فى باريس لعدة أسباب..

منها القهوة التركية البديعة التى تنقلك إلى عالم غير عالمك فى لطف ساحر أخاذ ، ومنها الشاى المنعنع الطريف الذى يذكر بقول السيد عبدالعظيم القاياتى :

وعسجد الشاى يجلى
فى أكؤس من لجين

هـــــذا يــــــروق لقـلبـــى

وذا يـــــــــــروق لعيـنـــــى

ومنها النساء الجميلات اللائى يطفن بأركان القهوة بعد العشاء فيسحرن السامرين ، وأكثر هؤلاء الجميلات يردن ألمانيا والنمسا وأمريكا فى طلب الحب والغرام . وهن يذكرننى بموسم السياحة فى مصر حين تهب أرواح الشتاء ، وموسم السياحة فى مصر شىء لا تعرفه يا سيد أحمد ولا يعرفه أحد من زوار قهوة الحلمية ، هو موسم بديع تجلب فيه إلى مصر عرائس العالم القديم والجديد ، ومن الفرض الواجب على كل غانية مترفة أفاض الله عليها من نعمة المال والجمال أن تزور مصر فى الشتاء التماسا لبركات سيدى (أبى الهول) صاحب الأنف المجدوع ! ولا تكون السيدة أنيقة حقا حتى تستطيع أن تقول وهى تحاور أترابها الساحرات : « حينما جلست فى سفح الهرم أمام أبى الهول» أو «حينما ركبت الجمل وطفت حول الأهرام» أو «حينما ركبت الحمار وتوجهت إلى مقبرة توت عنخ أمون» الخ .. الخ .. والسيدة التى لم تمكنها ظروف الحياة من التحدث بمثل ذلك تتوارى خجلا وحياء إذا خاض النساء فى حديث مصر وما فيها من عجائب وغرائب . موسم السياحة هذا يا صديقى فرصة عظيمة للشبان المصريين يعرفون به طرائف الحسن المجلوب

من وراء البحار ، ويقضون بسببه ليالى سعيدة لم يشهد مثلها خوفو ولا عمرو بن العاص .. وأخوك يعرف هذا الموسم معرفة جيدة ، وليس معنى ذلك أن لى فيه حوادث وتجارب سعيدة أو شقية ، كلا ، فأنت تعرف أن حملى ثقيل ، وأن أعمالى لا تمكننى من اقتناص أمثال هذه الفرص الشوارد ، وقد يمضى العام ولا أعرف كيف طعم السهر فى مغانى القاهرة ، ولكن عندى فى هذا الموضوع كتاب معتبر بخط يدى اسمه «منحة الفتاح ، فى حوادث السواح» وهو كتاب ممتع لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من حوادث السائحين والسائحات ، وما يقع للشبان المصريين مع الامريكيات والألمانيات . وفى النية طبعه ونشره تعميما للفائدة ، وإن كنت أخشى أن يصرف الطلبة عن الاستعداد للامتحانات ، وتنظيم المظاهرات، ومصر الآن فى دور جدى خطير من حياتها السياسية والدستورية والاجتماعية . على أنه لا مانع على كل حال أن يأخذوا من كل شىء بطرف ، مجاراة لأمثالهم فى الأمم الحية المستقلة ، ونحن بحمد الله أحياء ومستقلون .

---

(١) ونحن مع هذا نعتذر للصديق الحميم الحاج طاهر الصباغ مدير قهوة ومطعم الجامع فى باريس : فتلك ملاحظة أثبتناها لوجه الله والحق .

أليس كذلك ؟!

* * *

كل ما فى قهوة الجامع جميل ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع ، وأنها بالفعل فى جناح من مباني الجامع .

فإذا ركب إنسان سيارة وقال : إلى الجامع ، فإن السائق لا يمضى به إلا إلى القهوة ، وأكثر السائحين والسائحات لا يفرقون بين الجامع والقهوة : حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين ، وفى هذا عار وخزى يندى له جبين الرجل الغيور . فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شئون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لابد لهم من قهوة عربية فى باريس ؟!

كل ما عندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة :

Une tenue trés correte est exigée

ومع هذا نجد للعشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق، ويمجها الطبع ، ولا تجمل مطلقا بمحل يتصل ببيت من بيوت الله .

إن باريس تحتمل كل شىء ، وأهلها لا يخجلون من شىء،

ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خطرة يجرى فيها اللهو واللعب ، مهما قيل إن الغرض منها شريف ، وأنه لا يقع فيها إلا اللهو المباح .

لقد كنت أصلى فى المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلا بقول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه   وللهو منى والخلاعة جانب

ولكنى لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التى تطغى بها القهوة على كرامة الجامع (١) .

وبعد فإنى أرجو أن يقع خطابى من نفسك موقع القبول ، وأن تبلغ تحياتى إلى صديقنا عبدالله حبيب وسائر زملائك الفضلاء والسلام .

باريس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠

لوعة السباعى

للأستاذ محمد السباعى فضل كبير على أكثر أدباء اللغة العربية ، وترجمته لكتاب الأبطال كانت ولا تزال من أبدع ما تزدان به مكاتب المتأدبين ، ولا أدرى لم لا يطبع ذلك الكتاب طبعا يتناسب مع ما يستحقه من الخطر والجلال .

لم أر الأستاذ السباعى إلى الآن ، ولكن صديقنا الأستاذ العقاد ، آنس الله وحدته (١) ، كان يحدثنا عنه أحاديث عجيبة لا يمكن أن تنشر فى صحيفة سيارة ، ويكفى أن نشير إلى أن ميدان السيدة زينب كان من الأماكن المختارة لخطرته الغرامية !

وقد تعودت أن أقرأ خواطر الأستاذ السباعى وأنا أبتسم لأنى أقدر ما وراءها من القلق والاضطراب ، وكنت افترض دائما أن الرجل يلهو فى خواطره الوجدانية ، إلى أن رأيته يقول :

«ناشدتكم الله ياأهل هذا الجيل إذا وقعت كلمتى هذه فى أيديكم مصادفة فلا تهزأوا بها ، ولا تسخروا منها ، ولا تتهمونى بأنى أشتكى آفة موهومة ونكبة خيالية ، محتجين بأن

---

(١) كان الأستاذ عباس العقاد سجينا عند كتابة هذا المقال .

العواطف من كواذب الاحساسات ، وأن آلام الحب أوهام وأحلام ، وأن التعقل والتروى خير ملكات النفس وأصح وظائفها ، وأنه لا حقائق فى هذه الحياة إلا البورصة والسمسرة والبنك والأسهم والسياسة والنقابات ومائدة الطعام ومائدة القمار وصحة البدن وقوة العضلات ، الخ » .

المسألة إذن جد فى جد والأستاذ السباعى فى خطر ، ولكن كيف السبيل إلى انقاذه وشباب هذا الجيل لا يكاد أحدهم يظفر بقطعة حب حتى يأخذها ويجرى إلى السطوح !

على أن الأستاذ السباعى لا يعدم سبيلا إلى السلوة والعزاء أليس هو الذى يقول :

« أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة فى صحيفة محياك فقرأناها فى صحيفة الطبيعة منثورة ، فأنت لم تحتجبى ما دمنا نراك فى الصباح المنير ، والجدول النمير ، فهلا منعت النجم لمعانه ، والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير ألحانه ؟» .

الحمد لله ! الآن اطمأننت على الأستاذ السباعى ، فلا شقاء ولا عناء ، وقديما علل نفسه بمثل ذلك من قال :

أليس الليل يجمع أم عمرو
وايانا فذاك لنا تدان

نعــم وأرى الهـــلال كما تـــراه

ويعلـوها النهـــار كما عـــلانـــى

وقد مرت بى أزمات تشبه أزمات الأستاذ السباعى ، وسأجتهد فى الاكتفاء بنور الصباح ، ولمعان النجم ، وسريان البرق ولكن ، واأسافاه ! أنا أعيش الآن فى بلاد لا يرى فيها شمس ، ولا قمر ، ولا نجم ، ولا برق . فكيف العزاء ؟

أتريد الحق يا سيد سباعى ؟ العشق نعيم على أن تكون لك حبيبة كتلك التى زعمت أنها تزورك سرا فى بعض الأحايين ، أما الطواف بالديار ، وتقبيل الآثار ، فهو فى عالم الحب يشبه أزمة القطن فى عالم الاقتصاد ، فما أحوجك إذن إلى صدقى باشا جديد !

تزوج يا مسيو راسين

على أن الأستاذ السباعى يحملنا فى بعض خواطره على الاقتناع بأنه صار من عباد الله المخلصين إذ يقول :

«الحمد لله على تقطع أسباب الأمل . هذا الغدر والغش .. والخيانة هو قصارى حظ الإنسان من المرأة التى تهوى .. هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها .. هذا هو الشمع الذى تنتهى إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة

الحب القذرة » .

وقد ذكرتنا هذه الكلمة ما كان من شأن راسين الشاعر الفرنسى : فقد كان المعروف أنه ترك التأليف المسرحى غضبا من تحامل النقاد على رواية فيدر . ثم ظهر بعد البحث أنه كان يتهيأ فى سريرة نفسه للرجوع إلى الحياة الدينية ، فقد كان له رؤساء روحيون يكرهون التمثيل والممثلين ، وقد صبر على مغاضبتهم له طوال أيام الشباب . فلما أخذ عوده فى الذبول فكر فى هجر التأليف المسرحى والرجوع إلى حظيرة الكنيسة . وكذلك ذهب إلى رئيسه الروحى يطلب إليه أن يعده لحياة الرهبان . ولكن رئيسه كان يعرفه كما يعرف نفسه ، وكان يقدر أنه سيظل طوعا أو كرها زير نساء ، وأنه لن يتوب عن جولاته فى ميادين باريس . وإذ ذاك قال له : خير من هذا كله أن تتزوج يا مسيو راسين !

فما رأى الأستاذ السباعي فيمن يطلب إليه أن يكتب مقالا عنوانه : تزوج يا مسيو راسين !

٩ فبراير سنة ١٩٣١

جواب الأستاذ السباعي

إلى الأستاذ النابغة الدكتور زكي مبارك :

قرأت بمزيد الشكر والإعجاب كلمتك التى دبجتها عنى يراعتك الرشيقة فطرحت عن كاهلى عبأ من الهم ما كان لشيء خلافها أن يريحنى من فادحه، وأطفأت عن كبدى شواظا من الكمد ما كان لغيرها أن يجيرنى من قادحه ، ولا عجب يا سيدى فكثيرا ما كنت أشعر أثناء قراءتى بدائع ملحك ونفائسك بائتلاف بين طبعك وطبعى ، وامتزاج بين روحى وروحك ، ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحادثنا وتسامرنا ، ولكن قضى الله ألا يحصل التعارف بيننا إلا ونحن على طرفى الكرة الأرضية وبيننا المهامه البيد والآكام، والتنائف الفيح والآجام وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وألا يصلك صوتى أو يصلنى صوتك إلا بعد أن يجوب شطرى قارتين ، ويقطع دفتى عالمين ، ويمر بالجم العديد من أجناس الناس وصنوف البشر وشتى المدنيات واللغات والثقافات ، فحيا الله رسالتك تلك الزكية المباركة التي:

تخطت إليَّ الهول مشيا على النوى

وأخطاره لا يبعد الله ممشاها

سيدى ! لقد مضى عليَّ شهور وأيام ، بل دهور وأعوام وأنا أبكى مصاب الإنسانية فى مصابى ، وأندب ما بها من كوارث المحن وما بى ، وأضج لوعة وأنينا وأنتحب حرقة وحنينا ، وتارة أرغي وأزبد ، وأبرق وأرعد ، حتى يخيل إليّ أن أعين النجوم ترنو إليّ شفقة وعطفا ، وتدمع عليّ بقطرات النور أسفا ولهفا ، وأن الريح تعول معى أسى ووجدانا ، والموج يصطفق حسرة لى وتحنانا ، كل ذلك ولا أسمع من بنى آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتا يلبى الدعاء، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافة مواس ، كلا ، ولا متعجب لى ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنكر ، لا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا «قبض» كأنى أهتف بكلماتى بين رسوم بالية وأطلال ، أو أعكف على أصنام وأوثان ، وكأنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد، وأنفخ فى رماد ، وكأنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان كما قال القائل :

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للذم
كأنا إذ سألناه وقفنا سائلى رسم

وكذلك تعودت فى هذا الشعب الحى «الحساس» أن أتقرب وأقابل بالصد والإعراض ، وأتزلف وألقى بالجفوة والانقباض،

وأستدنى وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ، وأسهر فى صناعة القلم وأسهد وأكافأ ممن أسهر على مصلحتهم بالوسن والرقاد ، وأزلف للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد وأجازى بالكفر والإلحاد ، حتى ألفت من القوم هذه المخزيات المخجلات ، ووطنت نفسى على اليأس من كل خير ، وتوقع كل شر .

تعودت مس الضر حتى ألفته

وأسلمنى طول البلاء إلى الصبر

وأصبحت حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن من السرور واللذة كاسفة حزينة ، جافة جدبة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة . وأصبح القلم فى يدى أشد بؤسا ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمة أقرب إلى أنه الثكلى منه إلى رنة المسرور، وأشبه بصوت النعى منه بصوت البشير ، وكذلك صرير القلم فى يدى أشبه شىء بصرير أعواد النعش ، ولا عجب فإنما قلمى نعش لنفائسه يحملها من المهد إلى اللحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وعلى هذه الحال من اليأس والقنوط ومن الجمود والركود كنت يا سيدى حين هبطت علىَّ كلمتك من أفق

المدنية وسماء النور - نور العلم والعرفان، والأمل والأماني - فاطفأت لوعتي، وشفت غلتي، وحركت همتي ، وأنهضت عزمتي .

لقد جلى كتابك كل هم
جو وأصاب شاكلة الرمي
وكان ألذ في قلبي وأندى
على كبدي من الزهر الجني
وضمن صدره ما لم تضمن
صدور الغانيات من الحلي

ولقد كنت قبل ورود رسالتك تائها حيران في بحار الأدب والأمواج من حولي جامدة ، والأمواج آسنة راكدة ، وسفينة الأدب واقفة معطلة ناشبة بين صخور الفقر والإفلاس ، والنحس واليأس ، فلم يك صوتك إلا نفحة من نفحات الإيمان، وروحا من الله وريحان ، فأبدلتنا من الموت حياة ومن القنوط رجاء ، وأعلمتنا أن لله معشرا أصفياء ، وقوما أتقياء . ولو لم يكن غيرك يقرأ كلماتي لكان حسبي بك مشجعا ومقدرا ، ومؤيدا وناصرا .

لقد داعبتنا طويلا في كلمتك يا سيدي ، وتالله ما رأيت أرق منك مداعبا ، ولا ألطف مفاكها ومطايبا .

ولقد فتحت علينا باب موضوع الغانيات وهذا باب لا يسد، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، وماذا أقول فى الغانيات إلا قول بعضهم :

فإن تسألانى بالغوانى فإننى
أرى فى الغوانى غير ما تريان

إنى يا سيدى لا أعرف سحرة ولا مشعوذين أشد مهارة وحذقا باختتالنا واحتبالنا واختبالنا لدى كل فرصة سانحة ، وبسبب وبدون سبب ، ولمجرد اللهو بنا والعبث بعواطفنا - بأقدس عواطفنا وأسماها - ولمجرد الضحك علينا من النساء، وتراهن يلعبن بنا ألاعيبهن بمنتهى البساطة ، وبمنتهى الجرأة والوقاحة ، وبمنتهى الحذق والبراعة ، وهذا يا سيدى طبعهن ودأبهن يأتينه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ومن غروبها إلى مطلعها . وأعجب العجب أنهن فى ذلك جميعه سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفاسدات ، والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفرات ، والرقيقات والقاسيات .

هذه نفثة من يراعتى المحطمة ، متاع إلى حين ، وأرجو أن أوفق إلى أمثالها ، ولا تحرمنا تحفك وملحك ، أبقاك الله للأدب ذخرا ، والسلام .

الأدباء وأساتذة الآداب

وصلتني دعوة لحضور أربعاوات الأليانس فرانسيز. وهذه الأربعاوات لها برنامج خاص. فالأربعاء الذى يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب، ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب فى المعاهد والكليات، فإن كلمة : Homme de lettres غير كلمة Professeur de litterature .

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية. أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التى تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق فى العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة.

وكذلك يفرق الجمهور الفرنسى بين رجال الأدب وأساتذة الآداب، وهو فرق رسمى، ولكن له دلالته وله معناه: فإن رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات.

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم فى وزارة

المعـارف وفى المعــاهد والكليــات. ومن الصــعب أن تحكم بأفــضليـــة أولئك أو هـؤلاء، فــإن من الحق أن الدراســات الجامعية. مثقلة بأعباء الجهود والمشاق، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء معجز وشقاء موصول. ومن الحق كذلك أن الأديب الذى حرمته الظروف من الدرجات والألقاب لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لايصبر عليها إلا الأقلون.

وهناك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الانتاج: فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التى تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم، بنوع خاص، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات. وما إلى ذلك مما يستطيب الجمهور الإقبال عليه فى أوقات الفراغ. أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف فى الموضوعات الصعبة المعقدة التى لا تجد من يقبل عليها غير الطلبة والمدرسين، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق .

ولهاتين الوجهتين مزايا وعيوب. فرجال الأدب يؤثرون فى الجماهير تأثيرا بليغا، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التى

يفـهمـون ويسـايرونـهم فى درس مشـاكلهم الروحيـة والعقليـة بطريقة خلابة قد تصل بهم إلى الاسفاف وإلى ضيا ع الكرامة فى بعض الأحـيـان. وأسـاتذة الآداب يؤثرون فى جـمـاهيـر الطلاب. ولكنهم يبـالغـون فـى التـحـفظ والتـصـوف إلى درجـة مملة. ومنهـم من يصـل به الأمــر إلى أن يصــاب فى عــقلـه بالزمـانة والضيق. ومن هنا صح مـا نجده فى بعض الأوسـاط الفرنسـيـة من التـحـامل على رجال الجامـعة ورميـهم بالحمق وضيق العقل: والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله جامعى، ويسمون رجال الجامعة «فيران المكاتب»!

ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير المباشر فى الجماهير، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة الأدب في عصره، ثم تقدم للإنتـخابات فلم يكن له من عواطف الناخـبين نصـيب: ذلك بأن الرجل تعـود مـخـاطبـة الجمـاهيـر المثقفة، وتعـود الاعتمـاد على ذكاء من يستمعـون اليه، فلما واجه سواد الشعب إلتبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب.

أمـا رجـال الأدب فـهم أقـدر النـاس على كـسب المعـارك الشـعبـية: لأن لديهم من الكيـاسـة ومرومـة الذهن والخلق مـا يقربهم من أنفس الجمـاهيـر، وحـسب القـارئ أن يعـرف أن

الذين يخوضون معارك الانتخاب فى فرنسا يجب على الأقل أن يكونوا ألفوا إدمان الشراب، ولم ذلك ؟ لأنهم لا يلتقون بناخبيهم الا فى القهوات، وهى ملتقى الأهالى فى الأقاليم. فمن واجب المرشح أن يذهب إلى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه: ماذا تطلب وإذ ذاك يشربان معا. وهذه هى الوسيلة لكسب الأصوات!

ولا يليق بالمرشح أن يكتفي بقهوة أبى الفضل لأن الذى لا يشرب قهوة أبى نواس يبخل عليه الفرنسيون بلقب «مسيو»!

فماذا يصنع أساتذة الأدب في هذه الحال وهم قوم تلفت أمعاؤهم من كثرة الجلوس، ولم تبق فيهم مراجعة المعاجم، ونقد النصوص الأدبية والفنية والعلمية، بقية من نضارة الجسم، وصفاء الذهن، ورقة الحس، يستطيعون بها فهم ما اختلف وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة؟!

وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدبين فروق قلما يتنبه إليها الجمهور الذى ينتظر كل شئ، ولا يطالب نفسه بشئ.

فأساتذة الآداب قد يحسدون على ما يظفرون به من مناصب الدولة؛ فهذا موظف فني فى وزارة المعارف العمومية وذاك مدرس في مدرسة من كبريات المدارس الثانوية. وذلك استاذ فى كلية الآداب. وهى مناصب قد تحمى أصحابها من التفكير فى هموم المعاش. ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة البلاء الذى يعانيه أساتذة الآداب؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب التى يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا كارها فى مكتبه لا يفارقه فى صباح أو فى مساء؟ من الذى يفهم الآن كيف كان يقول الفراء: «أموت وفى نفسى شئ من حتى؟» من الذى يعرف أن الباحث قد يقضى أعواما طويلة فى تحقيق كلمة أو تصحيح غلطة، وهو يرى ذلك كل شئ فى حين أن الجمهور قد يراه نوعا من الوسواس؟ أين النافذون إلى بواطن الأمور الذين يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون إلى لحظة من لحظات المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب والجدران، ثم لا يستطيعون: لأن الرأى العام قد يرميهم بالتبذل والإسفاف؟

وكم من مرة يقول الناس: ماذا يصنع الأستاذ فلان ؟ لقد سكت منذ زمان!

وذلك الاستاذ لا يستطيع الجواب لأنه لا يضمن الاحترام إن أجاب: لقد شغلتني «حتى» في هذه السنوات!

ماذا يصنع أساتذة الآداب في عصر الأحجام والمكاييل والأوزان! إن القارئ لا يشترى الكتاب في هذه الأيام قبل أن يعد الصفحات وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون الإسهاب: لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد، ومهنتهم تقضى عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل فياويح رجال المعاني في دولة الألفاظ!

إنها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة الآداب في هذا الجيل، تضحية تصغر بجانبها عظائم التضحيات لأن الأستاذية مهنة قلما تجازى بحفظ الجميل، ولا يخفف من همومها في أنفس أصحابها إلا فكرة واحدة: هي أن الأستاذ يقف حيث يقفه الواجب: فهو جندي في الجيش لا يليق به غير الامتثال، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد الصيت، لأن الأستاذية الحقة لا تكتمل قوتها إلا في ظلال الخمول.

إن الأستاذ المخلص لواجبه قد ينسى كل النسيان، وقد تجرح نفسه جرحا بليغا حين يجد من يسأله: من أنت؟ فإن

المسكين لا يستطيع أن يجيب : (أنا الذى شرحت الرسالة العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فان هذه فى نظر السواد توافه لا يحسب لها حساب!

وبعد هذا كله يبقى الله عز شأنه الذى لا يضيع أجر المحسنين فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل!

***

ورجال الأدب ، أو الأدباء ، كيف حالهم؟

لقد أشرت إلى أنهم أبعد أثرا فى الجمهور من أساتذة الآداب ولكن تعال ننظر ما حظ هؤلاء المحسودين.

إن كثيرا منهم يعملون في الصحافة، وبيد كثير منهم إسقاط وزارات وإقامة وزارات، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات جذابة تنفذ إلى أعماق النفوس، فهل نستطيع مع هذا أن نعدهم سعداء؟

إن الأديب لا ينبغ إلا إذا ارتطم فى الغواية والبؤس، وتلك سنة الطبيعة منذ خلق الأدب إلى اليوم، ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صهرتهم الهموم والأحزان.

أضف إلى ذلك إنهم لا يؤثرون فى قرائهم إلا إن تأثروا

هم بما فى الحياة من لين وبأساء. ولا يقع شئ من هذا الا إن عاشروا الناس وشاركوهم فى جدهم وهزلهم، وحلمهم وجهلهم، وعقلهم وجنونهم، وعرفوا ما الهدى وما الضلال، وما الشك وما اليقين. وهذا كله: أتحسبه بلا ثمن؟ هيهات! فمن ثمنه العرض والعافية والمال!

إن الكاتب الذى تقرأ له فيشعرك الحكمة وفصل الخطاب ليس فى حقيقة الأمر الا رجلا بائسا ضل طريق الرشاد، وهو فى أكثر الأحوال موزع القلب بين الحب والكأس، فإن سمعت عن ضلالات الكتاب والشعراء، أو حدثك النقاد عن بؤس ميسيه أو بيرون أو بودلير فاعلم انك أيها القارئ كنت بعض السبب فى شقاء هؤلاء، فقد ارتبطت حياتهم بحياتك، وكتب عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا باعجابك بهم، أو انصرافك عنهم، وأنك أيها القارئ قد لا تعرف نفسك: فان لك شهوات ونزعات خفية يغيب أكثرها عنك، ويفهم أولئك البؤساء حاجتك إلى من يطلعك عليها فى حديث شائق خلاب. والأدب فى صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن الأهواء والشهوات والنوازع والميول: من حب وبغض وبسط وقبض وأثرة وإيثار وحقد وصفاء وإقبال وإعراض.

والكاتب لايصل إلى مرضاتك حتى يضيع نفسه، لأنه لايمد يده إلى مكتبه فيخرج الرسائل محبرة موشاة بلا تعبٍ ولا عناء، وإنما يتنقل من حى إلى حى، ومن ملعب إلى ملعب، ومن ناد إلى ناد ويرى الحلو والمر، والطيب والخبيث، وما يزال كذلك حتى تتفتح أسرار قلبه، وسرائر نفسه، ثم يعود فينقل روحه، ويسكبها على بياض القرطاس.

أتفهم ذلك؟

نعم؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك! وأنت نفسك مطمئن إلى أن رجال الأدب لا خلق لهم ولا دين. ومن أجل هذا تتحدث عنهم بما تعرف وما لا تعرف، وتضيف إليهم كل ما يمر ببالك من المنكرات!

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشئون النسبية: فقد يكون لهؤلاء الذين تجرحهم ضمائر أطهر من الماء، وأصفى من سماء مصر، وقد يكونون فى عربدتهم أقرب إلى الله من بعض المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم بيض الوجوه سود القلوب!

إن الفريد دى ميسيه الذى بكى لبؤسه وشقائه ألوف

الألوف من القراء، هذا الرجل كان يتشهى البؤس، وكان يحسد رفاقه على ما (ينعمون) به من الضجر والاكتئاب، ومازال يتباكى حتى بكى وأبكى. أفتدرى لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم؟ لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمت قلوبهم الأشجان وأصمتهم الخطوب.

فماذا أعددت أيها القارئ لرحمة أولئك المساكين؟ لا شئ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد، كأنهم لم يشقوا فى سبيلك ولم يفتحوا لك ميادين العواطف والاحاسيس، وكأنك لم تتخذ شعرهم ونثرهم ذخيرة للحظات اللذة وأيام الشقاء: فقد كانوا ولا يزالون أوتارا لوثبات الفرح ونبرات الأنين.

فأى الصنفين أشقى : رجال الآدب أم أساتذة الآداب.

لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين فى نزاهة وإخلاص، فاحكم بما تشاء.

***

أما بعد فهذه خواطر مرت بالنفس حين تقدم المسيو هوج لابير ليلقى محاضرته عن ذكريات الحى اللاتينى، وهو من رجال الأدب الذين سمحت لهم الشهرة بأن يدعوا لإلقاء محاضرات بأجر معلوم، مائتى فرنك أو تزيد، وقد لمحت هيئته

لأول وهلة فأدركت أنه حريص على تملق أهواء الجمهور، وفى الرجل ذلاقة وطلاقة تليقان بخشبة المسرح لا كرسى المنبر. وفي وجـهه وقـوامه وشـمـائله بقـايا من الشـباب تدل على أنه خليق بأن تكون لـه ذكريات عـن الحـى اللاتينى: فإنـه حـى لا يفهمه الا من رزق نصيبا من نضارة الصبا، وصفاء الروح. ومع هذا لم يتـحـدث عن الحى اللاتينى بما كنت أنتظر من رجل قضى شبابه فى حى السوربون وإن كان هذا لا يمنع أن الجمـهور صـفق له أكثـر من عشـرين مرة فمـاذا قـال ذلك المحـاضـر ومـا هو إحسـاس من يعيـشـون بذلك الحى الذى يسمى حى الشباب؟ وكيف يفـهمه الغريب حين يفاجأ بما فيه من غرائب وأعاجيب؟

أول فبراير سنة ١٩٣١

ذكريات حى الشباب

حى الشـــبـــاب فى باريس هـو الحى الـلاتيـنـى، وهـو حـى الشباب بأجمل وأشرف وأبلغ ما تنطلق به هذه الكلمة، وليس فى الدنيا التى رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها بأذاننا أو قرأنا أخبارها فى أساطير الأولين، ليس فى الدنيا كلها بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب وتندى أوراقه، وتتمايل أغصانه، ويتأرج عبيره، كما يرى رواد الحى اللاتينى فى باريس.

ولا يعرف المرء صنعة الله، جلت قدرته، إلا فى ذلك الوادى من أودية الوجود، وإن لحظة واحدة فى بول ميش (تصغير بولفار سان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجل وأعلى من أن تتطاول إلى نقد صنعته أوهام المكابرين، تعالى الله عما يصفون.!

وما ظنك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجرى عليها من أسراب الملاح؟ ما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما يملك العالم من نضارة الشباب وروعة الجمال؟

الحى اللاتينى هو حى الشباب، وليس فى قدرة أفصح الكتاب وأبلغ الشعراء أن يثنى على ذلك الحى، بما هو أهله، وقصارى المفتون به أن يقول : حى الشباب، حى الشباب!

لقد ذكرت للقارئ في كلمة سالفة أن المسيو هوج لابير ألقى محاضرة عن ذكريات ذلك الحى، والآن أفصل الكلام بعض التفصيل: لقد وقف المسيو هوج وابتدأ محاضرته بصراخ عنيف:

الشباب ! الشباب ! الشباب!

ثم أخذ يهذى بكلمات شجية كادت تجرى لها دموع السامعين، وقد تأملت المسيو هوج لابير فإذا هو رجل قد امتد به الزمان، ولكن فيه بقايا من رشاقة وصباحة تدل على أنه قضى فى الحى اللاتينى ليالى قصيرة من ليالى الشباب المطلول .

لقد ذكرتنى لوعة المسيو هوج على شبابه بلوعة منصور النميرى إذ قال:

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع

إذا ذكرت شباب ليس يرتجع

بان الشباب ونابتنى بفرقته

خطوب دهر وأيام لها خدع

ما كنت أو فى شبابى كنه غرته

حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

وقول الآخر:

أتأمل رجعة الدنيا سفاها

وقد صار الشباب إلى ذهاب

فليت الباكيات بكل أرض

جمعن لنا فنحن على الشباب!

تكلم المحاضر عن الحى اللاتينى فى أدواره التاريخية وذكر عدة نوادر وقعت من طلبة الطب وطلبة الحقوق، وأظرف ما جاء على لسانه حوادث الطلبة الذين كانوا «يأكلون» إيجار المساكن، فقد وقع غير مرة أن امتنع بعض الطلبة عنادا ومكابرة عن دفع أجرة المسكن، وكان ذلك يجرى بين دعابة المالكين وابتسامهم: «لأن المفلس يغلب الحاكم» كما يقول المصريون!

ومن نوادر ذلك الحى أن أحد الطلبة دخل دكان بعض الحلاقين ومعه عشرة من الرفاق، وكان الجو مطيرا وبيد كل منهم مطرية مثقلة بالماء، فما كادوا يستقرون بمطرياتهم حتى تحول الدكان إلى بحيرة، أو كاد! وهنا قال الحلاق: من الأول؟

فأجابه ذلك الطالب فى هدوء: أنا الذى جئت لأصلح من شعرى، وهؤلاء جميعا فى معيتى!

وهذه نكتة لا يدرك قيمتها إلا من عرف جو باريس، وأهل باريس، فهم قوم لا يحتملون مطلقا أن يروا إنسانا لا يغمرهم بالمال، فكيف إذا رأوه لا يغمرهم بغير الماء!

وقد وقع لبعض الأساتذة فى كلية الطب أن أولع الطلبة بمهاجمته وهو يلقى محاضراته، ولكن كيف؟ كانوا يرمونه بقطع من النقود تساوى فى قيمتها أرباع الملاليم، وكان الفريق الراضى عن ذلك الأستاذ يرميه بباقات الأزهار: فكانت تتجمع أمام الأستاذ وعن يمينه وعن شماله عشرات الباقات ومئات الملاليم، وهو يتلقى ذلك كله بين الحوقلة والاسترجاع، فاذا انتهى من محاضرته جمع الأزهار والنقود ووضعها جميعا فى محفظته، ثم خرج يتوسم الوجوه ليوزع النقود على الفقراء، وليهب الأزهار للغيد الحسان!

ومما يؤثر عن شجاعة الطلبة ونبلهم فى ذلك الحى أن إدارة الجامعة غضبت مرة على بعض الأساتذة وقررت فصله، وكان الطلبة معجبين بمواهبه، فكانوا يذهبون فى صبيحة كل يوم إلى منزله، ويكرهونه على الذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضرته، وكان ذلك يقع بدون أن تجرؤ إدارة الجامعة على التدخل خوفا من ثورة الطلاب، وفى نهاية العام ذهب الطلبة

متجمهرين إلى مجلس النواب فحملوه على أن يقرر إعادة الأستاذ إلى منصبه، ورد ما ضاع من مرتبه فى العام الذى فصل فيه: وكانت هزيمة منكرة لمدير الجامعة عرف فيها كيف ينتصر الشباب الحى على الكهولة الباغية التى تمشى إلى الفناء!

وقد استطرد المسيو لابير فذكر الشعراء والكتاب الذين كانوا يستمدون وحيهم من الحى اللاتينى، وأنشد الجمهور قطعا من شعر ميسيه وفرلين وبودلير، وقد صفق الحاضرون أكثر من عشرين مرة للذكريات الطريفة التى رواها لهم خطيب حى الشباب.

***

وأريد الآن أن أذكر بعض مشاهدته بنفسى فى الحى اللاتينى ، وأذكر أولا أننى كنت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ مقالات فى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية بإمضاء «الفتى الأزهرى» وكان مما اقترحته حينذاك أن تنشأ حديقة أمام الأزهر، وحديقة فى فنائه، ليكون شبيها بالسوربون محفوفا بالحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء، فلما جئت إلى باريس سنة ١٩٢٧ كان أول ما فكرت فيه الذهاب لاستنشاق

الهواء فى بساتين السوربون ، فماذا وجدت ؟ لم أجد فى فناء السوربون ولا حولها شجرة واحدة ، ودهشت إذ رأيت فناء السوربون يشبه الأزهر تماما : فلا نجم ولا شجر ولا نبات ولا ماء !!

يا عجبا ! ما الفرق إذن بين جامعة الأزهر وجامعة باريس؟ أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يغرسوا فى فناء السوربون شجرة أو شجرتين ليصح ظنى فيهم ، ولتصدق المقالات التى كتبتها فى جريدة الأفكار وأثبتها فى كتاب البدائع ؟!

ولكن مهلا ! فهناك على مقربة من السوربون وعلى بعد دقيقتين اثنتين حديقة لكسمبور : وهى حديقة أولى بها أن تسمى (جنة الحى اللاتينى) لأنها تشبه من بعض الوجوه الجنة التى وعد بها المتقون ، ففيها السدر المخضود ، والطلح المنضود ، والظل الممدود ، والماء المسكوب ، وفيها الحور العين ، والولدان المخلدون ، وإن كانوا لا يطوفون بأكواب وأباريق وكأس من معين .

هى تشبه بعض الشبه الجنة التى وصفت فى القرآن ، والفرق بين الجنتين أن الجنة القرآنية لا يسمع فيها المؤمنون

لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلاً سلاما سلاما . أما الجنة اللاتينية فبستان أنيق طالما رنت فيه القبل الأثيمة ، وتمت فيه مواعيد اللهو والمجون . وقد تكون تلك الجنة اللاتينية أشهر مهد من مهود الغواية الفطرية التى يقع فيها الشباب بوحى الطبيعة ، قبل أن تصطبغ نفوسهم بلؤم الفجار وخبث الماجنين .

***

وحديقة لكسمبور لها عهدان متمايزان : عهد الربيع والصيف ، وعهد الخريف والشتاء ، وأقسى أيامها هو العهد الأخير ، ففى الخريف تتساقط أوراق الأشجار رويدا رويدا فى حالة تثير الأسى والشجن . فإذا جاء الشتاء عادت الأشجار مجللة بالسواد كأنها فى حداد . وفى هذا العهد لا تزار لكسمبور إلا لماما . وقد تطيب زيارتها فى أيام الجليد حيث تبدو أرضها ناصعة بيضاء كثنايا العروس .

أما عهد الربيع والصيف فهو عهد الحب والشباب فى لكسمبور ، فما شئت من حسن منثور ، وغزل رقيق ، ودعابة يتبادلها المتحابون المتعاشقون ، وعطف تتجاذبه القلوب التى هيأتها الطبيعة لكسر أغلال الوجد المكبوت .

وأغرب ما فى الأمر أن حديقة لكسمبور ليست للشباب

وحدهم : فهناك كهول يتخذونها مواعيد للغرام . وقد حدث مرة أن شهدت فيها مدرسا مصريا ما كنت أحسب أن الله خلقه لوجد أو صبابة أو تشبيب : حيث لا يفتح الله عليه بكلمة لا فى لوم العشاق والغزلين . رأيته وإلى جانبه عجوز فانية شمطاء يئس من خداعها الشيطان ، وهما يتناجيان بأرق من نجوى الطير ، فتذكرت قول الشاعر .

كل ساقطة فى الحى لاقطة

وكل بائرة يوماً لها سوق

ولا تحسب أن هذه الحديقة خلقت للحب وحده ! كلا فهى أيضا أطيب مكان لمذاكرة الدروس ، وهى تذكر من هذه الناحية بحدائق قصر النيل ، ولكن هل يراجع الطلبة فيها دروسهم ؟ قد يكون ذلك ! ولكنى أذكر أننى ما شاهدت فيها الطلبة إلا متجمعين أسرابا أسرابا يتبادلون شهى الحديث ، وفى ظنى أن كلا منهم كان يقول : بقى على الامتحان سبعة أيام . خير ! لا يزال أمامنا وقت ! وغداً سنأخذ فى المذاكرة بجد لا هزل معه ! فإذا جاء الغد تجمعوا من جديد ، وأخذ كل منهم مقعدا بمليمين وعادوا يتنادرون بفاتنات الأحاديث وشائقات الأقاصيص .

وأعجب ما يلفت النظر في شباب الحي اللاتيني أنهم لا يلتفون بعضهم حول بعض إلا قبيل الامتحان . وهم بذلك يتعاونون على قتل الوقت ، وتزجية أيام الانتظار ، فإذا جاء الامتحان ذهبوا بقلوب من حديد ، وألقوا على القراطيس ما يحسنون وما لا يحسنون ، وتركوا وزارة المعارف تفعل ما تشاء ! فمن نجح منهم ذهب فباع كتبه كلها بالثمن الذى يعرض عليه ، ثم مضى يبعثر ما اقتضاه منها في مراقص مونبارناس . ومن كتب عليه الخذلان انطلق إلى أهله يصف الممتحنين بالعنف والجبروت والرغبة في التعجيز : وهي وسيلة لا بأس بها لستر الكسوف ! أشرت إلى أن حديقة لكسمبور معهد من معاهد الحب ، ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائما عند الغروب ، حتى لا يتمتع أحد بخلواتها في أمسية الصيف والربيع . ولكن هل معنى هذا أنها تحمل شارة الرفث والفسوق ؟ لا ، فكل ما يجري فيها يتقبله الناس على العين والرأس ، وأستطيع أن أؤكد أن أعف المتحرجين يشهد ما يقع فيها بنفس مغمورة بالجاذبية والعطف والحنان ولست أعرف لهذا تفسيرا ولا تعليلا ، وأكبر الظن أن إشراق الأزهار في الحياض ، وإشراق العقود في الأجياد ، وعبير الشباب الذى

يتأرج بين الأشجار والتماثيل ، كل أولئك يلقى على الروح شعاعا من الرفق بما يشرد فيها من جوامح العيون ، وخوافق القلوب .

وما يدرينا ؟ لعلنا نحن الشرقيين الذين نقيد ذلك ونلتمس له التأويل ، أما الفرنسيون فلا يرون فى حديقة لكسمبور شيئا مما نراه ، فهم يرسلون إليها أطفالهم فى طمأنينة تامة ، بحيث يشهد المتفرج حول الفسقية عشرات الأطفال من ذكور وإناث . وبيد كل طفل سفينته المحبوبة يلقى بها فى الماء وينظر عبورها فى فرح وشوق لا يفهمها غير الصبية الناشئين .

وفوق ذلك هناك ملاعب التنس ، وهى ملاعب يسعى إليها البنون والبنات فى أيام العطلة وساعات الفراغ . فهل تظن أن أحدا يتحرج من إرسال بنيه وبناته إلى ذلك الوادى الجميل ؟

أتريد الحق ؟ إن أهل باريس لا يرون فى الحب ما نراه : هو عندهم شريعة من شرائع الحياة . وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق أحد المقاعد ، وبجانبهما صبية مشغولة بكتاب تقرأه أو شعار تحركه ، أو أمل مرموق تقلبه فى صدرها

المفتون ، ثم تظل فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القبل وهدير العناق !

إن أهل باريس لا يعرفون الفضول . ولهذا كانت تلك المدينة ولا تزال أحفل معالم الصبابة بأسباب الأمان .

هذه السطور تعطى صورة مبهمة جدا عن جنة الحى اللاتينى وعذرى فى ذلك مقبول : فتلك بقعة لا تسمو إلى تحديدها الأقلام . والكاتب يخدع نفسه حين يتوهم أنه قادر على وصف ما تشهد عينه ، ويجن صدره من ألوان المحسوسات والمعقولات . وحسب القارئ أن يدرك أن تلك الحديقة هى ملعب الشباب فى الحى اللاتينى . وفى سحرها وجمالها تعليل بسيط لما سنعود إلى سرده من ذكريات ذلك الحى الجذاب،

باريس فى ١٥ فبراير ١٩٣١

ملاهي طلبة الطب

يمتاز الحى اللاتينى من بين أحياء باريس بتلك الحيوية الجذابة التى تنبعث من ساكنيه وأكثرهم شبابا ، ولكن سكان ذلك الحى الذين يبثون فيه من روح الابتهاج والانشراح ينقسمون الى طبقات، ولكل طبقة خصائص ومميزات، فهناك طلبة الآداب، وطلبة العلوم، وطلبة الطب، وطلبة الحقوق.

ونستطيع أن نحكم بأن الفريق السعيد من بين هؤلاء جميعا هم طلبة الطب، لأن طلبة العلوم والآداب والحقوق يعرفون ماينتظرهم فى دنياهم من الجهد والعناء، أليس مصير طلبة الآداب والعلوم إلى التدريس فى المدارس الثانوية؟ ويكفى أن تقدر أن هذا مصير الطالب لتعرف أنه خلق للتضحية فإن التدريس محنة من محن الحياة لايصبر على لأوائها غير المحتسبين الذين وطنوا أنفسهم على المجاهدة والمجالدة فى سبيل أممهم، وأصحاب هذه المهنة جديرون بأن يكتهلوا قبل الأوان، لأن إحراق الدم والأعصاب فى سبيل التعليم بلية لايتحملها غير من اطمأن إلى حمل راية الجهاد، وليس فى مقدور واحد من طلبة العلوم والآداب أن يطمع فى غير المدارس الثانوية، لأن المدارس العالية تتطلب

من المدرسين مؤهلات أهمها إجازة الدكتوراه، والدكتوراه لايظفر بها طالب فى فرنسا إلا إذا وصل به علمه وعقله إلى أن يضع قدمه بين صفوف الباحثين. وللقارىء أن يتأمل كيف يتأتى لطالب أن يعد رسالة للدكتوراه وهو قد يتعثر فى موضوع إنشاء !!

وهذا المستقبل المظلم الذى يتطلب مايتطلب من المشاق خليق بأن يحبس طلبة العلوم والآداب فى أقفاص من التوقر والاحتشام، من أجل هذا تنحصر ملاهى هؤلاء الطلبة فى لعب الشطرنج والبليارد ومعاكسة البنات فى مدرجات السوربون، ومناوشة الأساتذة إذا اقتضى الحال!

وقد يتفضل مدير الجامعة، رفقا بطلبة العلوم والآداب، فيقيم حفلة راقصة أو حفلتين فى أبهاء السوربون، وهى حفلات طريفة يتراقص فيها الطالبات والطلاب، لولا أنها مصحوبة ببعض التكاليف، وبهذا يحرم منها كل طالب لايملك ثوب السهرة، أو لايجد ٢٥ فرنكا للاشتراك.

وهذه الحفلات تمر غالبا فى سلام، وإن كان الناس يتوقعون غالبا أن يطلق فيها الرصاص، بسبب العداوات الخطرة التى يحترق فيها الطلاب وهم يتسابقون فى كسب قلوب الطالبات فاللهم «فوت» حفلة هذا الشتاء بخير، لأنى

سأكون بين السامرين!

تلك لمحة عن المساكين طلبة الآداب والعلوم، أما طلبة الحقوق فلست من أمرهم على يقين، لأنى لم أدخل كلية الحقوق فى باريس إلا زائرا، ويظهر مما رأيت أن طلبة الحقوق أقرب الى الأندية والمراقص من طلبة العلوم والآداب، ولكنهم على كل حال يعدون أنفسهم لمهن المحاماة ومناصب القضاء، وتلك أودية من وجهات الرزق كثر فيها الزحام وقل فها الثراء، ولهذا يمشون متثقلين بما ينتظرون من مصاعب الحياة ..

كان الله لنا ولهم، إنه نعم المعين!

***

بقى طلبة الطب! أهلا وسهلا بأسعد الناس فى حى الشباب!

أنا لا أعرف أيضا طلبة الطب، ولكن حظهم من متع الحياة فى باريس وصل الى جميع الآذان، وشهدته أكثر العيون، وكلمة «طالب طب» تساوى فى باريس كلمة «خليع» فقد جرت التقاليد بأن يظفر طلبة الطب بنوع من الحرية، لانجد له شبيها إلا فى كتب الأساطير، ولعل السر فى ظفر طلبة الطب بتلك الحرية المرنة أنهم يصبغون ملاهيهم بالصبغة

العلمية وحظ أهل الطب قديم فى هذا الباب، فقد أباحت لهم الشرائع رؤية مالا تحل رؤيته من الحمى الممنوع، وسبحان مقسم الحظوظ!

ولكن ماهى تلك الصبغة العلمية.

هذا سؤال له جواب طريف، فليعلم القارىء إذن أن كلمة «علم» فى العصر الحاضر تقابل كلمة «دين» فى العصر القديم، فقد كان القدماء يقولون: « لا حياء فى الدين » إذا بدا لهم أن يخوضوا فى حديث يجرح الحياء، وكذلك يقول المحدثون: « لا حياء فى العلم » إذا بدا لهم أن يقوموا بتجربة فيها مايجرح الحياء.

وأظرف مافى تجارب كلية الطب فى باريس أنها تقع، كما يقتضى العلم ، بحضور الأساتذة والطلبة والطالبات، ولتلك التجارب معان خاصة يفهمها الألباء، ولا حرج على من يدرس العلم فى أصوله وتفاصيله على المنهج الحديث.

وفى هذه النقطة يختلف حظ رجال العلوم، ورجال الآداب فليس لأديب مهما جلَّ خطره، وسلمت نيته، أن يشرح على طريقته مايحب أن يشرح من المشاكل الجنسية، لأنه لو فعل لاتهمه الناس بالرغبة فى إذاعة أسباب الفسق والمجون، ولكن العالم يدخل تلك المضايق فى طمأنينة وأمان بلا رقيب ولا

حسيب، وهو فوق ذلك مشكور السعى، محفوظ المقام، فله أن يدرس ماشاء من المسائل الجنسية، وله أن يفسر دراساته بالرسوم والتصاوير، وليس لكائن من كان أن يتهمه بسوء النية: لأنه يتكلم باسم العلم، ولاحياء فى العلم كما لاحياء فى الدين.

وهذه الخطة قد عرفها الأدباء الأقدمون فقد بدا مرة لأبى العلاء المعرى أن يذيع بين معاصريه آراء الزنادقة والمرتابين، فعمد الى تلك الحيلة الملفوفة: وهى شرح آراء الزنادقة مصحوبة بلعنهم وتسفيههم، وبذلك تم له ما أراد من عرض آراء الملحدين فى رسالة الغفران.

ومن أدباء العصر الحاضر من يسلك هذه الطريقة فيقول مثلا: هذا كاتب يعجبنى أسلوبه، ولكنى أكره مذهبه، ثم يمضى فينقل إلى قارئه خلاصة آراء ذلك الكاتب الذى ذكر أن مذهبه بغيض ممقوت(١).

***

أترانا بذلك نحرم على أهل الطب أن يقوموا بما يوجبه الدرس من التجارب العلمية؟ هيهات أن يكون ذلك مانرمى

---

(١) إشارة إلى كلمة كتبها الأستاذ لطفى جمعة عن أندريه جيد.

إليـه، ولكنا ننقل فى تحـفظ مـاسـمـعنا من قـيـامـهم ببـعض التجارب الجنسية فى الحفلات الموسمية، وهذه مسألة: لانحب الإفاضة فيها، لأنها خطرة التفاصيل، ولأن علمنا بها لم يتعد السماع، وما أكثر مانسمع فى حى الشباب!

فلنكتف إذن بسرد ماشهدناه بأعيننا وشهده معنا ألوف الألوف:

فى نهاية العام الدراسى يقوم طلبة كلية الطب فى باريس بمهرجان مشهود، حيث يشترك الطلبة والطالبات فى مواكب سيارة تجوس شوارع المدينة، ويكفى فى خطر هذه المواكب أن تكون الطالبات عاريات الأجساد، اللهم إلا سترا رقيقا جدا يكف عادية المكان المرموق!

وقد رأيت فى أحد هذه المواكب فتى عريانا وهو يحمل لوحة كتب عليها «الباريسى الحقيقى يجب أن يأخذ السيلان ولو مرة، فمن الواجب أن يكون رئيس الجمهورية أخذه ألف مرة!!».

ورأيت فتاة عريانة فى أشنع حالة ومعها علم كتب عليه «جيش الخلاص» وجيش الخلاص هذا جمعية كبيرة تعمل لسلامة الأعراض، وطهارة الأخلاق!

وللقـاريء أن يتـصـور بقيـة التـفـاصـيل، فـهنا يـكون تداعى المعانى ، وتنادى أشتات الخيال، فإنى لا أريد باسم الأدب أن أنقل مـايقـع باسم العلم فـى باريس، فـإن العـالم يبـاح له مـالا يباح للأديب، وحرية التعبير من جملة الأرزاق!

وبعـد فـهل هذا شـر كله؟ أم خيـر كله؟ الجواب عند رجال الدين والأخـلاق. أمـا أنـا فـأسـجل فى تحـفظ بعض مـاتراه العيون.

باريس في ١٧ فبراير سنة ١٩٣١ .

وزير مراكش

فى باريس الآن وزير مراكش المقرىء وهو رجل كهل، تقول الجرائد الفرنسية: إنه يحب فرنسا حبا شديدا، وإنه مستعد لتقديم أولاده ضحية فى الدفا ع عن فرنسا إذا قتضى الحال، وقـد دعى بالأمس إلى زيارة السـوق الكبـيـر فـذهب اليـه فى السـاعة السـابعة صباحـا، والسوق قـائم على قدم وساق، وقد أطعموه هنيئا مريئا طعاما خاصا أعد لفطوره، فارتـاح إليه. وطلب الوصف ليعمل مثله فى المغرب إذا جاء العيد، وقد أبدى فـيمـا يقـال مـهارة عظيمـة فى تعـرف الأسـمـاك والنص على القديم منها والجديد.

ولنا أن نقول : إن الوزير الذى يقدم أولاده عن طيب خاطر للدفاع عن فرنسا لو قدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدى وأشرف، ولكن صدق شوقى حين يقول: «الذليل بغير قيد مقيد، كالكلب لو لم يسد لبحث عن سيد!».

٩ يوليو سنة ١٩٣٠

غانيات الحي اللاتيني
بعض الحقائق البشعة في مدينة النور

لقد قصرت أوقات فراغى فى الأسابيع الماضية على قراءة الكتب المؤلفة عن الحى اللاتينى، ولم يزدنى ذلك إلا كلفا بدراسة ذلك الحى فى حاضره وماضيه، وكان أجمل ماعرفته ماتلقيته شفاها عن الأدباء الذين شهدوا ذلك الحى منذ ثلاثين عاما، وقد اتفق جميع من حادثتهم على أن الحى اللاتينى فقد جماله منذ أزمان، فقد كان فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو المعهد الوحيد لمخاطر الحب والشباب، ثم أخذ يفقد سحره رويدا رويدا بسبب الأحياء الجديدة التى اجتذبت إليها أهواء الملاح، وكان حى مونمارتر أول طعنة وجهت إلى صدر الأنس فى حى الشباب، وانتهت المأساة بظهور حى مونبارناس، وبهذا أصبحت لاترى فى الحى اللاتينى وجها صبوحا ولا طلعة بهية، إلا فى ساعات خاصة من الصباح والمساء، فإذا انتهى وقت الدرس مضت أزهار الشباب الى ملاهى مونمارتر ومونبارناس، وبقى الحى اللاتينى هامدا لاروح به ولاحراك.

هذا حق! فلنا أن ننشد إذاً قول المتنبى:

أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم
ولكن هل فرغ الحى اللاتينى من جميع أسباب الحياة؟
لا قدر الله ولاسمح!

فلا تزال هناك عصابات من النساء، وأسراب من الفتيات، يغشين ذلك الحى، هناك النساء المترفات اللائى يبحثن عن معالم الشباب والجمال، ولهؤلاء النسوة نفوس من ظماء الى الحسن الغض الذى يتأرج عبيره فى كلية الطب وكلية الحقوق، وفى كلية الآداب بالسوربون دروس خاصة ليست فى نفوس بعض النساء إلا مواعد لقاء، وهناك كذلك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق، ولايجدن السبيل إليه إلا بالانتساب الى السوربون!

فإن مشيت فى بول ميش صباحا ورأيت الفتيات يتهادين وفى أيديهن الكتب والقراطيس فلا تحسب دائما أنهن يطلبن العلم مخلصات، ولكن تذكّر أن فيهن بنات شقيات قضت أزمات الحياة الأوروبية على مافيهن من كرامة وحصانة، فهن يسعين إلى الورد الممنوع بمشاركة الشبان فى تلقى الدروس!

والقارىء المصرى أو الشرقى لايكاد يدرك مغزى ذلك، لأن

الحياة فى الشرق لاتزال معقولة الأوضاع، وكذلك لاتزال المرأة فى الشرق «سيدة» وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص.

هى سيدة لأنها لاتزال تطلب وتعشق، ويقال فيها الشعر البليغ، أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولت أيامها، لأن الغرب رزى ببلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أن زهد الرجال فى النساء، وأصبح الجنس القوى والجنس اللطيف فى صراع، والصراع فى هذه المرة لايمثل رجلا يتوله وامرأة تتمنع، ولكنه يمثل رجلا وامرأة يقتتلان حول فضلات الأرزاق .

وقد يخطىء من يظن أن هذا التحول فى سير الحياة أخمد حرارة المرأة، فإن الطبيعة الإنسانية أعمق جذورا من ذلك، ولكنه بالفعل أخمد عواطف الرجل أو كاد: فقد أصبح الشبان ينظرون الى المرأة وكأنها فى أعينهم مخلوق سخيف، والفتاة صارت لاتحظى بمودة الفتى إلا أن شاركته فى ألعابه، ورافقته فى أسفاره، وأغنته عن ارتياد مواضع الإسفاف، ومهما يكن من شىء فإن أهل هذا الجيل عادوا أضن من أن يسفكوا قطرة من الدمع فى سبيل المرأة، ونظرة الى ثمار الأدب الحديث فى أوروبا تكفى للاقتناع بأن وظيفة

الحب فى القصص والروايات صارت وظيفة صناعية أو فنية، يوردها الكاتب مراعاة للقواعد والأصول، أو ما كان اصطلح عليه الأقدمون من قواعد وأصول .

وهناك دليل أوضح: وهو الشعر، فمن ذا الذى يزعم أن الشعر فى هذا العصر يقارب الشعر فى عصر ميسيه ولامرتين؟

لقد ضعف الشعر حتى لايرجى له نهوض، والسبب فى ضعفه هو انصراف العبقريين عن المرأة، وذلك أخطر مقتل فى أدب هذا الجيل.

هذه الحقائق تبين للقارىء السر فى خمود الحى اللاتينى، فقد كانت الفتيات من قبل زينة هذا الحى، يوم كان الشبان يتغنون بالحب العذرى، ويوم كانت الفتاة لاتسقط إلاّ أن ذهب الهوى بعقلها المكبول.

فماذا نرى اليوم؟ ماذا نرى بعد انقراض الحب النبيل؟

نرى عدة قهوات كأنها مواخير، فإن الشباب حيثما توجه فى ملاهى ذلك الحى كان جديرا باقتناص إنسانة تزيد فى دفء غرفته إن أعوزه الدفء فى ليالى الشتاء!

وقد يحدث أن تعرض الفتاة نفسها فى غير حياء، كما كان

الفتى يهاجمها قديما فى غير حياء.

ولكن أين من يقبل؟ فإن فتيات الحى اللاتينى طاغيات.

ولاتكاد الفتاة تحادث من يقبل عليها حتى تصارحه بأنها مدينة، وإنها لم تدفع نفقات غرفتها منذ شهور، وأنه ليس لديها إلا فستان واحد، وأنها لم تأكل منذ يومين!

والويل كل الويل لمن يسلس القياد لهؤلاء البائسات، فإنهن ألزم من الظل، وأثقل من تظرف الثقلاء!

وللقارىء أن يسأل " هل نساء الحى اللاتينى كلهن فرنسيات؟

ونجيب بأن الفرنسيات قلائل جدا فى ذلك الميدان، ولم تظلم أمة من الوجهة الأخلاقية كما ظلمت فرنسا بين الأمم الأوروبية، فالناس جميعا يكادون يتفقون على أن المرأة الفرنسية ماجنة خليعة، وذلك خطأ مبين،، والواقع أن الفتيات الأوروبيات يستفدن من الحرية الشخصية فى باريس، حيث لايتقدم أحد مطلقا لازعاج العشاق: ففى باريس ألوف مؤلفة من الرومانيات، والنمسويات، والألمانيات، والإيطاليات، والإسبانيات، إلى آخر ماتعرف من الشعوب الأوروبية والأمريكية، وكل تلك الروافد تنصب فى باريس: فهى ملتقى

طلاب الغواية من جميع الأجناس.

أتحسبني بذلك أعدو الحق؟ هيهات! فأنا رجل أعشق النبرات الفرنسية، واللغة الفرنسية الخالصة سحر قهار يفعل في نفسي مالا يفعل الشراب. وقد تمضي أسابيع ولاأسمع من فتاة واحدة نبرة تشعرني أنني أحادث فتاة فرنسية، وكذلك اقتنعت أو كدت أقتنع بأن الجمال الفرنسي أعز وأمنع من أن يبتذل في الحي اللاتيني : والمصادفات الطيبة التي ظفرت بها في باريس زادتني حزنا وخوفا على مصير المرأة الفرنسية، فإنه لاتزال فيها بقايا من الطهر والنبل، ولكن الجيل الحاضر يكاد يعصف بما كان لفرنسا من شرف التقاليد، وتكاد الأزمات الطارئة في عالم الاقتصاد والاجتماع تبدل الشمائل والنحائز والخلال.

فماذا بقي إذن من مواقع العيون والقلوب في باريس؟

لم تبق إلا الشهوات الحسية السافلة التي تقدم بلا حساب في الفنادق والحانات حيث يباع الهوى بلا ميزان- كما يقول صديقنا الأديب توفيق وهبة - ولكن كيف والعرض أيسر مايبذل في تلك البقاع؟

أليس في ذلك مايؤيد قرار لجنة البعثات في مصر بمنع

الطلبة من تزوج الأجنبيات؟

أليس فى ذلك مايؤيد خوف الآباء على أبنائهم من مفاسد باريس ومناكر باريس؟

لقد أصبحت أومن بأن الحرب من أشرف نزعات الإنسانية فهى التى تعلم الشعوب قيمة الواجب، وهى التى تغرس فى الشباب حب الرجولة، ولئن دام السلم نصف قرن ليصبحن الناس من جامح الحيوان.

وبعد فإن لم يرق للقارىء هذا الكلام فليعذر الكاتب:

فإنه رجل أمضته الخلائق فى باريس

باريس ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١

صلاة الجمعة في مسجد باريس

ماشهدت باريس إلا خطر بالبال مايجب على المؤمن من الرجوع الى ربه لحظة أو لحظتين فى هذه المدينة العجيبة التى طغت على كل ماتصوره الأقدمون من نعيم الجنان، وكان يرضينى فى تهدئة الروح الظامىء إلى سلسبيل السلام والسكون أن أذهب الى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التى تزدان بها الجدران والسقوف، وبين خرير المياه فى تلك الأحواض البديعة التى تذكر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام، ثم آوى الى قهوة الجامع فأتناول كأسا من الشاى محفوفا بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يسمعونك فى باريس بعض ماتسمع على ضفاف النيل.

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذى يعتادنى منذ ثلاثة أعوام: فقد فكرت غير مرة فى أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام فى نصح من يعيشون فى باريس، وماهى قائمة المنكرات التى يحاربها الخطيب فى مسجد باريس، وكنت أقدر أننى سأجد فرصة أفهم بها تأثير الزمان والمكان فى تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات

الواعظين.

وهنا لا أكتم القارىء أنى انصرفت عن صلاة الجمعة فى مساجد القاهرة منذ أعوام، ويرجع السبب فى ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتنى فى أصحاب الخطب المنبرية: ذلك أننى كنت أحرر جريدة الأفكار فى سنة ١٩٢١ فزارنى بعض خطباء المساجد وفى يده مقالة يلح فى نشرها ولكنى وجدتها مملوءة بالطعن فى الحكومة، لماذا؟ لأنها لاتمنح خطباء المساجد من المرتبات مايعينهم على المظهر اللائق بهم. وفى اليوم التالى ذهبت أصلى الجمعة فى أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب!

وليس من التحامل فى شىء أن أذكر أن جمهور المثقفين فى مصر لايجد مايشجعه على الحرص على فريضة الجمعة، وقد يكون فى هذه الإشارة مايحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية ويدخل فيها من الجدة والروح والحياة مايجعلها وردا سائغا تهرع إليه النفوس المتعطشة الى الحكمة والموعظة الحسنة، فقد دب الشباب فى كل شىء إلا خطباء المساجد عند المسلمين.

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفى نيتى أن أقف موقف المشاهد الذى يقيد مايرى من الظواهر والفروق، ولكنى لم أكد أتخطى عتبة المسجد حتي شعرت بأن «روح النقد» انصرفت عنى، وشعرت بأن «روح الإيمان» أخذ يحتل مشاعرى وحواسي، وابتدأت فصليت ركعتين لله، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان ثم جلست أتأمل فيما يحتوى المسجد فإذا المنبر مهدى من «فؤاد الأول ملك مصر» وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شغلت بالآداب والفنون، ونظرت إلى المصلين فإذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيما الخشوع، ومن ذا الذى يهرب من فتنة باريس، الى المسجد بدون أن يجد فى قلبه روح التقوى وحرارة اليقين؟ ولأمر ماعددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون، وانتظرت سورة الكهف، ولكنى وجدتها لاتقرأ قبل الصلاة، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو فى باريس، أم البدع والضلالات!

وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب، ثم صعد المنبر، وأضيئت جوانب المسجد، ثم كانت تقدمة صغيرة قام

بها أحد المؤذنين وافتتح الإمام فى أثرها الخطبة، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون ملزمة مفردة من كتاب . فتذكرت الخطب المنبرية التى تطبع فى مصر ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها فى كل عام على اختلاف الجمع والشهور، وتوقعت أن تكون هذه أيضا مقتطفة من بعض الدواوين المصرية . ولكن هذا الخطيب طالعنا بخطبة فصيحة، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد الببلاوى فى مسجد الحسين، لقد ترك هذا الخطيب كل شىء من حياة باريس، كأن النصح فيها لايغنى ولاينفع، وأخذ يحدثنا عن شهر ربيع الأول وماوقع فيه من الحوادث الجسام. فى عهد الرسول، فسألت نفسى: أتكون هذه المرة الأولى التى يتحدث فيها الخطيب عن ربيع الأول مع أننا فى الجمعة الأخيرة منه، أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون؟

ورأيت لأول مرة فى حياتى خطيبا ينشد الشعر فى خطبة الجمعة كلما بدت مناسبة، فقد أنشد هذا البيت:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخرا يكون لصالح الأعمال

وإذا صح أن هذا البيت من شعر الأخطل - وكان نصرانيا لايفارق الشراب - فإنه الدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفرق والملل وعلى اطراد الأجيال.

وأنشد فى مكان آخر الأبيات التى يقول فى بدايتها الحريرى:

ياخاطب الدنيا الدنية أنها
شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت فى يومها
أبكت غدا تبًا لها من دار

وفى مكان ثالث أنشد أبياتا فى مناقب أبى بكر رضى الله عنه غابت عن الذاكرة . وكنت لا أعرف لأى سبب يترك خطباء المساجد الاستشهاد بالشعر، ولكن بعض رجال الدين له رأى فى الشعر قد يكون السبب فى العدول عن الاستشهاد به إذ لايراه من الأمور ذوات البال!

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملأ خطبته بالنفحات الوجدانية، فهو يقول مثلا «وأين ربيع الروح من ربيع العين» هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع، وكنت أحب أن تكون

«وأين ربيع العين من ربيع الروح» على أن السجع يقع خفيفا جدا في خطبة ذلك الرجل، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من التكليف ومن اللبس، وكان له في تصوير الظروف التي اقتضت الهجرة ذوق جميل.

وبعد انتهاء الخطبة نزل الإمام فصلى بنا صلاة خفيفة جدا رجونا أن يكون في بساطتها مايؤكد لها القبول، فإن الرياء والتصنع لايغنيان فتيلا عن علام الغيوب، ثم قرأ المصلون جميعا دعاء شائقا لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولاأحفظ منه حرفا واحدا، وإن كنت هينمت منه بعض كلمات لأستر جهلي بفقراته الحسان، وأنا والله معذور فإني لم أسمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف «بونجور مدموازيل» و«بونسوار مدام» !

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت الى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب باخلاص.

- أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم

- أنا الفقير إلى الله زكي مبارك.

- أهلا وسهلا ! ياسيد قدور تعال سلم على السيد مبارك فالتفت فإذا السيد قدور بن غبريط يصافحني، فتأملت في

وجهه طويلا، وكنت سمعت أنه سعى فى إنشاء هذا المسجد ليخدم فرنسا! ولكنى تيقنت الآن أنه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبني مكانا للصلاة فى باريس وفى جوار حديقة النباتات، وصدق الإمام الغزالى حين قال:

«طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله»

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

بين فصول الكتاب وآيات الوجود

صديقى ..

تسألنى كيف كانت أعمالى كثيرة ومعقدة، وتطلب بيان ذلك التعقيد؟ اسمع إذن هذه القصة ثم استنبط منها ماتشاء:

فى مساء ١٤ يوليه الماضى، بعد أن تناولت العشاء، مضيت الى شاطىء السين انتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين، ثم بدا لى فجأة أنى شهدت هذا الاحتفال فى الأعوام الماضية، وأنه لن يكون فيه جديد، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلا فى العمل الذى جئت له، ثم انحدرت الى المنزل الذى أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التى تحشر الناس فى صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا وليجددوا مابلى من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس، وليروا أخيرا الأسهم النارية تعمل فى الجو المطلق بعض ماتعمل العيون النواعس فى أفئدة الشعراء.

عدت إلى المنزل، وأقبلت على مكتبى، ثم أدنيت الدواة والقلم والقرطاس، ولكنى لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت

دوى الأسهم النارية يخترق الفضاء، وسمعت تهليل المهللين وصياح الصائحين ، والضحكات جميعا من قوية تنبىء عن رجولة، ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة، ودارت بى الغرفة فلم أدر ماذا أكتب وعز علىّ أن تنهزم إرادتى وأن أخرج ثانية للاشتراك فى الاحتفال، وأخذت أرهف العزيمة لأكتب شيئا يعوض تلك الخسارة الفادحة التى منيت بها حين تركت أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس نفسى طائعا فى غرفة مغلقة الأبواب بين مآأعجم واستبهم من مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات.

ولكنى لم أكتب شيئا!

ثم خلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير ذاهلا حائر اللب ترمينى قذائف التفكير من هنا وهناك، وتجمعت فى رأسى أسباب الثورة الفكرية التى تهاجمنى وأهاجمها من حين إلى حين، وبدأت أمطر نفسى وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المحرجة التى تقف أمامها النفس الإنسانية حيرى مولهة لاتدرى كيف تجيب:

أنا تركت العالم يموج على شواطىء السين، ولكن لماذا؟ لأقرأ كتابا يتحدث عن العالم؟ هذا حمق وسفه، كيف أترك

الحقيقة ثم أبحث عنها فى ألفاف الخيال! ألأكتب بحثا يشرح بعض حقائق العالم؟ كيف! وأنا أهرب من العالم لألجأ إلى القلم والكتاب والمصباح!

وانطلقت أفكر فى أمثالى من الذين يتسامون الى شرح حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى فى منازلهم يخشون إذا هموا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال . فكم من عالم مفكر - وتلك دعوى قديمة - يجلس فى عقر بيته ليضع الشرائع للناس، وهو لايعلم شيئا عن غرائز الناس، فى حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية، وإنما هو تنظيم وتهذيب للغرائز والميول والأهواء، وكم من فيلسوف - وتلك أيضا دعوى قديمة - لايعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب!

ثم ماذا؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التى درج عليها الناس منذ أجيال، والتى تقضى بأن الجمهور لايحترم الرجل الذى يشاركه فى أسباب دنياه، وإنما يتصور العظمة محبوسة فى

أقفاص المكاتب والمعاهد والجامعات، وقديما شك الناس فى نبوة الأنبياء، لأنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق كما حدثنا القرآن.

أتجرحك ياصديقى هذه الملاحظات؟

معذرة إليك ، فأنا رجل ثائر عنيف، وسأظل فى ثورتى إلى أن انتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد، وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستحطم عما قريب، وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات، وستهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ، وخلق أسباب التبجيل، وفرض الاحترام بالأساليب المجوجة التى تخلى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب فى شرف الحرية والإخاء والمساواة، ويوم فضل الحقيقة المرة على الباطل المعسول .

متى أشهد مصرعك ياعهد النفاق!

ثم كان مساء الاحد الماضى حيث يجرى سباق السباحة فى السين، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها تحيى عظمة البساطة والخفة والسذاجة والرشاقة فى

أجسام السباحين وخرجت أنا أيضا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات فى الصوان وأغلقته اغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط لئلا يهجم علىّ كتاب فلسفة مثلا فيحول بينى وبين الخروج!

يالله ! هذا شباب باريس يطوق السين كما يطوق العقد جيد الحسناء، وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلى موضع قدم، والناس، مابين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان لتتم له أسباب الإبداع، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الإنسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول.

والسين؟ السين! قد تحول ياصديقى الى أمواج من النور البنفسجى الجذاب، حتى حسبته قلبا يخفق بالمنى، أو مخدعا يتناجى فيه عاشقان، وحسب السين ليلة من هذه الليالى فى كل عام ليتيه على أنهار العالم جمعاء ، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديما يوم كانت تزف إليه فى كل عام فتاة هيفاء، والحسن فى كل عصر خير مايهدى وخير ماينال.

وأنا ؟ ... أتريد الصـــدق؟ لم تكن مـــعى مـــرآة أرى فى بياضـها مشاهد السابحين، ولم أنشط الى تسلق الأشجار لأرى مالا يراه الواقفون، ولم أجد مكاناً على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق، وإنما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسى، وعدت مع ذلك الى المنزل قبل أن ينتـهى الاحـتـفـال. أتدرى لماذا؟ لأقرأ كتاب سبنسر فى علم الاجتماع!

فإن شئت أن تعرف كيف كانت أعمالى كثيرة ومعقدة فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد الوجود.

باريس فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

محمود بيرم

في طريقي إلى المنزل الذى أقيم فيه حديقة صغيرة يؤمها الناس من جميع الطبقات إلى وهن من الليل.. وهي حديقة تهوى إليها نفسى فأخترقها في الصباح وعند المساء، ويعجبنى فيها تمثال فولتير، ذلك الرجل المعجز الذى علم الكتاب كيف يسخرون وكيف يرتابون، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة التى لا ندرى كيف استطاع الصخر وهو أصم أن يحفظ منها صورة ناطقة، ويعجبنى فيها أيضاً أولئك النسوة النبيلات يخرجن إليها فى الضحى وفى الأصيل ومعهن أطفالهن يمرحون ويلعبون، فأتذكر والأسى يلذع قلبى أولئك الصبية الأعزاء يحيطون بى فى حديقة المنزل ليمنعونى من الخروج و... من الرحيل!

فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد إنسان لا أعرفه، وعلى وجهه مسحة من سماحة الشرق، وكتلة من أثرة الغرب، فقلت:

– سلام عليكم «بخفة ونشاط»

– عليكم السلام «بتثاقل وبرودة»

– لا ترع أيها الرجل، فأنا أريد أن ألقى نظرة على هذه الجرائد لا أكثر ولا أقل، وأنا والله فاعل ذلك رضيت أم غضبت!

– اقرأ، ولكن أسرع فإنى ذاهب إلى العشاء، فقد شغلنى قبلك هذا الفتى بجانبك إذ رجانى أن أسمح له بنظرة سريعة ينظر بها أخبار مصر والشرق، كما يقول، أما أنت فبارك الله لك فى هذه الجرأة، ألست تريد أن تقرأ هذه الجرائد رضيت بذلك أم غضبت؟ ولا أدرى والله ماذا أصنع إذا حاولت منعك وفيك هذه الجرأة وهذا الهجوم، وقد تكون قوى البطش، سليط اللسان!

ثم سكت، وأخذت أقرأ تارة وأدرس وجهه تارة أخرى:

هذا شاب قصير، نحيل، متضعضع، مهدود، لم تبق أيامه من جسمه باقية، وهو لذلك ضيق الصدر لم يستطع أن يتكلف البشاشة لرجل بدأه بالتحية، وأنه ليحمل رزمة من الجرائد المصرية.. وهذا الحمل الثقيل يدل على أنه مغرم بتتبع الحياة فى مصر بألوانها السياسية والأدبية. فياليت شعرى من هو؟

– أنت هنا منذ زمان أيها الأخ؟

– منذ عشر سنين!

– عشر سنين؟ وماذا تصنع؟

– عامل فى أحد المصانع

– وما الذى ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل؟

– هذه بلوى قديمة!

– منذ متى؟

– منذ كنت أحرر المسلة. فأنا محمود بيرم التونسى

أهلا وسهلا!

وحضرتك؟

زكى مبارك

أنت الدكتور؟ الله يسامحك! كيف نسيت أن ترسل إلى نسخة من كتاب الأخلاق عند الغزالي.. لا.. بل كيف استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفيلسوف.. إلي آخر ما قال.

أيها القارئ!

أتتذكر صيف سنة ١٩١٩؟ إن كنت لم تشهد ذلك العهد وذلك العام الميمون فاسأل من شهدوه ومن أكتووا بناره يخبروك أن محمود بيرم التونسى كان شاغلا لجميع الأندية المصرية بمجلته الصغيرة اللذاعة «المسلة» وهو – مع احترامى لمن يشتغلون بالرسائل الفكاهية فى مصر؟ – رجل ممتاز له طابع خاص. ولقد رأيته فى حالة محزنة، فقد سقط عليه فى

ذلك اليوم برميل بيره فى المصنع الذى يعمل فيه.. ولكن الله لطف فلم يصب إلا بجرح خفيف، أتم الله شفاءه وعافاه.

بعد أن تعارفنا تطلقت أسارير وجهه، وأخذ يسألنى عن مصر وعن صحف مصر وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن يراسلهم مجاناً وهو فى أشد الحاجة إلى المال، وعن الذين يستطيعوا أن يسهلوا له سبيل العودة إلى مصر ولكنهم لا يفعلون!!

ثم تناولنا معاً طعام العشاء. وطفنا طويلا على شواطئ السين، وأسمعنى مواويله وأزجاله القديمة التى كانت تضحك ناساً وتبكى آخرين، في سنة ١٩١٩، وأسمعنى كذلك طائفة من المقامات الهزلية التى تضحك الثكلى. خصوصاً مقامة «الفقى» الذى خرج يصطاد امرأة، والذى «شال العزال» إلي المحطة؟

وانتهى المطاف إلي إحدي الحدائق العمومية التى تظل مفتوحة إلي نصف الليل، وكان بيرم أفندى قد تعب، فطلب أن نجلس قليلا على أحد المقاعد، ولكنا وجدناها جميعاً مشغولة، فاضطرنا تعبه إلى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان، والأدب فى باريس لا يسمح بازعاج العشاق، وظل الفتى يقبل الفتاة وهى بين يديه كأنها الغصن المطلول، وكأننا

لسنا هنا وكأنهم ليسوا هناك؟

- لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج.

- اطمئن! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التى تطوى عليها جوانح الغدرة الفجرة ممن يدعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم!

ثم هممنا بالعودة إلي منازلنا بعد سهرة جميلة نفينا بها أشجان الاغتراب.

- أسمع يا محمود أفندى، أنا سأكتب عنك مقالة.

- أنت تمزح. ألم يبق لديك ألا أن تكتب عن بيرم بعد أن نسيه الناس؟

باريس فى ٢٩ يوليه ١٩٢٩

لطفـــك!

يا فوق مايسمو لجاج الهوى

ويطمح الوجد ويبغى الهيام

الطف بعشاقك وارفق بهم

فقد طغى الحسن وجار الغرام

باريس فى ٨ سبتمبر ١٩٢٧

هذه باريس وهذا باريس

باريس في ١٤ يوليه سنة ١٩٢٩

صديقى...

لقد ألف الناس فى مصر والشرق أن يلحظوا فى باريس صيغة التأنيث، فهم يقولون «باريس الجميلة الفتانة» ولكن الفرنسيين يعطون لعاصمتهم القوية صيغة التذكير، وإنهم ليقولون «باريس القوى القهار» فما هو السبب فى ميل الشرقـيين إلى تأنيث هذه المدينة؟ السبب واضح، لأن الشرقيين يتوهمون هذه المدينة مدينة اللهو والدعارة والفسوق: فهم لذلك يعطونها اسما لينا مؤنثاً يتناسب مع ما يحسبونه ينهار فيها من أركان الأخلاق، أما الفرنسيون فيعرفون فضل عاصمتهم ويعلمون أنها قوية جبارة غالبت الأعداء ونازلت الخطوب زمناً غير قليل، ثم ظفرت من ذلك كله بمجد باق خالد تغلب عليه سما البشر والابتسام: إذ لم يعد فى حاجة إلى التبرم والعبوس.

أتذكر أنك سألتنى غير مرة أن أحدثك عن باريس؟ إذن فاعلم أن صمتى عن جوابك لك يكن جهلا لقدرك، ولا تهاونا في حقك، ولكنى ظننتك تنتظر منى جوابا يساير الفكرة التى

ينتظرها الشرقيون ممن يصف باريس، لذلك استبحت لنفسى الإغضاء عنك، وأنت أنت فى ودك الصادق وعهدك المتين، واليوم. أتدرى لم فكرت في جوابك؟ لسببين: الأول لرد التحية الجميلة التى حيتنى بها جريدة الصباح والتى وعدت فى ختامها القراء بأنى سأوافيهم بشئ عن الحياة فى باريس، والثانى لأن هذا اليوم - يوم ١٤ يوليه - أخرجنى عن وقارى، فتركت عملى وخرجت أهيم كالثائر المجنون أتلمس أسباب الحياة في هذه المدينة الصاخبة التى أغوت من أغوت، وأضلت من أضلت، وهدت من هدت من العالمين، فلم أجد أمامى إلا ذكرى النصر والحرب والسيف والمدفع والبأس والصبر والكفاح، وما شئت يا صديقى من الأسماء والمسميات التى خلقها الله لتمجيد البطولة والرجولة والقوة والبأس الشديد.

ولقد تعودت فى الأعوام الماضية أن أشهد الحفلة القومية التى يعرض فيها الجيش صباحا فى ساحة النجم عند قبر الجندى المجهول، فبكرت من يومى هذا أسابق الناس إلى ذلك الميدان لعلى أجد مكانا صالحا أقضى فيه ساعات الاستعراض، ولكنى علمت مع الأسف أن مجلس الوزراء قرر إلغاء هذه الحفلة فى هذا العام فراراً من وقدة الحر الذى

هاجم باريس منذ يومين اثنين، وكنا في بداية هذا الصيف نشكو شدة البرد. وكذلك حرم الباريسيون من ذلك المنظر الرائع منظر الجنود مدججة بالسلاح تذكر من عساه يغفل وينسى بأن الوطن لا يحرس بغير القوة، وأن الأمة التي عرفت في العالم كله بأنها صاحبة الفضل في نشر المبادئ الإنسانية هي أيضاً لا تعيش بغير القوة، وأنها في وجودها وعظمتها مدينة لقوة البأس وصدق النضال..

أفهمت الآن أن باريس شئ غير الذي تعلم وغير الذي يتوهم الناس؟

لقد ألقيت في الشتاء الماضي محاضرة في نادي الموظفين عن تأثير المرأة في المجتمع الفرنسي، فلما نشرت خلاصتها في بعض الصحف لقيني أحد الذين طالت إقامتهم في باريس وأفهمني بلطف أنني لم أعرف باريس. ولا أزال حتى الآن أجد من يلومني على حسن الظن أسديه إلى باريس. ألا فلتعلم يا صديقي أن الذي أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق كل الحق، والذين يعرفونني يعلمون علم اليقين أنني تغلغلت في أعماق الحياة الفرنسية وأنه لم يصل أحد إلي مثل ما وصلت إليه من الألفة الصافية والصلات العميقة مع الذين

عرفتهم وصادقتهم وعاشرتهم من الفرنسيين فى باريس وغير
باريس. فالمرأة الصميمة الأصيلة يغلب عليها النبل والطهر
والعفاف، وإن نبرة واحدة من صوتها الرنان لتبدل الأرض
غير الأرض والسموات، وأنها لتذل من تذل، وتعز من تعز،
وهى فى مكانها كالطود الراسخ لا تغلب ولا تنال. ولو كانت
المرأة الفرنسية هينة إلى الحد الذى يتوهمه الأفاقون الذين
ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات فى باريس لما أنجبت
فرنسا شاعراً ولا كاتبا، ولظل أهلها فقراء العواطف موتى
الإحساس. والذين تراهم يتحدثون عن باريس ذلك الحديث
الوقح المجرم المأفون هم قوم لا يزيدون في أخلاقهم ولا
معارفهم عن شواذ الفلاحين فى مصر حين يجيئون القاهرة
عمداً ليطفئوا حرارتهم الحيوانية فى بعض البؤر الموبوءة ثم
يعودون إلى أهليهم فيعطونهم من القاهرة صورة تجرح الطبع
والذوق وتبغض الرجل المهذب فى مظاهر المدنية وآثار
النهوض.

فى باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان، أفيعيش
هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة؟ هذا محال. فلم يبق إلاّ أن
نقف عند حدود العقل والمنطق فنتصور أن مثل هذه المدينة –

وفيها نحو مليون من الأجانب - لا تخلو من أماكن تسود فيها الرذيلة ويغلب الشيطان. ولكن هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يذكر أن الرجل قد يعيش في بارس بضع سنين ثم لا تقع عينه على منزل يبنى أو منزل يهدم، حتي لأ تصور أنا أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق الأرض والسماء؟! وهل فكر أحد من الذين رأوا باريس أن يلاحظ أن سكة حديد المترو التى تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والقصور والحدائق، ومن فوقها أيضاً نهر السين بفروعه التى تزخر بالموج والسفين، أقول هل لاحظ أحد من هؤلاء أن هذه الخطوط الحديدية فاقت وهى حقيقة كل ما كان يتصوره الناس عن أعمال الجن وهي خيال؟ وهل اتجه فكر أحد من الذين يجرحون باريس إلي أن رواد المكاتب وحدها ممن يسايرون الحركة العلمية فى أرجاء العالم يزيدون أضعافا مضاعفة على رواد الملاهى والملاعب والمشارب، فى حين أن نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمته، وأن اللهو عندهم قد يقترف وله سحره وله معناه، وله فضله فى تلوين

الحياة الإنسانية بلون البشر والفتون: إذ كانوا قوما جدهم جد وهزلهم جد؟

صديقى!

هذا باريس! ولا أقول: هذه باريس!

فإن كانت عندك ذخيرة من المال فتعال أعلمك كيف يضع الرجل درهمه في سبيل المجد والشرف، وكيف يستطيع أن يستقى ماء الحياة من منبع الحياة، فهنا معاهد العلوم والفنون والآداب. وإن كنت تريد أن تضيع مالك فى الفولى بيرجير والمولان روج فإنى أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك لتبقى لك نعمة المال والشباب والعرض المصون..

أيها الناس!

لكم باريس، ولى باريس، والسلام

الطلبة عندنا وعندهم •

الطلبة فى جامعة باريس يشبهون إخوانهم فى الجامعة المصرية فى كثير من الوجوه، وهم جميعا شياطين: فحثيما جلست فسهام ونشاب تخف لها الأحلام وتطيش العقول، وأكثر ما تصوب القذائف إلى الفتيات اللاتى يتلقينها فى جذل وابتسام.

وأظرف ما أذكر من حوادث الطلبة فى الجامعة المصرية كان فى قصر الزعفران سنة ١٩٢٦ حيث نثر الطلبة مسحوق الفلفل بين المقاعد، وكان الدكتور طه حسين يحاضر فى انتحال الشعر الجاهلى وكنت بجانبه، فلم تصبنا ولله الحمد شظية من شظايا الفلفل، غير أن صديقنا الأستاذ الهيهاوى كان قد حضر ليعرف إلي أى حد كان انتحال الشعر الجاهلى! فجلس بين الطلبة وهو أقصر منهم، ويظهر أن خياشيمه كانت ضعيفة فأخذ يعطس وحده باستمرار ساعة كاملة، وأنا أشهد صابراً ما يقاسيه المسكين من خطر العاطوس المجهول..! فإن تذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه عطس مرة فى الجامعة المصرية فليعرف الآن أن ذلك لم يكن مصدره البرد، وإنما كان مصدره الفلفل المسحوق. وليس بسر ما أذعته أوعطسته على أكثر من مائتين - أليس كذلك؟

ويل الشجي من الخلي

الاستاذ (د) مدير معهد... فى باريس رجل فصيح المنطق، رائع الهندام. أحسن ما يكون إذا خطب أو حاضر، وهو لا يلقى محاضراته إلا واقفاً.. وله فى امتلاك قلوب من يستمعون إليه قدرة عجيبة لا يمترى فيها مكابر ولا حقود عرفته منذ أربعة أعوام، وأعجبت به، ثم صادقته، فلقيت فيه أكرم صاحب وأوفى صديق.

وطالما سألت نفسي: ما الذى وصل بينى وبين هذا الرجل؟ أهو علمه؟ ما أظن، فقد كثر العلم والعلماء. أهو كلامه؟ وكيف وكل الناس يتكلمون في باريس، وأهل هذه المدينة يجيدون الكلام بنوع خاص.

وقد انتهيت إلى أن الذى وصل بينى وبين هذا الرجل هو إخلاصه لمهنته، مهنة التدريس، فقد كان يبلغ به الحد فى محاضراته إلي أن يتوقف فجأة ويسند رأسه بيده فى مثل المغشى عليه، ويظل كذلك نحو ثلاث دقائق إلى أن يعاوده صوابه، ثم يأخذ فى الكلام من جديد، بعد أن يسأل ما الذى كان يقول!

وأنا قد اختبرت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها،

ورأيت ما يقاسى المدرسون، وتبينت كيف تكتوى قلوب المخلصين فى هذه المهنة العنيفة التى لم يصبر على عنائها غير الأنبياء، فمن الحق أن أعطف على الأستاذ (د) وأن تقرب نفسى من نفسه، وأن تتوثق بيننا أواصر المودة والإخلاص لكن صديقى هذا لم يكن ظريفاً إلا فى محاضراته، فإذا خرج من حجرة الدراسة فهو إنسان ضيق الصدر، جدب الكلام، لا يجذبك إليه، ولا يقربك منه، وإنما هو مخلوق متوحش لا يعرف ما الألفة وما الإيناس.

كنت ألقاه في مكتبه فينقبض صدرى لانقباضه، وأستوحش لوحشته. وكنت أقدر أنه مريض الأمعاء. فقد شكا ذلك مرة، لذلك كنت آسى عليه، وأواسيه، وأراجعه فى بعض شئونه عله يميل إلى أنس الحديث.

وأقدم الذكريات بيني وبينه أننا تناولنا الغداء معا فى أحد المطاعم، ثم دعانى إلى منزله، ولكنه اشترط على أن أحتمل بعثرة أمتعة المنزل إذا دخلته: لأنه يعيش وحده، إذ كانت زوجته في الريف، فابتسمت وقلت: إننى دائماً أعتذر بمثل عذرك: فإن أمتعة المنزل عندى مبعثرة باستمرار، بسبب الكتب والمطبوعات، وأنا أرجح أن منزلك مبعثر كذلك بسبب

الكتب والمطبوعات، ثم دخلنا فاذا الكتب مبعثرة فوق البسط والأرائك والمناضد، فتذكرت منزلي، وحمدت الله على تشابه حظوظ الأدباء والمدرسين..

وأذكر أني كنت أماشيه مرة، فلما وصلنا إلى ميدان الأوبسرفتوار وقف بغتة وقال: هذه سيارتي! ويظهر أن ابني جاء لتوصيل إحدى صويحباته! فلنقف لحظة حتى يعود لنرى ماذا يصنع الخبيث!

فقلت: يا سيدي! إن الطبيعة-تعمل عملها ونحن غافلون فامض بنا وخل ابنك يفعل ما يشاء الشباب!

فقال: ولكن الطبيعة ليست في حاجة إلي سيارتي لتعمل عملها، وقد كانت الطبيعة تفعل ما تفعل قبل أن تخلق السيارات وأنا منتظر حتى يعود ذلك الغوي المبين!

فقلت: أرجوك، ليس من الذوق أن تجرح ابنك في ساعة حب، فلنمض بسلام.

وأغرب ما مر بي متصلا به أن ألقى عليّ أحد الطلبة هذا السؤال: أنت كثير الاتصال بالمسيو (د) فهل صحيح أنه يضرب زوجته؟ فدهشت وقلت: حتى الطلبة في باريس يتقوّلون على أساتذتهم ويخلقون لهم أقاصيص! إنه لمدهش أن أسمع

أن أستاذا فرنسيايتهم بضرب زوجته، وكنت أعرف أن الفرنسيين عبيد نسائهم، وإنه إذا ساءت أخلاق أحد الزوجين فلا مفر من أن تكون الزوجة هى الجانية!

وكان زملاء المسيو (د) قلما يرضون عنه، ويرون فيه رجلا مزهوا قليل الرعاية لحقوق الزملاء، وكنت أعتذر عنه وقد لاحظت أن المسيو (د) لايذكر المرأة فى محاضراته إلا بشر، ولا يرى إلا أنها مخلوق سخيف، فكنت أفترض أن صلته بزوجته لاتخلو من اضطراب.

***

لقيت هذا الصديق منذ أشهر فدعوته إلي تناول الغداء فى مطعم، فأخذ يعتذر، فقلت ألا تزال زوجتك غائبة؟

فقال: لا، ولكنها سبب ارتباكى. فقلت: كيف فأجاب: حالتها الوجدانية.

فأخذت أسائل نفسي: ما معنى كلمة «وجدانية» فى هذا الحديث؟ أتكون كلمة «سنتيمنتال» مرادفة لكلمة «ملاد»؟ أيحتمل أن تكون هذه من دقائق اللغة الفرنسية التى لايزال يفوتنى منها شئ بعد دراسة عشرين عاما؟

ثم جاءت أيام قدمنى فيها إلى زوجته، فإذا هى إمرأة فى

حكم المريضة، وليس لها ما تشكو منه غير ضعف الأعصاب وتواترت بيننا الدعوات والزيارات، وتبادلنا علائم المودة بغير حساب. وكنت كلما ذهبت لزيارتهم بعد العصر احتجزونى بالقوة لتناول العشاء.

وكان المسيو (د) يتبسط معى فى الحديث، فيسامرنى فى كل شئ، وكان يدهشنى أن أرى معايب الفرنسيين مشابهة لمعايب المصريين في كثير من الوجوه، فقد كان يذكر أن الحكومة الفرنسية لا تهتم باستشارة أهل الخبرة، وأن علماء فرنسا لا تنتفع بهم حكومتهم إلا إذا ماتوا، أو طعنوا فى السن وأصبحوا فى حكم الفانين.

وكانت زوجته تشاركنا فى السمر، فرأيت الفرق بين عقليهما بعيداً، ورأيتها مع ضعفها تسيطر عليه، وهو يداجيها ويماريها ويتلمس لرضاها ألوانا من متكلف الأسباب.

***

ثم جاءت أسابيع شغلت فيها عن هذين الصديقين، وانتظرت أن يسألا عنى، ولكن هيهات! فإنى لم أتلق منهما رسالة ولا دعوة تليفونية. فقلت: لا بأس، هكذا يكون الفرنسيون، وكذلك يكون وفاء الأصدقاء!

وجاء عيد رأس السنة، فقلت فى نفسى: أليس من البر أن أذهب فأترك بطاقة الزيارة فى منزل المسيو (د) بالرغم من إعراضه وتغاضيه؟ وترددت قليلا، ثم أقدمت، وبعد لحظات كنت هناك.

طرقت الباب ففتحته المدام (د) وهى ملوثة اليدين مشوشة الأثواب. فتراجعت وقلت: عفوا يا سيدتى، إنى أعفيك من استقبالى، فإن البوادر تدل على أنك فى شغل، وإليك بطاقتى إلي زوجك العزيز.

فقالت: انتظر، انتظر وأسرعت فغسلت يديها، وأصلحت من هندامها، وعادت فصافحتنى وجذبتنى إلي غرفة الاستقبال.

– ما الذى حجبك عنا طوال هذه المدة؟

– إن مولاتى تعرف أننى مشغول، وقد زادت أعمالى تعقداً فى الأسابيع الأخيرة.

– ولكن أما كنت تستطيع أن تكتب إلينا كلمة، أو تحادثنا فى التليفون؟

– كان هذا واجبا عليكم يا مدام فأنتم أثنان وأنا وحيد، وأنتم فى وطنكم وأنا غريب.

وبعد هذه المحاورة القصيرة سكتت تلك السيدة لحظة ثم قالت: أصحيح أنك انقطعت عنا بسبب أعمالك؟ ألم يشر إليك المسيو (د) بأن لا تجيء؟

فقلت: كيف يشير إلي بأن لا أجيء، وكنت ولا أزال من أكرم الأصدقاء؟

فقالت: هل ذهبت إليه في معهد... بعد أن زرتنا آخر مرة قلت: لا

وما هي إلا لمحة حتى اغبر وجه المسكينة وقالت:

- هل تعرف أن المسيو (د) يفكر في الطلاق؟

- أبدا يا سيدتي، لا أعرف، وهذا نبأمزعج، كتب الله لكما الوفاق!

وهنا اندفعت السيدة تبكي بأحر من بكاء الأطفال، وانقبض صدري لهول المنظر، وأخذت ألهيها عن بكائها بسؤالها عن الأسباب.

- الأسباب؟ أتريد أن تعرف الأسباب؟

إن الأسباب كلها ترجع إلى نقطة واحدة هي أن صديقك (د) له صبوات وقد شارف على الخمسين! هناك نساء ملعونات أفسدن ما بيني وبينه وحملنه على التفكير في

الفراق. كانت تتردد علينا أرملة على شئ من الوسامة، وكانت تدلله وتناغيه فى حضورى فليت شعرى ماذا كانت تصنع فى مغيبى! وأنا امرأة يتهمنى من يعرفنى بأنى لا أعرف العصر الحاضر، ولا أفهم تقاليد الجيل الجديد.

فانتهزت هذه الفرصة وتدخلت فى الحديث علنى أشغل المسكينة عن دمعها المسكوب وقلت:

ولكن ياسيدتى ما هو العصر الحاضر؟ وما هو الجيل الجديد؟ الناس هم الناس، وفضل المرأة هو هو لم يتغير. ولا يطلب من الزوجة إلا أن تكون أمينة وفيه، وأنت فيما أعتقد مثال الأمانة والوفاء.

فقالت: لا ليس هذا هو المهم! المرأة العصرية فى فرنسا هى التى تعرف كيف تسوس زوجها، والزوج لا يساس فى هذا الجيل إلا إن ترك له الحبل على الغارب، وخلته امرأته حرا يذهب أنى شاء، ويصاحب من شاء. وهذا شئ يثير جنونى، ولا أكاد أحتمل التفكير فيه. وكان من العدل أن يمنحنى صديقك (د) ما يمنح نفسه من حقوق الغيرة، فإنه لم يسمح لى أن أرقص مع رجل واحد أكثر من مرة، فمن حقى أن لا أسمح له بمراقصة امرأة واحدة أكثر من مرة، وليت

الأمر وقف عند هذا الحد، فقد كان يشجعنى على الإقامة فى الريف ويقول: إن صحتك في حاجة إلى الهواء الطلق! وكنت أعرف أنه هو الذى يفكر فى الهواء الطلق فى باريس، والهواء لا يكون طلقا فى باريس إلا لمن يعيش بعيداً عن زوجته، ليتنفس كيف شاء، وينطلق حيث يريد! ألم يحدثك عن شئ من ذلك؟ قل أرجوك، لا تكتم شيئاً، فقد ارتفعت بينكما الكلفة، وأنى لواثقة أنك تعرف مالاً أعرف من سره الدفين!

فأقسمت لها - فى صدق - أننى لم أر منه شيئاً غير التألم. لمرض زوجته.

فقالت: وهل تعرف لماذا كنت مريضة؟ قلت: لا، قالت: إن صديقك (د) لم يألف الجلوس فى المقاهى، ولم يتعود التفرج فى البساتين، ومع ذلك كانت أوقات فراغه تقضى خارج منزله، فأين كان يقضيها الخائن أليس كان يقضيها فى صبواته ونزواته مع أمثال تلك الأرملة الملعونة التى أفسدته على أهله وفتحت لنا باب الشقاء؟

***

أشرت فى صدر هذا المقال إلى أن المسيو (د) له ابن، وأن ذلك الابن كان ينتفع بسيارة أبيه فى نزوات شبابه، وكنت

عرفت بعد ذلك أنه مقيم فى بلجيكا وأنه موظف فى شركة هافاس. وقد رأيت أن أثير فى نفس الزوجة عاطفة الأمومة فقلت:

ألبس لكما أولاد؟ فإنى أعرف أن الأولاد يصلون بين قلوب الزوجين برباط وثيق..

فقالت: لنا ابن واحد، ولكنه فارقنا منذ زمان.

فقلت: كيف، ولأى سبب؟

فقالت: لم يستطع ولدنا أن يكون تلميذا نجيبا، وأنت تعرف أن صديقك (د) من طبقة البورجواز: فمن الصعب عليه أن يرى ابنه ينفر من اللاتينى واليونانى، ويحرم من مستقبل الاستاذية. وأسرته كلها أساتذة مثقفون. وكم تألمت من قسوة الأب على ابنه، فإن ولدنا لم يكن لديه أى استعداد للأستاذية، وكانت طبيعته منصرفة إلى الزراعة وحياة الريف وفى جميع المرات التى كنا نذهب فيها إلى الأقاليم كان ولدنا يأنس بالمواشى والدواب، وآلات الحرث والسقى، ويطيب له المقام بين الفلاحين. وكنت أحب أن أشجع فيه هذا الميل، ولكن والده كان يتأفف ويتألم من انصرافه إلى الفلاحة، ويهم بزجره وإيذائه، حتى ضاق صدره وأصبحت حياته بيننا أشبه شئ

بحياة المسجون. ومنذ أعوام ذهب لتأدية الخدمة العسكرية فلما عاد وجدناه قد ألف المطالعة والتهام ما في الكتب من الشئون العلمية والأدبية، ورأى أن يعمل فى بعض المكاتب الكبيرة، حيث تنفع هذه الموهبة، فإن هناك ناسا يذهبون إلي المكاتب بدون أن يعرفوا ماذا يقرءون، فيكون وجود مثل هذا الشاب مصدر ثروة للمكاتب التى تحتاج إلى من يعرف روادها ما هى أهم الكتب ومن هم أشهر المؤلفين.

ولكن ذلك لم يغن عند صديقك (د) فأخذ يؤذى ولده ويضيق عليه ويحرمه من ارتياد الملاهى، بحيث كان المسكين لا يعرف كيف يقضى سهرته. فكان يذهب إلي عمته يحادثها لحظات ثم يعود قبل الساعة العاشرة، وأنت تعرف أثر هذا الضيق فى حياة الشبان. وكذلك خلانا وهرب ليعمل فى مدينة غير هذه المدينة، وبلاد غير هذه البلاد!

***

ثم عادت السيدة إلى بكائها وعويلها فقلت لها: صبراً!

فقالت: هذه نصائح يحسنها الخليّون! وكل خليٍّ فصيح يحسن القول ويجيد وصف العزاء! لقد صممت على أن نعيش معا أو نموت معاً، فله أن يساكننى فى البيت أو يجاورنى فى

القبر أما أن أصير أرملة ويظفر هو بعروص تذهب همومه فذلك من المستحيل. ألست تقرأ الجرائد؟ ألست ترى المآسى الدموية بين الأزواج؟ إذن انتظر فستفصِّل الجرائد فجيعتنا بعد قليل.

قلت: أليس لكم أصدقاء يتوسطون في فض الخصومة؟

فأجابت: لا أمل فى ذلك، فقد أصر صاحبنا على الفرقة، ويكفى أن ترى كيف تخير أيام العيد لينشر خبر القطيعة بين جميع المعارف والأصدقاء. على أنى قد فكرت فيما فكرت فيه، وربما ذهبت إذا قتضى الحال إلى بعض الأسرات التى نعرفها والتى تخاطبه بالكاف - «المخاطبة بالكاف اصطلاح عربى قديم يقابل (التيتواما) عند الفرنسيين».

فقلت: من عسى أن يكون هؤلاء الأصدقاء؟ فقالت: إنهم زملاؤه. فقلت: أحذرى يا مدام أن تعتمدى عليهم، فإن الزملاء قلما يحب أحدهم لأخيه أن يكون له بيت معمور!

ثم خليتها وانصرفت وأنا أردد الحديث الشريف: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». ثم مر بالخاطر بعد هنيهة ماروى عنه عليه الصلاة والسلام: الغيرة مفتاح الطلاق.

وبعد قليل ترددت فى الفكر عبارة قالها الأصدقاء

الفرنسيين: «لا سبيل إلى السلام بين الزوجين إلا إذا تمتع كلاهما بحريته. فإن كان لابد أن يسيطر أحدهما على صاحبه فمن الخطر أن تكون السيطرة للمرأة».

وهذا هو الذى كان فى منزل الاستاذ (د) فإنه لم يستطع أن يظفر بحريته، ولم يستطع أن يبسط سلطانه على زوجته، فانتهى به الأمر إلى الهرب ثم إلى الطلاق.

فياحضرات القراء: احمدوا الله على سذاجة المرأة الشرقية، ولا تحسدوا أمثالكم فى الغرب فإنهم أشقياء تعسون.

٥ يناير سنة ١٩٣١

حديقة النباتات فى باريس

حديقة النباتات فى باريس ليست للنبات وحده كما يفهم من اسمها الفرنسي، إنما هى حديقة النبات والحيوان. ولعل قصر اسمها على النبات راجع إلي أنها فى الأصل أقيمت لذلك، ووضع قسم الحيوان فيها بعد حين..

وهى من حيث الشكل جميلة الهندام. وهذا التعبير أدق ما توصف به تلك الحديقة المهندمة الرشيقة التى تبدو لزائرها وكأنها عروس فى ليلة الزفاف.

فى تلك الحديقة أشجار مرت عليها أجيال، وشهدت من تقلبات الحوادث وصروف الزمان مالم يشهده من أمثالها إلا القليل، ومن الوجهة الفنية تعد من أغنى الحدائق فى العالم: ففيها نباتات من جميع البقاع، حتى ليخجل مثلى حين يجد فيها نباتات مصرية لم يسمع عنها ولم يرها فى بلاده، وفيها نباتات كانت فى مصر منذ قرون ولا توجد بها الآن. ولا أكتم القارئ أنى رأيت بها نباتا لا يرحمه الفلاحون المصريون. وهو ما نسميه «الزمير» وهو ينبت فى مصر فى حقول القمح ويهاجمه الفلاح، وهو عند الفرنسيين يقدم طعاما للخيل. وتعد حديقة النباتات هذه أكبر مرجع

للمشتغلين بالزراعة وتنظيم الحدائق والحقول. والرجل المتطلع يقضى فيها أياما وأسابيع لا يمل ولا يسأم ولا ينتهى درسة لما فيها من أنواع النباتات والأشجار والأزهار. وأمام كل حوض بيانات وافية تنفع الحريص على تعقب ما فى هذه الحديقة مما يجب درسه وفهم ما له من الخواص.

أما قسم الحيوان فهو ضئيل بالنسبة إلى قسم النباتات، ويمكن الحكم بأنه صغير جداً بالنسبة لحديقة الحيوان فى مصر، ولا ينتظر غير ذلك: لأن الجو فى فرنسا لا يسمح بمثل ما يسمح به الجو فى مصر من الرفق بالحيوانات الأفريقية والأسيوية. ولأجل هذا تعتبر حديقة مصر من كبريات حدائق الحيوان فى العالم.

لكن لقسم الحيوان فى حديقة النباتات فى باريس حظ ليس لأخيه الأكبر فى حديقة مصر. ذلك، بأن أهل باريس يخصون حديقتهم بساعات جميلة جداً من أيام الآحاد. والساعات الجميلة تبتدئ من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة حيث يدخل الجمهور مجانا ليشاهد الحيوانات التى

ألفت تقبل الهدايا من الزائرين، وصارت تنتظرهم انتظار الصديق للصديق. وليس من المبالغة فى شئ أن نقول: إن ساعة فى حديقة النباتات فى يوم الأحد تعدل جيلا يقضيه الرجل منعما فى مدينة من مدن الشرق ، فالناس يعرفون كيف يصيّرون حياتهم جميلة محبوبة، لا أثر فيها للسأم والملل ، فإذا رأيت ثم رأيت الفتى وأخته ، أو الزوج وزوجته ، يغدون إلى الحديقة فى وجوه فرحة مستبشرة ، ومع كل فريق زاد خاص جاء به لمداعبة الحيوانات، وقد تعودت الحيوانات هذا البر فهى تقف على اظافرها وتمد اعناقها فى رفق ودعابة لتأخذ ما يقدمه إليها الرجال والنساء والأطفال .

* * *

للأطفال حظ عظيم جدا من المتع البريئة أيام الآحاد فى حديقة النبات، فهناك تقدم الجمال والحمير والبغال لركوب الأطفال، والجمل مركب لطيف يناخ فيصعد اليه الأطفال فى مرح شديد، ثم يقوم بهم فيتضاحكون، ثم يمضى بهم فى أرجاء الحديقة نحو خمس دقائق ، وفى عنقه الجلاجل تمتع الراكبين والمتفرجين بصلصلتها الشائقة بين الأزهار والأشجار وقد يناخ الجمل فيركب الأطفال ويمتنع من

النهوض ، فلا يزال الجمال يلاطفه تارة ويخاشنه أخرى، والجمل يتأبى ويتبلد ، فإذا كلمه بالعربية نهض فى غير بطء ولا استرخاء ، وإذ ذاك يتضاحك الناس جميعا إذ يذكرون أن لغة طرفة بن العبد احب إليه من لغة أناتول فرانس !

والعجيب الشائق أن يُرى جحش صغير جداً يقود عربة يركبها الأطفال ، وتلك أكبر متعة للصبية الصغار الذين لا تقع اعينهم على هذا الحيوان الألوف الصبور إلا فى يوم الأحد فى حديقة النباتات، والحمار حيوان مظلوم كما يقول بوفون، يتهمه الناس بالبلادة والقبح ، مع أنه فى رأيه غاية فى اللباقة والجمال. وبهذه المناسبة اذكر أن اشهر الحمير فى العالم حمير مصر وهى غير الحمير المعروفة التى لا تدرك ما ترى ولا تفهم ما تقول من أدعياء العلم والبيان، إنما هى الحمير التى تمشى على أربع لا على اثنتين ، وتأكل الفول والشعير ، وكان من حظها أنها اقتنت منها عريب المغنية المشهورة معشوقة ابن المدبر حماراً مصريا ظريفا كانت تطأ به راكبة أندية الوزراء والشعراء . ويظهر أنه لهذا السبب كان شوقى يركب حمارا فى الأيام الخالية. كما حدثنا فى مقدمة الشوقيات ، وكان الشيخ عبد المطلب يرى فى الاصائل

والعشيات على ظهر حمار فى حى المغربلين.. إنه حقا لحيوان مظلوم كما يقول بوفون !

فى غير أيام الآحاد تكون حديقة النباتات هادئة فلا ترى فيها الألوف المؤلفة من الفتيان والفتيات والأطفال، ولكنها تظل مع ذلك مأهولة يؤمها الحريصون على العلم، والمغرمون بالصيد بين الخمائل والأزهار فهنا رجل يدرس نبتة أو زهرة وهناك فتاة على موعد من حبيب، وهنالك فتى ضاقت به الأرض فهو يبحث لروحه عن رفيقة مؤنسة تذهب بما فى دنياه من أسباب الكمد والغيظ. وفى هذه الناحية شاب مكدود بيده كتاب يدرسه بعناية وجهد، وفى ذلك الجانب شاعر مغترب يدمدم ويقول :

يا جيرة السين يحيا فى مرابعكم

فتى إلى النيل يشكو غربة الدار

جنت عليه لياليه وأسلمه

إلى الحوادث صحب غير ابرار

ثم تمر الساعات فى تلك الحديقة والطبيعة تفعل ما تشاء فى تكوين عواطف الانسان والحيوان والنبات ، والجماد ايضا فقد يكون لهذا الوجود أسرار خفية من التآلف والاتساق لم

يصل اليها الباحثون .

كل ما فى حديقة النباتات فى باريس ساحر فتان، وفى كل ركن من أركانها ، وحول كل حوض من أحواضها ، وفوق هضبتها العالية، نعمت قلوب ، وشقيت قلوب . والحب جنة وسعير، ونعيم وعذاب .

* * *

لكن ما هذا القادم الجديد؟ هذا مسجد باريس بنى منذ أعوام قلائل امام حديقة النباتات !

فإن اتيح لك أيها القارىء ان تظفر بصيد فى تلك الحديقة التى طال عهدها بالفخاخ والاشراك فترقب وحاذر ، فقد يقرع سمعك فى تلك اللحظة صوت غريب يصيح بالعربية الفصيحة فوق مأذنة عالية :

الله أكبر .. الله اكبر !

اذكر هذا وتهيب عواقبه ، وتأدب مع غافر الذنب ، وقابل التوب، شديد العقاب .

باريس فى ١٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الأدب والحياة
الي الأستاذ محمد السباعي

صديقى :

اسـمح لى أولاً أن اصـارحك بأنك ظلمت نفـسك وظلمت قراءك فى الكلمة التى وجهتها إلى منذ ايام. ظلمت نفسك حين ظننت انك كابن الرومى حين يقول :

مالى أرانى كأنى قد زرعت حصى
في عام جدب وظهر الارض صفوان

فى حين أنك لم تزرع إلا كريم البذور فى أرض خصبة مغمورة بروافد النيل. فإن كانت هناك لحظات ضجر تخيل اليك انك منسى مجهول فلا تنس أن تستعيذ بالله من شر اليأس والوسواس ، وإن كنت ترى ناسا انصفهم دونك الزمان، فارفق بنفسك فسيطغى النسيان على خلق كثير ويبقى اسمك فى الخالدين . وظلمت قراءك حين حسبتهم غافلين عن فضلك، وكان ينبغى أن تذكر أنك قضيت أكثر من عشرين عاما وأنت فى أقدس مكان من أنفس القراء. والواقع أن القراء فى مصر جديرون بالإعجاب : فإن احساسهم قوى جدا بروائع الفنون والآداب . ولك ان تنظر الى رقى الصحف

المصرية التى كادت تفوق الصحف الاوروبية، إذا استثنينا الصحف الانجليزية ، فإن هذا الرقي تعاون فى إيجاده القراء والكتاب ، وكان فضل القراء اكبر لأنهم أعانوا ارباب الصحف على الاتقان والتجميل. فلا تبتئس ايها الصديق الفاضل وامض فى طريقك غير هياب، وثق أن القراء فوق ما يظن المتشائمون .

* * *

وأعود فأحدثك أنى أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبين لك أن القارىء والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران. فلا تنظر أن يوافقك القراء جميعا ، او يخالفوك جميعا ، لأنك واياهم تستمدون حماستكم من الحياة. وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يشغل برواية حوادث الناس. فهل تظن أن الناس جميعا يجب أن يستطيبوا ما تكتب فى حين لم يقدر لهم جميعا ان يعيشوا كما عشت وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس !

على أنه لو كان ينتظر من كل كاتب ان يرضى جميع القراء لتقصفت مئات الاقلام، والعقل يفرض علينا أن نطمئن

الى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الاهواء والميول والاذواق .
فإن ازعجك ان ينصرف عنك قارىء لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك ، فثق أن هناك من يقبل عليك وينتظر : لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك . ولعلك تدرك تمام الادراك ان الاديب العبقرى يجب أن يكون فى شغل بفنه وفكره والهامه عما يحب الناس وما يكرهون . فعلى البلبل ان يغرد حيث يطيب له التغريد، وليس عليه أن يفتن صم الآذان او غلف القلوب .

وإنى لأقدم اليك مثالا من فهم بعض القراء للشعر البليغ وأذكر لك أن للبحترى قصيدة رائية بعث بها إلى ابن المدبر يستوهبه تحفة من تحف الجمال فى عيد المهرجان ، وتلك الرائية تعد من نوادر قصائد البحترى ، ويطيب لى دائما أن أطوف بها كلما واجهت شعره الرنان. وقد استعرت ديوان البحترى فى هذه الايام من أحد الاصدقاء المقيمين فى باريس. وهذا الصديق يرتفع عن القارىء العادى لأنه فى حكم المتأدبين ، ومن عادته أن يضع على هوامش الصفحات حكمه على ما يقرأ ، وهو يكتفى بكلمة (جيد) أو كلمة (سخيف) .

وإليك القطعة المختارة من تلك القصيدة ، وسأخبرك عن حكمه عليها بعد ذلك :

وقد زعموا أن ليس يغتصب الفتى
علـى عـزمه إلاّ الهـدية والسحـر

فإن كنت يومـا لا محـالة مهـديا
ففى المهرجان الوقت إذ فاتنا الفطر

فان تهد ميخائيـل ترسـل بتحفـة
تقضى لها العتبى ويغتفر الوزر

غـرير تراءآه العيـون كأنمـا
اضاء لهـا فى عقب داجية فجر

ولو يبتدى فى بضع عشـرة ليلة
من الشهر ماشك امرؤ انه البدر

إذا انصرفت يوما بعطفيه لفتة
أو اعترضت من لحظه نظرة شزر

رأيت هوى قلب بطيئـا نزوعـه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر

ومثلك أعطى مثلـه لم يضق به
ذراعـا ولم يحـرج به أو له صدر

على انه قد مر عمر لطيبه

ومن أعظم الآفات في مثله العمر

غدا تفسد الايام منه ولم يكن

باول صافى الحسن غيره الدهر

ويمنى بخطى لحية مدلهمة

لخديه منها الويل ان ساقها قدر

تجاوز لنا عنه فإنك واجد

به ثمنا يغليه فى مدحك الشعر

ولا تطلب العلات فيه وترتقى

إلى حيل فيها لمعتذر عذر

فقد يتغابى المرء فى عظم ماله

ومن تحت برديه المغيرة أو عمرو

فما رأ يك فى هذا الشعر ؟ ألا ترى أنه لو ترجم الى اللغة الفرنسية لاستطاع ان يزاحم شعر بودلير وفرلين ؟ ومع هذا لم يعفه صاحبنا من الحكم عليه بأنه (سخيف) .

وهذا السقم فى الأذواق مرجعه الى فقر الحيوية فى أنفس بعض الناس ، وقد حدث مرة أن ثارت بينى وبين أحد المتأدبين مناقشة حول المبالغات والتهويلات التى يصادفها

القارىء فى المؤلفات العربية، وكان رأيه ان حقائق الأدب العربى كلها خيالات ، وأن الشعراء والكتاب كانوا يصفون مايتوهمون لا ما يشعرون . وقد ضرب المثل بالتعابير الآتية فى وصف الرسائل الاخوانية :

كتاب كتب لى أمانا من الدهر وهنانى أيام العمر كتاب لو قرىء على الحجارة لا نفجرت أو على الكواكب لانتثرت ..

كتاب كدت ابليه طيا ونشرا وقبلته ألفا ويد حامله عشرا ..

كتاب هو من الحسن روضة حزن ، بل جنة عدن ، وفى شرح النفس، وبسط الأنس ، برد الاكباد والقلوب ، وقميص يوسف فى أجفان يعقوب .. كتاب تمتعت منه بالنعيم الابيض والعيش الاخضر، ووكلت طرفى من سطوره بوشى مهلل، وتاج مكلل. وأودعت سمعى من محاسنه ما أنسانى سماع الأغانى، من مطربات الغوانى .

كتاب كتب لى أمانا من الزمان ، وتوقيع وقع منى موقع الماء من العطشان .

وقد سألت ذلك الصاحب عما يأخذه على هذه التعابير:

أهو الديباجه والصياغه الفنية ؟ أم هو ما تنطوى عليه من مستور الاغراض ؟ وكان جوابه أنه لا يعقل ان تصل الرسائل

إلى هذا الحد من سحر النفوس ، وأن الكتاب كالشعراء كلهم كاذبون !

ولم أجد ساعتئذ ما أقنع به صاحبى غير رسالة فرنسية كانت وصلت فى الصباح فعرضتها عليه، فما كاد يتم قراءتها حتى اصفر لونه وقال : اهكذا تعيش فى باريس ؟!

ولا أكتمك يا صديقى ان تلك الرسالة كانت تعد – لو صدقت فى الوعد – بليلة سباعية ،لولا انها كانت من إحدى اللواتى عناهن من قال :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا غمزوها بالاكف تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن
عليك شجا فى الصدر حين تبين
وإن هى اعطتك الليان فإنها
لآخر من خلانها ستلين
وإنْ حلفت لا ينقض النأى عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين

فلا تنس حين تبكى مصاب الانسانية فى مصابك أن تذكر أن أخاك يقاسى أضعاف ما تقاسى أنت والانسانية جمعاء!

***

بقى ياصديقى أن أعترف لك فى صراحة وإخلاص أننى أصبحت أحقد اشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة: وهما الأدب والمرأة .

أحقد على الأدب لآنه لا يستقيم له حال إلاّ إذا حمل صاحبه على المخاطرة فى ظلماء الوجود، ولن تجد فى العالم كله أديبا ذا مكانة إلا وله فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت. والقراء الذين يحيا علي حسابهم الأدب وأهله لايؤمنون بوجود الاديب إلا أن رأوا احشاءه تحترق بين السطور . وقد ترى أحيانا ناسا يهاجمون الأديب ويتهمونه بالخروج على التقاليد . وهؤلاء الناس لا يفعلون ذلك حرصا على الأخلاق ، وانما يقعون فى أعراض الادباء حسدا منهم على مارزق النابغون من مواجهة أسرار الحياة.. ولكن ما قيمة ذلك ، وما الذى فيه من العزاء ؟

إن الأديب سيظل - ولو انتصر - كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق .

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم اشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك انها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك .. وهى مع هذا اللؤم شر لابد منه، لأن الحياة

قضت بذلك، وعلي من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا او كارها إلى سلطان تلك الحية النضناض !

وقد فكرت كثيرا فى شر الادب على أهله ، ولكننى لم أستطع الخلاص: لأنه كتب على أن أحيا من مهنة الصحافة ومهنة التدريس. فهل ترانى افلح إذا اقتصرت علي أن احادث قرائى وتلامذتى في فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات ؟!

وكذلك فكرت فى شر المرأة ، ولكننى كذلك لم استطع الخلاص: لأن المرأة شبهت صدقا بالشمس ، فهى تلقانا في كل مكان وليس عن سحرها محيد ..

اضف إلى ذلك يا سيد سباعى ان هنا انسانة فى الحى - الحى اللاتيني لا الحى الحسينى - انسانة من بنات حواء، حواء المذكورة فى التوراة والقرآن ، حواء التي نقلت ابانا ادم الى صفوف المنا كيد واخرجته من عالم الازهار والثمار الى عالم الشطة والفلفل والفول !

فبالله لا تنس اخاك حين تبكى مصاب الانسانية ، لأن اخاك ايضا انسان ، وهو فوق ذلك عاشق وأديب !

زكى مبارك

جواب الأستاذ السباعى
إلى الدكتور زكى مباك

ما وجد صــاد بالحبــال موثق

بمــــاء مــزن بـارد مصفــق

بالريــح لــم يكــدر ولـم يرنق

جادت به أخلاف دجن مطبق

بصخرة إن تر شمسا تبـرق

ماد عليـها كالزجـاج الأزرق

صريح غيث خالص لم يمذق

إلا كوجـدى بـك لــكن اتـقى

يا فاتحــا لــكل باب مغـلق

وصـــيرفيا ناقـــدا للمنــطق

إن قال هــذا بهرج لم ينفـق

إنــا علـى البعــــاد والتفــرق

لنلتقى بالذكر إن لم نلتق

وردت على رســالتك القـيـمـة التى حـاولت فى خـلالـهـا ان تسكن من ثائرة غـضـبى على المجـتـمع المصـرى، وتحـبب إلى الحياة وتزينها فى نظرى.

وفى الحق يا صاحبى إنى على كل تسخطى وتبرمى وصرخاتى لا أعرف عن نفسى إن كنت فى الواقع شقيا أو سعيدا، او محظوظا او منكودا ، وما يدرينى لعلى حين يخيل الى أنى اشد الناس محنة وبلاء أكون فى الحقيقة أشدهم لذة وصفاء، ولا جرم فأولى الناس بأن يكون المنعم المغتبط الفائز بالقسط الأوفر من لذات الحياة هو من كان في طاقته ومقدوره كلما شاء ان يترفع عن سفال ماديات الحياة إلى ملكوت روحانياتها ، وينتقل من عالم الحقيقة المرة القاسية السمجة الى عالم الخيال المملوء بمعسول الاحلام والأمانى، وكان فى كفه مفتاح مملكة السحر وما بها من فراديس الحور وملاعب الجنة.. كل ذلك منطو تحت لواء الفن ومن ميراث أهله واربابه ، وهذا مصداق كلمتك التي رميت بها فى عرض رسالتك اذ قلت لى «ولعلك تدرك تمام الادراك ان الأديب العبقرى يجب أن يكون فى شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون ، فعلى البلبل ان يغرد وليس عليه ان يفتن صم الآذان أو غلف القلوب .

ألا حيا الله الفن والخيال والشعر إنه يترك الفقر اغنى من الغنى ويدع الوحشة اشد إيناسا من الأنس ، وإن هنالك من

نوابغ الفنون وأئمة الاداب من إذا اشتد به البلاء لم يزده إلا غبطة وسروراً . ومن يدوم عليه الفقر حتى يودى بحياته فلا يشعر به ولا يحسه ، فهو فى حلم سرمدى ذهبى فردوسى ، وهو وإن توسد التراب وداسه الناس بأقدامهم ليحس علي شفتيه قبلات الحور العين معطرة نفاحة ، ويعيش فى الفكر والخيال فى حدائق وجنات مسحورة وقصور وصروح مدهشات ، وكنوز مفعمات بنفائس التحف والطرف من ماس الهند وعقيانه ، ولؤلؤ الخليج ومرجانه .

وكأى من شاعر تراه أعين الناس في أسمال وأطمار ، خاوى الوفاض ، بادى الانفاض ، وهو من عالم الخيال فى بحبوحة يحسده عليها ملوك الأرض ولو يفقهونها ولكنهم لا يفقهون ...

كذلك يسير الفنان العبقرى بين الناس ، ظاهره شحاذ وباطنه «مليونير» مثله كالولى الواصل تنظر عيناه الى الباطن فترى العجائب والغرائب ، ويطوف فى مسالك الحياة كالطائف فى حلم، لا يشاهد ما نشاهد ، ولكنه يرى ما قد حرمت علينا رؤيته ، وبعد ذلك فبأى حق نعد انفسنا اعظم منه شأنا وأحسن حالا ، وبأى حق يسوغ لأنفسنا ان نتعطف

عليه بالرثاء والرحمة السنا نحن الأحق برحمته ورثائه : ماذا صنعنا وماذا صنع هو ؟

لقد اخذنا الحياة بأفاتها وعلاتها ... بأقذارها واقذائها، وعرف هو كيف يحول سخف الحياة وسماجتها لذة وطربا، وفتنة عجبا ، ويرد اجاجها نميرا ، وسمها إكسيرا ، وترابها عنبرا، وحصباءها جوهرا، وتنافرها انسجاما وضوضاءها انغاما .

من أجل ذلك قال (أناتول فرانس) لما مات الكاتب الروائي (فيليير دى ليل آدم) ما معناه :

– لقد مات وترك الدنيا غير آسف عليها ، مع أنه لم ينعم قط بأدنى شيء مما يسميه الناس لذاتها وطيباتها . لقد أنشب فيه الفقر مخالبه وشد عليه قبضته فلم يك فى طاقه مخلوق ان يستنقذه من اساره . لقد قضى ثلاثين عاما يغشى حانات الليل ثم يختفى مع أول أشعة الفجر ، لقد طبعه الفقر بطابعه ، ووسمه بميسمه وصبه فى قالبه ، فاصبح كبعض أولئك المتشردين الذين ينامون علي المقاعد العمومية بقوارع الطرق، وكان اصفر اللون لا بريق بعينيه ، مقوس الظهر ، وعلي الرغم من كل ذلك أرانا اليوم فى حيرة من أمره لا

ندرى انكتبه فى سجل الأشقياء أم فى سجل السعداء ، وجدير هو بالحسد منا ام بالرحمة والرثاء. لكأنى بطيف خياله يهبط علينا من عالم الارواح فيقف على إحدى تلك الموائد الملوثة بآثار التبغ والنبيذ فيصب عليها من أعاجيب احلامه ذهبا وجمانا ، وبنفسجا وأرجوانا ثم يميل رأسه ناحية ويخاطبنا بصوت تهتز فى نبراته اوتار الوحى والنبوة قائلا : «معشر الخلان والآخدان اغبطونى ولا ترحمونى فإن من البغى والعدوان ان تأسفوا على المالكين كنوز الجمال والفتنة ، ولقد كنت من أولئك ، لقد ملكت الجمال ولم أك ابصر شيئا سواه، اليس عجيبا أن دنياكم هذه التى ترونها وتعيشون فيها لم تكن موجودة فى شعورى ولا فى نظرى ، وأنى لم اتنزل قط ولم أتسفل الى محاولة مشاهدتها ؟ إنما لى عالم باطنى اعيش فيه واتقلب ، وتظل روحى بين ارجائه الفيح تلهو وتمرح فى جنات تجرى من تحتها الانهار، وقصور من الياقوت والزبرجد .. اقرأوا كتابى المسمى «اكسير» هنالك ترون اثنين من أجمل خلق الله رجلا وامرأة ما برحا يبحثان عن كنز من الذهب حتى وجداه، ولسوء حظهما وجداه، فآنهما ما كادا يحوزانه حتى اسلما نفسهما للموت الزؤام ، إذ علما أنه لا

كنز هنالك يستحق أن يعيش له الانسان فى هذه الدنيا إلا الكنز الروحانى المقدس : كنز الخيال والحكمة والجمال، واعلموا يا رعاكم الله أن الكوخ الحقير الذى كنت اعزف فيه علي اوتار مزهرى المحطم كان فى الحقيقة اجل وافخم من قصر اللوفر (بباريس) الم يقل لنا الفيلسوف الاعظم (آرثر شوبنهور) ما معناه :

«أى قصر مشيد سواء كان الحمراء او الايوان يدانى فى رونق الجمال وأبهة الجلال ذلك الجحر المظلم الذى كتب فيه الروائى الاكبر (سرفنتين) كتابه الخالد «دون كيشوت» ؟

لقد كان «شوبنهور» نفسه يقتنى تمثالا من الذهب للإله «بوذا» ليذكره دائما بأن الثروة الحقيقية هى احتقار الثروة. لقد نلت بقوة خيالى ما لم ينله اعظم ملوك الارض فى الحقيقة لقد تبوأت الأرائك وقدت الكتائب وخلقت لنفسى سيرة كأعجب القصص والاساطير ، وقد بلغ من فرص امتزاج احلامى باليقظة واندماجها فى الحقيقة انه يستحيل فصل إحداها من الأخرى ، سلام عليكم ، لقد عشت افخم العالمين شأنا واعظمهم ابهة وسلطاناً .

عليك رضوان الله أيها الخيال الطائف ! لقد اثرت الروح

على الجسد وانصرفت عن المادة إلى الخيال ، فاخترت الأسنى على الأدنى واصطفيت الطيب على الخبيث ، فليقل الاغنياء والاقوياء ما شاءوا انه لا نعيم أكبر مما يلقاه الذين يضحون فى سبيل حب عظيم، ولقد احببت الفن والفكر فوق كل ماعداهما ، وكان جزاؤك الذ الأضاليل والاوهام وابهج الخدع والأحلام ، والحب العظيم والعشق الخالص قلما يكون مجدبا عقيما إنما يكون مصحوبا بأشهى الثمرات. لقد زين الخيال فراغ روحك السامية وفضاء نفسك المنفردة العظيمة بابدع متحف من الصور والاشباح .

* * *

هنا يقف بى القلم . وفى مجال آخر أخاطبك فى شأن الباريزية التى زعمت انك مولع بها الآن. لا أخلى الله لك مهجة من لوعة ، ولا مقلة من دمعة . والسلام .

حياة العمال فى باريس

يفد الناس على باريس من جميع أقطار العالم فيعجبون لما فيها من القصور الشواهق، والميادين الفيح، والبروج الشوامخ. ويزيد عجبهم كلما توغلوا فى أرجائها فرأوا التماثيل العديدة التى تزخر بها الحدائق والمتاحف والميادين، ويقفون حيارى ذاهلين أمام السكك الحديدية التى تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والشوارع ونهر السين. ويكاد يظن زوار باريس أنها هكذا خُلقت، وأن الباريسيين قوم أنعم الله عليهم بهذه المدينة العجيبة التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد، وكأنه لم يشق فى بنائها ساعد ولم يعرق جبين.

والواقع أن من الباريسيين أنفسهم من لم يفكر لحظة واحدة فى ماضى باريس وحاضر باريس: فالأجانب معذورون إذا فاتهم أن يتأملوا ما تكلفت هذه المدينة الخالدة من المصاعب والمشاق حتى صارت مضرب المثل فى العظمة والجمال.

باريس هذه التى فتنت من فتنت، وأضلّت من أضلّت، وهدت من هدت، مدينة لشعب عظيم هو شعب العمال، وكلمة عامل التى تبدو متواضعة صغيرة هى السر كل السر فى

مجد باريس. وإذا كان فى مصر والشرق من لا يقدر قيمة العامل فمرجع ذلك أن المصريين والشرقيين مضت عليهم أحقاب وهم يعيشون فى ظلال ما ترك الآباء والأجداد. أما الباريسيون فهم يعلمون حق العلم أنهم بنوا مدينتهم بأيديهم، وأن باريس قبل قرنين اثنين لم تكن إلاّ مدينة صغيرة قذرة تزعج النفوس وتقذى العيون، ولولا نابليون الثالث ووزيره البارون هو سمان لما استطاعت باريس أن تستطيل على لندن وبرلين.

العمال فى باريس شعب قائم بذاته، له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة. والذين يعيشون فى باريس عيشة سطحية خالية من التأمل والدرس والتفكير العميق يحسبون أن الباريسيين هم أصحاب المطاعم والقهوات، وطلبة المدارس والمعاهد والكليات، ويظنون أن اللغة التى يقرأون بها الكتب والجرائد والمجلات، ويسمعون بها الخطب والمحاضرات، ويتفاهمون بها فى صالات الرقص ومسارح التمثيل، هى اللغة الفرنسية للشعب كله من جميع الطبقات. وذلك خطأ مبين.

إذا مشيت فى باريس ولمحت رجلا مجعّد الوجه قذر

الثياب وفى يده (بيبه) يتذوق أنفاسها، وعليه أمارات القلق والذهول، وقد أسند ظهره إلى الحائط ينتظر عودة زميله من الحانة حتى يستأنفا جهدهما الشاق الموصول، فاعلم أن هذا إنسان يشاركك فى بعض معاني الحياة، ويخالفك فى أشياء كثيرة جداً أقلها أن فضله عليك أعظم من فضلك عليه، وأنه أعرف بواجبه، وأحرص على درهمه، وأملك لحرفته، وأسلك فى سبل الحياة من كثير من أدعياء اللباقة والكياسة والتدبير.

وإذا ركبت المترو يوم الأحد وجاورك شاب أنيق اللباس، حسن الهندام، مصقول الوجه والعارضين، يتموج شعره فوق رأسه كأنه الجدائل الذهبية، وفى يده سيجارة يداعب أنفاسها من حين إلى حين، وإلى جانبه فتاة هيفاء، كحيلة الطرف، أسيلة الخد مشرقة الجبين، تميل عليه لحظة بعد لحظة فتكاد تحرقه بقبلاتها الملتهبة، والناس من حولهما ينظرون راضين معجبين، إذا رأيت ذلك الشاب الناعم المترف الجميل، فحذار أن تجزم بأنه تلميذ فى مدرسة ثانوية أو طالب فى مدرسة عالية، فقد يكون فى أكثر الأحيان عاملا صغيراً جداً خلى ثياب العمل فى ركن من أركان غرفته، ثم أخذ زينته ليوم الأحد، وخرج يتلمس أسباب الأنس والحظ فى مدينة الجمال.

العمال هم الذين خلقوا باريس. ولكنى أعيذك أيها القارئ أن تظن أن معنى ذلك أنهم نهضوا بمبانيها العظيمة، وشقوا طرقها الواسعة، لاغير، لاتحسب ذلك فأنا أريد أنهم خلقوا باريس في كل معانيها، فهى مدينة لهم فى كل شيء: فالحرية السياسية التى يتمتع بها الشعب الفرنسى كله يرجع الفضل فيها إلى عمال باريس، فهم الذين أشعلوا جميع الثورات بلا استثناء، ولا نعرف فى فرنسا ثورة صغيرة أو كبيرة لم يكن العمال هم الذين شبوا ضرامها وقدموا لها من أنفسهم وأموالهم وعزائمهم ما تتطلب من الوقود. وكانت باريس فى جميع أدوار تاريخها السياسى مصدر النهضات القومية والدستورية، وكان عمال باريس عماد الحركات الثورية جميعها، وكان تأثيرهم يمتد فتهيج لهياجهم ليون ومرسيليا وبوردو، من بين المدن والحواضر الفرنسية.

قلت إن العامل الفرنسى له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة، وأنا أقدر أن من القراء فى مصر من يدهش لذلك، والحقيقة أن العمال الباريسيين لهم أحياء بل مدن خاصة بهم فى ضواحي باريس، ويندر من بينهم من يسكن المدينة بسبب الغلاء الفاحش الذى يهدد

أكثرية السكان، ولهم تقاليدهم، ولهم لغة تكاد تكون مستقلة عن اللغة الفصيحة، والبون شاسع جدا بين لهجات العمال ولهجات الطلبة مثلا، إلى حد أنهم قد لا يستطيعون التفاهم في بعض الأحيان. ونحن نظن فى مصر أن اللغة العامية بعيدة من اللغة الفصيحة، فليفهم من يريد أن يفهم أن لغة الجماهير العاملة فى فرنسا أبعد من لغة الطبقات المستنيرة بعداً هائلاً لا يمكن أن يقارن بما بين اللغة الدارجة واللغة الفصيحة فى مصر من الفروق. وفى مدن الباريسيين أوساط غريبة يدهش المصريون أن يعرفوا أخبارها، فنحن فى مصر لا نسمح لمن يحضر الروايات التمثيلية بأن يتدخل مع الممثلين، بل يغيظنا أن يكرر «آه» أو «الله» ونعد ذلك من ضروب الفضول والانحطاط، ولكنى حضرت فى (بل فيل) إحدى مدن العمال رواية رأيت فيها المتفرجين يشاركون الممثلين فى الغناء كلما مر بالمسرح ما يحمل الممثل على الغناء، ورأيت المتفرجين يستعيدون الممثلين بعض القطع الوجدانية، ويزيدون أحيانا فيقولون للممثل أصبت أو أخطأت، حسبما يقتضى الذوق عند أولئك المتدنين المتوحشين!

ومن جانب الحياة قد يرضى العامل الباريسى بما لا

يرضى به العامل الصعيدى فى مصر: فقد أخبرنى أحد الأساتذة الكبار أن لديه بيانات وافية عن حياة العمال، من بعضها أنه قد يسكن الغرفة الواحدة اثنا عشر شخصا، وهم مع ذلك في صحة جيدة، كما قال، ومنهم من يكتفى بأكلة واحدة لليله ونهاره، ومنهم من لا يعرف أين تكون الحمامات، ومنهم من لا يخلع الثوب حتى يبلى، وهم جميعا مع هذا البؤس يذهبون إلى أعمالهم فى الساعة السادسة صباحا ويعودون فى الثامنة مساء.

ولعل السر في أن العامل الباريسى لا تفنيه الأيام بسرعة مع هذه البأساء أنه من بين عمال العالم كثير الدعابة والمجون: إنه يسخر من كل شىء، ويستهين بكل شىء، وكأس واحدة كافية لأن تذهب بأشجانه وأحزانه وتسلمه إلى الجذل والمرح والجنون. ولا يكاد العمال الباريسيون يلتقون فى مطعم أو حانة حتى يتبادلوا الطرف والنكت فى هزل ساخر جذاب لا يبقى ولا يذر من أسباب اليأس والقنوط. ولو فقد العمال الباريسيون جنونهم لحظة واحدة لأفناهم التعقل والتأمل وقضى عليهم الإدراك. وما أحسب الجنون كان نعمة إلا فى مثل هذه الأحوال، وعند أمثال هؤلاء الناس .

ورجال فرنسا اليوم يعرفون حال العامل الباريسي وبؤسه وشقاءه. ومن أجل هذا أكثروا من المكاتب والمتنزهات فى أحياء العمال، وقد لوحظ أن العمال يقرأون بشرة عظيم، ومنهم من يستعير من مكتبة الحى الذى يقيم به كتابين فى كل يوم. ولوحظ أيضاً أن العمال يقبلون بنوع خاص على المؤلفات العظيمة المحترمة، وقد يكون حالهم أفضل من حال بعض الطلبة المصريين الذين لا يستعيرون من المكاتب العامة غير روايات الهزل والمجون.

وعمال باريس يمتازون بالصبر والجلد والارتياب من الناس: فقد يصعب أن يصل الباحث إلى شيء من مكنونات أنفسهم، ويقل فيهم من يعطى اسمه ولقبه حتى فى بعض الشئون الرسمية. وسر ذلك أنهم يحقدون على الأغنياء وأرباب الأموال. وليس فيهم من يحب عمله إلا العامل الذى تبيح له طبيعة العمل أن يذكى . مواهبه ويعطى شيئاً من نفسه كالنجارة والحدادة وصنع الساعات . أما العامل الذى يقوم بنقل الأحمال والأثقال ، وشق الطرق ، ورصف الميادين ، فهو فى الأغلب رجل مبتئس متبرم بالحياة ، يحمله الضجر على بغض ما تمسه يده ، وتراه عينه ، من مختلف الأشياء .

باريس فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مرسيليا

مرسيليا مدينة عظيمة من كبريات المدن التى شهدت فجر المدينة على البحر الأبيض المتوسط ، ولا يعرف جلالها وعظمتها وكبرياءها غير القادم إليها من البحر ، أما الذى يصل إليها عن طريق البر فلا يكاد يرى من جمالها إلا القليل .

يبحر المسافر من الاسكندرية فيقضى فى البحر أربعة أيام أو خمسة أيام ، تبعاً لاختلاف السفن البخارية فى المقدرة على العبور ، وفى تلك الأيام يكون المسافر قد عرف كل شىء من بأساء الحياة ولينها ، فهى أيام معدودة ولكنها فى طولها أعوام : ففيها بؤس ونعيم ، وسعادة وشقاء . ولعل أغرب ما فيها - بعد قسوة الرياح والأعاصير وما ينتاب المسافرين من مرض البحر المزعج الثقيل الذى أعيا الأطباء - لعل أغرب ما فيها حوادث الحب والوجد والاشتياق وكم لمت شوقى على أن قال :

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

لمته على هذا البيت : لأنه جعل حوادث الحب أشبه بالمناظر السينمائية : تتجمع وتتفرق فى سرعة البرق ، مع أن

الحب كسائر الأمراض له أدوار مختلفة يعالجها المصاب رويداً رويداً إلى أن يعز الشفاء ، فلما عرفت البحر واصطدمت بأيامه ولياله فهمت لأول مرة سنة ١٩٢٧ أن الحب قد يستكمل طفولته وحداثته وشبابه فى أربعة أيام ، وأن اللحظة الواحدة قد تقدر بأعوام ، وأن يوما فى البحر كألف سنة على البر عند من شهدوا الحياتين وعرفوا ما بينهما من شتى الفروق .

البحر مهما طابت أيامه وصفت لياليه سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلف والتوقر فى بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد اللحظات ويسأل نفسه بعد كل غداة وكل عشى : متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقلقه أشد من قلق حندج المرى حين قال :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

والليل قد مزقت عنه السرابيل

والقطع المتناثرة من الجزائر التى تصادفه فى الطريق لا تذهب وحشته إلا قليلا ، ثم تغيب وكأنها لمعات البرق فى الليلة

الظلماء ، ولا يكاد يقترب المسافر من مرسيليا حتى يبعث روحه وتغازله الحياة من جديد ، وفرح المسافر بمرسيليا يشبه فرح كريستوف كولومب حين وقعت عينه بعد اليأس على شواطىء أمريكا فصاح صيحة الجنون : أرض ! أرض !

إي والله ! هذه مرسيليا ! وهذا شاتوديف ! وهذه نوتردام دى لا جارد ؟

ويتجمع المسافرون ، وقد خرجوا من أبراجهم وأقفاصهم ، فلا يزالون ينهبون بأعينهم وأنفسهم أعلام مرسيليا نحو ساعتين كاملتين وهم فى هرج ومرج يستعدون لمصافحة الشاطىء الأمين . وفى تلك اللحظة المرحة يتلفت الرفيق إلى رفيقه ، ويتلفت الفتى إلى الفتاة التى بددت من نفسه ظلمات الوحشة فى سجن البحر ، فيتبادلون التحيات ويقيدون العناوين ويتساءلون متى يكون التلاقى إذا فرقتهم الميناء . كل هذا يجرى تجاه مرسيليا التى لا يعلم إلا الله كم استقبلت من ضيف ، وكم هدت من حائر ، وكم آوت من شريد . ولو نطق الجماد لصاحت تلك الصخور : ادخلوها بسلام آمنين .

* * *

لا يعرف أحد متى أنشئت مرسيليا فهى مدينة قديمة جدا غـابت أيامـهـا الأولى فى ظلمـات التـاريخ . وإنما يعـرف المؤرخون أن الفينيقيين كانوا قد احتلوها منذ نحو خمسة وعشرين قرنا والفينيقيون قوم أسيويون كانوا انجليز زمانهم، جابوا القفار ، وخاضوا البحار وأنشأوا ما أنشأوا من المدن في الشـرق والغـرب ، وكـان لهم فى العـالم القـديم سلطان عظيم. ثم احتلها اليونان بعد ذلك وسادوا فيها نحو ستة قرون ، وكانت اللغة اليونانية لغة المرسيليين مدة طويلة وكانت عادات اليونان وتقاليدهم وثقافتهم هى السائدة هناك .

وقـد اهتم البـاحـثـون طويلا بمعـرفـة مـا بقى من آثار الفينيقيين واليونان فى تلك المدينة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يستحق الذكر . ذلك بأن الفينيقيين كانوا يهتمون أولاً وقبل كل شيء بالتجارة : فلهذا لم يعرف لهم فى تلك المدينة آثار باقية كالآثار التى تتركها الأمم فيما احتلت من البلاد . أما اليونان فأمرهم أعجب لأنهم لم يتركوا في مرسيليا أثراً واحداً من الآثار العجيبة التى عرفت بهم وعرفوا بها منذ أجيال . غير أن الآثار المادية ليست شيئاً بجانب ما تركوا فيها من الآثار الأدبية . وإليك بعض البيان :

لا تزال مرسيليا إلى اليوم محتلة احتلالا اجتماعيا بطوائف كثيرة من الجالية اليونانية ، فالحلاقون مثلا فى مرسيليا كلهم من اليونان ، والصيادون كذلك يونان ، وأكثر البحارة من اليونان ، ولهجة المارسيليين الذين يحترفون المهن التبحرية كالصيد والنقل وعمل السفن تحتوى على كلمات كثيرة ترجع فى أصولها مباشرة إلى اللغة اليونانية ، والأدلاء الذين يهدون المسافرين كلهم يونان ، واللاهون الذين يعينون على بعض حوادث الليل أكثرهم يونان ، وأصحاب الحانات والمقاهى الصغيرة والعظيمة يرجعون إلى أصول يونانية . وعلى الجملة أهل مرسيليا فى عادتهم وتقاليدهم الإجتماعية مصبوغون بصبغة يونانية فى الغالب . ويرجح الباحثون أن ميل المرسيليين إلى اللهو واللعب والاستهتار والإباحة يرجع فى الأصل إلى أنهم ورثوا عن اليونان عبادة اللذات وتقديس الشهوات وتفدية الجمال .

وفد ورث المرسيليون عن اليونان حب المبالغة والمغالاة بنوع خاص . وما كتبه الفرنسيون عن مرسيليا مملوء بالنكت المستطرفة عن مبالغة المرسيليين . وإلى القارىء هذا الشاهد الطريف :

وقف مرسيلى على الشاطىء يتصيد الأسماك ولكن صنارته كانت تجلب إليه أسماكا صغيرة جداً كأطراف الأصابع ، وكان بجانبه مرسيلى آخر يشهد ما يصيد ، فقال له : إن هذه الأسماك ضئيلة وصيدها لا يشعر الصائد بأية لذة .

– الصائد: كيف تقول إنها ضئيلة ، وأنت لو اصطدت مثلها لحسبت نفسك من أسعد الناس .

– المتفرج : أنا ؟ أنا أصطاد هذه الحقائر ؟ هيهات ! ماذا تظن ؟

– الصائد : أنت تصطاد أكبر من هذه ؟ ماذا تصطاد إذن ؟

– المتفرج : أنا أصطاد أسماكا كبيرة جدا ، أنا أصطاد الحوت .

– الصائد : الحوت ! وأى شىء هذا الحوت عندى ، أننى أتخذ الحوت أحيانا «طعما» هل فهمت ؟

مرسيليا أعظم مدينة فرنسية بعد باريس ومع هذا يكاد الفرنسيون يعدونها أجنبية عنهم ، ويتنادرون فيما بينهم بذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه أنت فرنسى أم مرسيلى ! وإذا

أراد بعضهم أن يحقر أحد مواطنيه قال : ماذا تنتظر من رجل نشأ فى مرسيليا ! لأن مرسيليا عندهم مجموعة أو شاب من سائر الأجناس .

واهتمام المرسيليين بالفنون قليل جداً مع أن المدن الفرنسية من أغنى المدن فى هذا الباب ، وليس فيها فيما سمعت حانوت واحد لبيع العاديات ، فهى مدينة اليوم الحاضر والساعة الراهنة ، ولا يهمها الماضى فى شىء .

وأهل مرسيليا كسالى قانعون ، والفرنسيون يعللون ذلك بقربها من الشرق ، لأن الشرق عندهم مهد البطالة والفراغ !

والفرنسيون يحسدون أهل مرسيليا على شىء واحد هو طعام (البوياييس) وقد أكلت منه مرة ، والحمد لله ! وهو طعام خاص يصنع من مختلف الأسماك وله شهرة عظيمة جدا تجلب إليه أصحاب الأذواق ، والمرسيليون يضنون أشد الضن بالبوح بأسرار هذا الطعام ، ولا يساويه فى الشهرة إلا طعام «الكاسيوليه» الذى انفرد به أهل تولوز .

حدثنا مرة أحد الأساتذة الفرنسيين عن طعام البوياييس فقال : «إن الإدام الذى يسرى فيه يشبه خيوط نور القمر !!

– ما أشهى هذا التشبيه البديع ! – وأن الإنسان إذا أكل

البويابيس وخرج وقع أسير الحب لأول امرأة تصادفه فى الطريق !

وهذا صحيح من بعض الوجوه ، فإننى أذكر أننى وجدت طعام البويابيس فى نهاية اللطف ، وليس من المستغرب أن يشبه إدامه بخيوط نور القمر . ولكنى مع ذلك أذكر أنى أكلته ثم تركت مرسيليا خلى القلب ، إلا من ذكراه !

باريس فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الحديث ذو شجون

الصديق

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضى أرسلت إلى صاحب الشورى عنوانى فى باريس، ورجوته أن يحول الجريدة إلى هناك، وفى يوم السفر تلقيت فى الصباح عدداً من الشورى فظننت خطابى لم يصل إلى إدارة الجريدة، أو أنه وصل بعد وضع هذا العدد فى البريد، فلما وصلت إلى باريس فى أوائل يونيه وجدت العدد نفسه قد سبقنى إلى هناك، فعرفت سر المسألة: وهو سر واضح لا يزيد على أن الأستاذ الطاهر أراد أن يودعنى يوم سفرى من مصر الجديدة وأن يستقبلنى يوم قدومى إلى باريس، فهل يتفضل هذا «الصديق» بقبول هذه الكلمة الصادقة كلمة الاعتراف بالجميل من رجل يعرف كيف تكون الصداقة وكيف يكون الأصدقاء ؟

ولعل القارىء يتلفت فيسأل كيف وضعت كلمة «الصديق» بين قوسين؟ والجواب حاضر عتيد، ولكنه، كريه الطعم مر المذاق، ذلك بأن صاحب الشورى كان واسطة العقد فى طائفة من الاصدقاء شاءت سجايا الناس أن يتبددوا، وقضت

أهواؤهم أن تنفصم عرى المودة وأواصر المعروف، وفيهم والله من لا يزيده الإعراض إلا قربا من النفس، واعزازاً على القلب، ومن لو تغيرت الدنيا ومن عليها. وتبدل كل شيء فيها، لبقيت وحدى أحفظ بين سرائر القلب ما كان له من خالص الود وصادق الجميل.

تبدد أولئك الأصدقاء وبقى هذا الأخ المجاهد الذى نرجو أن يبقى وداده ذكرى طيبة لذلك العهد الذى لو بقى من نحب على ما عهدناهم فيه لكان للدنيا عندنا لون غير هذا اللون المتقلب البغيض،

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم

وأن ديوني باقيات كما هيا!

الذين لا يعلون

ذكرت الشورى أن الحكومة المصرية ستقيم ضريح المغفور له سعد باشا على الطراز العربى. ثم قالت: لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعدون من مصر ولا من أوروبا. وكان يكفى أن تقول: لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعلمون.

الواقع أن عدداً ضئيلا من دعاة الوطنية المصرية «لا

يعلمون» ما هى الوطنية. فهم يحسبون أن الفراعنة أقرب إلى مصر من العرب، مع أن قليلا من صدق الحس وسلامة الذوق يكفى للاقتناع بأن مصر الحديثة مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة الاسلامية. وأنه إن صح لأى قطر أن يتبرأ من العرب فلن يصح ذلك لمصر التى لم يكفها أن تستفيد من حضارة العرب، بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها فى كثير من الأقطار، وهى اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد. وما ذلك على الله بعزيز.

وبهذه المناسبة أذكر أننى كثيراً ما ألاقى فى باريس رجالا من الحجاز والشام والعراق وكثيرا ما نتداول الرأى فى انهاض الأمم العربية، فما يروعنى إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها أمة عربية.

والواقع أيضا أن مصر لا «تقول» بأنها أمة عربية، ولكنها «عربية بالفعل» فليت إخواننا فى الشرق العربي لا يطالبوننا بأن «نقول» أننا عرب فإن القول لا يغنى فتيلا. وحسب مصر أن تنهض حقا بإحياء الآداب العربية وأن تكون مكاتبها ومدارسها وجرائدها ومعاهدها وأنديتها مصانع لإيقاظ الروح العربى وميادين لبعث ذلك المجد الدفين.

عودة الجنس اللطيف

الحمد لله والحب! فقد عاد الجنس اللطيف. ومن أين عاد؟ منهزما من حرب البدع الجديدة بدع الأعوام القريبة التى حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز فقد مرت بباريس فترة كانت الفتاة هى الفتى فى كل شىء، فى ترجيل شعره، وتصفيف طرته، وترتيب هندامه. وكان الفتى فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يصنع ليتميز عن الفتاة. وليس فى مقدوره بالطبع أن يلجأ الى الفارق الطبيعى يعلنه ليعرف الناس أنه فتى لا فتاة!

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر، فانفتح باب الأمل أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد فى الجدائل الذهبية - فليس هنا شعر فاحم مع الأسف الشديد - وعاد الجنس اللطيف أيضاً الى إعفاء النهود من الكبس والتجفيف، فعادت الطبيعة ترينا رمان الصدور بجانب تفاح الخدود. وغضت الفتاة فى النظر عن التمادى فى تلك الضلالة العمياء ، ضلالة الرجولة فى جسم الأنوثة، وصارت تمشى وهى ضعيفة الخطو مكسال، فتنقل القلب من مكان الى مكان، وعرفت قيمة الحياء والخفر وتبينت أن سلاحها الحق هو نعومة الضعف لا خشونة القوة، فمضت تتثنى وتتكسر فى رقة دونها أخواط البان.

* * *

كانت مشكلة الأمس هي مشكلة الشعراء الذين حرمتهم المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال، وقد فضت هذه المشكلة والحمد لله، ووجد الشعراء أماكن القول. أما مشكلة اليوم فهي مشكلة الحلاقين، فقد زاد هؤلاء زيادة غير معقولة بسبب إقبال النساء والبنات على قص الشعر، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص، فمن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم؟ هذه هي المشكلة، أو تلك هي النقطة، كما يقول لافونتين. ولكن لا خوف، فالله عز شأنه يقول «وما من دابة في الأرض. إلا على الله رزقها - وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم»!

ليلة على شاطئ المانش

أخي الأستاذ أنيس ميخائيل

أكتب إليك هذه الرسالة من «روان» مدينة الماضي والأحلام والفن الجميل، ولعلك تسأل كيف هويت إلى هذه البلاد. وإني لمخبرك بأني ضجرت من باريس، وفكرت في اختبار الأقاليم الفرنسية، لأرى كيف يعيش أهالي الريف. وأرشدني أحد أصدقائي الفرنسيين إلى نورمنديا، أغنى الأقطار الفرنسية وأقربها إلى سحر الطبيعة، وأحفلها بالغابات والحدائق والبساتين. وهي سياحة فنية خالصة لا يشوبها إلا غرض واحد، ولكنه غرض علمي، هو زيارة المسيو ديمومبين في هوتو، وقد رأيت أن أمضي أولا إلى الهافر ثم أعود منها إلى روان. ولا تسأل كيف كان جمال الطريق: فقد تأنقت الطبيعة تأنقا لا مثيل له في هندمة نورمنديا وتتويج حزونها وسهولها ووديانها بكل رائع شائق من الأزهار والأشجار وخمائل الكروم: ففي كل واد، وفي كل نجد، وفي كل سهل، ترى المنازل الريفية الصغيرة منثورة في سحر وروعة كأنها أمانٍ مجسمة تركت مهادها من القلوب واحتلت بساط الخضراء، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار رأيت

الأهالى ناعمين وادعين ومن حولهم مواشيهم وأطيارهم وما جمعوا من طيب المحصول. وقد عرفت بهذه السياحة النورمندية كيف اتفق لبرناردين دى سان بيير أن يكون شاعر الطبيعة، وأن تزاحم مؤلفاته مؤلفات جان جاك روسو، فإن لمناظر الوطن الأول وذكرياته أثراً قويا فى تكوين العقل والحس والخيال .

لقد طال بى الطريق ووصلت الهافر عند غروب الشمس، وكان أول ما فكرت فيه أن أبدأ بتناول العشاء، وكنت سمعت أن أهالى نورماندیا يمتازون بالبراعة فى طهى الطعام، ومع أنى قليل الاهتمام بهذه الشئون المادية قد تعلمت من الفرنسيين كيف أتأنق فى تخير طعامى وشرابى، فالقوم هنا لا يرون فى الطعام والشراب ما نراه فى مصر من أنه للإنسان كالبنزين للسيارة يتخذ لوجهة نفعية صرفة لا أثر فيها للذوق. كلا، وإنما تمضى المطاعم والمشارب على أنها شئون ذوقية روحية يتدخل فى تكوينها الفن والذوق والإحساس. وكلمة Cuisine لها عندهم مدلول قلما نفهمه فى الشرق عندما تذكر كلمة (طبيخ) التى تثير السخرية كلما جرت على اللسان. واسمح لى بهذه المناسبة أن أصارحك

بأنى كتبت لجريدة المساء مقالا عن أحمد بن يوسف المصرى فلما ذكرت مؤلفاته لم أشأ أن أشير إلى كتابه فى (الطبيخ) فراراً من سخرية القراء، ولا مانع أيضاً من أن أصارحك بأن الأقدمين كانوا يقولون: «قل لى من تصاحب أقل لك من أنت» وعبارة أهل هذا الزمان فى أوربا: «قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت» لأن أثر الطعام فى تكوين العقل والحس والذوق أعمق من أثر الرفيق والعشير، وإنى لأرجو أن تصل إليك هذه الرسالة فى لحظة تكون فيها «مفتوح الشهية» حتى تتذوق ما أقول!

كانت أكلة لذيذة فى مطعم المحطة بالهافر، مضيت من بعدها أبحث عن مأوى فى أحد الفنادق، ولكن كيف والفنادق قليلة وليس فيها مكان واحد غير مشغول، لقد قضيت ساعتين كاملتين أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى، وأبيت فيه، ولكنى لم أجد شيئاً، فرأيت آخر الأمر أن ألجأ الى البوليس أسأله كيف ينام الغريب فى ليلة مطيرة باردة على شاطىء المحيط. فأسرع البوليس الى التليفون وأخذ يستعلم من جميع الفنادق عن غرفة أى غرفة يقضى فيها أحد القادمين سواد الليل،

فأجيب بأن الفنادق كلها مشغولة وقد يرجى أن توجد أماكن خالية غداً أو بعد غد إن كان هذا القادم من الصابرين. وهذا الصبر ياصديقى شىء يتواصى به الناس ولكنهم لا يعرفونه. وكيف يصبر من قضى نهاره فى السفر على قضاء الليل هائما يتنقل من مشرب إلى مشرب ومن ناد إلى ناد! وقفت قليلا أتدبر أمرى فى مثل هذه الأزمة المفاجئة التى لا تمر ببال من يقدم إلى ثغر من الثغور الأوربية ثم رأيت أن أضع حقيبة السفر فى مكتب الأمانات بالمحطة، وأن أعود إلى المدينة أقضى فيها الليل ساهراً على أى حال.

ولكن هذا الإخفاق لم يمنعنى من المحاولة، والمرء يعجز لا المحالة، فأخذت أسأل الناس فى طريقى عن منزل آوى إليه فساقتنى المصادفة إلى سيدة عوان فقلت: هل من مأوى يامدام؟ فأجابت: عندى إن شئت ! فقلت: بكم؟ فأجابت: (المبيت وكل شىء بمائة فرنك) فأطرقت استحياءً وقلت فى نفسى: المبيت مفهوم. لكن (كل شىء) هذا ما معناه؟

إن كل شىء اسم لمجلة مصرية، ولكن يظهر أنه هنا اسم لشىء آخر معلوم! ثم رفعت بصرى إليها وقلت: المبيت فقط يامدام، والله الغنى عن كل شىء! فقالت: من أين قدمت؟ قلت

من باريس. فقالت: ولكن مع هذا يظهر أنك أجنبى عبيط! فقلت: تشتمينني في بلدكم! الله يسامحك يامدام! وخليتها وانصرفت.

وبعد لحظات رأيت سيدة تتوجه إلى جماعة في قهوة وتقول: إن سألكم سائل عن مكان للنوم فأرسلوه إلينا فان لدينا غرفة خالية. فتقدمت إليها وقلت: أنا ذلك السائل المنشود! فأجابت على الرحب والسعة. ومضيت معها بقلب فرح طروب. ولم أكد أدخل تلك الغرفة حتى تقدمت إلى فتاة تسأل إن كنت أشكو البرد وأحتاج إلى وقود. فتلفت فإذا فتاة هيفاء ، ساحرة الطرف أسيلة الخد، واضحة الجبين، لا أذكر أنى رأيت مثلها في باريس . فاندفعت في طيش ونزق أقيدها بأسباب الحديث. وقلت: أنت نورمندية يامدموازيل؟ فأجابت: لا، ولكنى بريتانية. فقلت: ياللشرف؟ أنت إذن بلدية إرنست رينان؟ فقالت ومن هو إرنست رينان؟ فقلت: الفليسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم، وكتاب حياة المسيح. فقالت لا أعرفه. قلت: عجبا، إن الشيخ بخيت يعرفه وقد نقض فلسفته في محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤، فقالت: ومن الشيخ بخيت؟ فقلت: تجهلين هذا أيضا؟ هذا فيلسوف

عظيم، وهو صاحب كتاب (منحة العبيد فى علم التوحيد). وكتاب...

ولم أكد أصل الى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس يدق دقا عنيفا متواليا وإذا ربة المنزل تصيح: مارى ! انزلى، مارى! انزلى، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول.. ونزلت الفتاة مسرعة، وعرفت أن ربة المنزل لئيمة، وأنها أبخل وأضن وأحقد من أن تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء. فأسررتها فى نفسى وأقسمت لأتركنّ هذه الغرفة لتصفر فيها تلك العجوز الشمطاء.. ثم خرجت متعللا بأن الغرفة لا توافقنى لأنها تطل على الفناء، وكنت أحسبها تشرف على الميدان.

ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القرب بحيث لا تغنى فى دفعه المطرية - ولا أقول الشمسية - لأنا هنا نتقى بها المطر لا الشمس! إلى أين يذهب الغريب فى هذه المدينة الموحشة وقد انتصف الليل أو كاد!

إلى شاطىء المانش لأرى ما يفعل ذلك الأهوج المجنون بالسفن. ولا تستكثر هذا الوصف فإن الذى لا يرى المانش لا يعرف كيف يكون جنون البحر وهوج الرياح، وإن السفن

لتكاد تتحطم على الشاطىء من قسوة الأمواج. ولا تسأل كيف قاسيت فى تلك الليلة، فإنى لا أذكر أنى قضيت ليلة أطيب منها ولا آنس ولا أروح فى حياتى ، وقد عذرت عشاق الطبيعة الصاخبة وعرفت كيف يكون طعم الحياة فى مواجهة الأخطار، وعرفت الى أى مدى يجنى المترفون على أنفسهم حين يأبون إلا أن يعيشوا فى كنف الطمأنينة والهدوء.

وشد ما كان صدرى يثور بالنشوة والطرب كلما تصورت أن الحياة أتاحت لى أن أعيش ليلة على النمط الذى كان يعيش عليه شعراء الإغريق! وكم خاطر شعرى طاف بقلبى! وكم أمنية عذبة مرت بالنفس وكادت تحملنى على أن أتحول الى بحار يبحث عن أسباب رزقه فى مصاحبة ذلك العباب المجهول!

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً نزلت الى اليم أنظر ما يفعل الصيادون. وهم هناك مئات بين رجال ونساء وصبية وكهول يجمعون ما تسمح به الشواطىء من مختلف الأسماك. وساعة واحدة بين أولئك القوم تشعرك بجمال النشاط والسعى فى طلب الرزق الحلال، وحياتهم كذلك صورة صادقة للإنسان القديم. فقد تغير كل شىء إلا هذا النمط من استغلال

شواطىء البحار. فأى شىء هذه الحياة الوادعة التى نحياها فى سجن ما أبدعت المدنية من ألوان التقاليد؟ وأين نحن من ذلك المرح اللاجب الذى يحيا فى ظلاله من يعيشون على سواعدهم من شياطين الصيد. لقد ظللت فى هذه النزهة الطبيعية إلى مطلع الشمس، ثم عدت إلى المدينة فوجدتها لا تزال أمامى أضيق من سم الخياط، فأخذت القطار إلى روان.

١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

اختيال الطاووس
خواطر عن عالم الطير وعالم الحيوان

ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأنى لم أر الطاووس وهو ينشر جناحيه زهوا واختيالا إلا منذ يومين. وللقراء أن يسألوا أنفسهم متى رأوا مثل هذا المنظر الأخاذ بالأبصار والقلوب، فقد يكون فيهم ألوف لم يشهدوا الطاووس وهو يزهو ويختال.

ولقد أحيا فى نفسى ذلك المشهد حسرة قديمة طالما غزتنى بصنوف الآلام لتقصيرى فى دراسة الطير والحيوان. ثم سكنت قليلا حين تذكرت أننى لم تفتنى دراسة الحيوان جملة واحدة: فقد اهتممت كثيرا بدراسة الحيوان الناطق الذى اسمه إنسان! وانى لأعلم عن ذلك الحيوان الذى يمشى على أربع وهو طفل، وعلى اثنتين وهو شاب، وعلى ثلاث وهو كهل، ما يندر أن يعرفه باحث سواى. فقد عرفت من أشتات الأصحاب والألاف والزملاء والجيران والمنافسين والحاقدين والخصوم والأعداء ما يكفى فى مادته لوضع كتاب فى خمسين مجلدا أو يزيد.

على أن الأدب الذى شغلت بدرسه وقضيت فيه أنفس أعوام شبابى ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان

الناطق وأحلامه وتصوراته ، وكيف يحب وكيف يحقد، وكيف يخطىء وكيف يصيب. وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدساسين والكائدين واللئام فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان وطبائعه ونحائزه وميوله وأطماعه. ويظهر أن الله جلت قدرته قد شاء أن أكون على شىء من العلم بطبائع النوع الناطق من الحيوان: فأنا أستطيع أن أقرأ خواطر الناس فى وجوههم وعيونهم، وأستطيع أن أفهم ما يضمرونه حتى عن أنفسهم، وما يدسونه بين السطور وفى ثنايا الحروف. وإنى لأجد فى درس بنى آدم لذة لا تعدلها لذة، لأنهم قد يكونون أرقى أنواع الحيوان، فإن لم يكونوا أرقى فهم على الأقل يحسنون النفاق، والنفاق دليل الانحطاط ولكنه فى الوقت نفسه دليل الذكاء.

وأى لذة أطيب وأشهى من أن ينافقنا إنسان وهو يحسب أنه أتقن دور الخداع. ثم ينصرف فى اختيال الظافر فى حين أننا فهمناه، وعرفنا ماكان من أمره وما سيكون !

على أنه ما الذى يفتننا ونحن ندرس الطير والحيوان؟

أليس مرجع تلك الفتنة العلمية ما نجده من الشمائل الإنسانية فى عالم الطير وعالم الحيوان؟

ما الذى يروقنا من البلبل؟

انه لا يروقنا منه إلا مظهر واحد هو قدرته على التلوين والتنويع فى أغاريده بحيث يمكن أن يقال إنه فنان. فهو لا يسجع اتفاقا وعلى وتيرة واحدة كما هو شأن الطير المغرد، ولكنه يفتنّ افتنانا شائقا ويتنقل من لحن إلى لحن، ومن صوت إلى صوت، وهو فى ذلك كله يملك من أمره ما يملك الإنسان ذو الصوت الحنون.

وهناك حيوانات يفتننا درسها أشد الفتنة، وهى الحيوانات الماكرة الخبيثة التى تذكر بإخواننا بنى آدم، عفا الله عنهم! فهل رأيت الدب ياحضرات القراء؟

أما أنا فقد تشرفت بمقابلته اليوم وأنا أستعد لكتابة هذا المقال، وأغرب ما راقنى منه أنه يبسط كفه من بين قضبان الحديد يلتمس بر الزائرين الذين عودوه قطع السكر والخبز والفطير، وتظهر على وجهه أمارات القلق والحيرة والعتب كلما أخلفه الناس ما عودوه. وقد انتظر طويلا فى صباح هذا اليوم عطف المتفرجين. ولكنه لم يفز بطائل، فمضى إلى الحوض يستحم! وهنا أحدثكم أنه كان يضع رأسه تحت صنابير الماء ثم يمدّ يديه فيمسح شعره ووجهه وأنفه بطريقة إنسانية

محضة كادت تحملنى على الاقتناع بأنه آدمى ممسوخ!

وقد تحدثت مع صديق لى عن هذا الدب الألوف الذي يخطب وداد الناس فقال: ألوف؟ احذر أن تتوهم ذلك، فقد قتل اثنين من الجنود فى العام الفارط. فقلت: كيف ؟ فأجاب: سقط من أحدهما شىء فى هذه الحفيرة، ونزل يلتمسه فهجم عليه الدب وافترسه، ونزل رفيقه لإنقاذه ولكنه لم يسلم من مخالبه.. وكانت لحظة فكرت فيها في هذا الدب الخائن الذى يبسط كفيه فى ذلة يلتمس الطعام من أيدى الآدميين ، حتى إذا كانوا عنده جزاهم شر الجزاء! أليست هذه شمائل إنسانية؟ قولوا الحق أيها القراء. فكم ناس وفينا لهم وفديناهم بأنفسنا سراً وعلانية، ثم كان مثلهم معنا مثل الدب مع الجندى المنكود!

وقد شغل العلماء أنفسهم بدرس القرابة بين الإنسان والقرد، ومثل هذا الدرس جدير بأن يقدم للباحث أمتع اللذات، ففى الحق أن القرد يملك كثيرا من الشمائل والغرائز الإنسانية، وتكوين وجهه وحاجبيه وعينيه مما يقوى الشبهة فى أن الإنسان قرد تطور إلى الرقى، أو أن القرد إنسان تطور إلى الانحطاط.

وإنى لأذكر أن أحد الأصدقاء من أساتذة كلية العلوم فى باريس حدثنى مرة أنه لاحظ فى إحدى سياحاته بالأصقاع الإفريقية أن طائفة من القرود تنتظر شروق الشمس بما يشبه صلاة الصبح عند الإنسان: وذلك أنها تقف وأيديها مرفوعة إلى السماء بما يشبه القنوت .

أذكر هذا، وأذكر بجانبه أننا لا نعرف أشياء كثيرة عن الصلة بين القرد والإنسان، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن اهتمامنا بدراسة القرود مرجعه إلى ما ندهش له من شمائلها الإنسانية، وخاصة حين تتناول الطعام والشراب.

وهناك عالم الطير، ذلك العالم العجيب الذى ملك أقطار الهواء.

ومن ذا الذى ينكر أننا حين ندرس الطير إنما نبحث عما بيننا وبينه من المشابهات والمقاربات، ألم تجر الأمثال فى جميع اللغات بما يمثل غرائز الطير تمثيلا يقربها كل التقريب من طبائع الناس؟

ألسنا نستأنس حين نرى طبائعنا مصورة فى نحائز الطير: فهذا طائر جارح ينتزع غذاءه وهو يصول، وذلك طائر وديع يطلب غذاءه فى رفق واحتيال، وتلك أسراب تغدو

خماصا وتروح بطانا حيث يرزقها الله كما يفعل فريق من المتوكلين.

تلكم أيها القراء خواطر علت بها نفسى حين رأيت قصورى عن فهم عالم الطير والحيوان، فالإنسان فى رأيى هو مجموعة كاملة لشتى المخلوقات، وأنا قد عرفت الإنسان وفهمت غرائزه وميوله وسجاياه. وما قيمة القلم إن لم نستطع الدفاع عن جهلنا بما فى هذا الوجود من طير أو حيوان أو نبات أو جماد؟ لقد فتحت الباب على مصراعيه لمن يريدون أن يخدعوا أنفسهم ليقنعوا بوهم الظن حين يفوتهم علم اليقين!

وأعود فأتكلم عن الطاووس الذى حملنى على كتابة هذا المقال.

الطاووس طائر ذو جناحين، ولكنه لا يستطيع النهوض لأن ريشه عبء ثقيل. وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال. وهو الطائر الوحيد الذى رأيته فى حديقة النباتات فى باريس يتعفف عن هدايا الزائرين ، فقد تُلقى إليه قطع الحلوى فيتعامى عنها فى أنفة وكبرياء.

وريش الطاووس مشهور بالحسن، ويكاد صدره يفعل بالناظرين ما تفعل الصهباء بالألباب، وليس شىء يجل عن

الوصف بقدر ما يجل صدر الطاووس. والناظر الذي ألف ذوقه أن يقتات من الحسن لا يدرى كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله لذلك الطائر العزوف.

ولقد طال ارتيادى لوادى الطير فى حديقة النباتات، وكان الطاووس فى كل مرة هو أفتن ما أرى، ولكن كان يضايقنى منه شيء واحد هو تعقله. والتعقل هو أشد ما يؤذينا من أهل الجمال .

غير أنى دهشت فى الزورة الأخيرة: فقد رأيت الطواويس كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع. ولأول مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه وكيف يفهم أنه من أجمل المخلوقات.. رأيته وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب، وفى هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله، وأنه بذلك مفتون.

وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يسمع لها صرير يشبه حفيف الريح بين الأوراق. وأقول يشبه فقط: لأن تلك الرعشة الكهربائية التى يقوم بها الطاووس تعرض على الناظرين ألواناً فتانة من ريشه الجميل. وهذا الجانب من زهو

الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل، ولا يدرك قيمته إلا من يراه. ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها فى تواتر وانجذاب ، إذ يقولون: ما أجمله! ما أجمله!

الطاووس طائر رقيق الذوق، وله عواطف وأهواء، وهو فى عالم الطير يشبه الشاعر فى عالم الإنسان.

وليس للطاووس قلم يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق من الكتاب والشعراء ، وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما يفعل الموفقون من أهل الفنون، ولكنه يملك تلك الرعشة الكهربائية حين يبسط جناحيه: فهو يتقرب بها إلى من يهوى فى عالم الطواويس.

فياليت شعرى وقد فهم كيف يكون الغزل، أهو أيضا يفهم كيف يكون الأسى وكيف يكون الأنين؟ وهل كتب عليه يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوبا عند بعض الأسراب؟

إنى لأحنو على الطاووس أيها القراء، فهو فيما رأيت يعنى نفسه فى نشر محاسنه، وتظهر فى سيماه علائم القلق فى سبيل الوصل. فإن كان هو أيضا يخفق كما يخفق بعض الناس فليست الدنيا إذاً إلا دار شقاء للجميع!

بك بعض مابى أيها الطائر الجميل، وليس لدىّ بعض ما

لديك من آيات الحسن والإشراق.

أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق، وأنا أملك ذلك القلم الأسود المقصوف. فيا بعد ما بينى وبينك حين تقوم النفائس والأعلاق!

كلانا غريب فى هذا الديار، ولكن الحسان تسعى إليك أسراباً أسراباً فى الضحى والأصيل، أما أنا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب، ومن بستان إلى بستان، ثم أعود وليس لدى ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقال المعذبون من شعراء الوجدان.

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد!

أول ابريل سنة ١٩٣١

يوميات عيد الحرية فى باريس

كيف تدعى الأمم إلى الجهاد – المراقص العمومية – أساس الأخلاق – جنود الجزائر – حفلة الألعاب النارية على شواطىء السين – الأمل فى خلاص وادى النيل.

١٢ يوليه سنة ١٩٣٠

لقد شهدت مقدمات عيد الحرية: ففى كل شارع وفى كل ميدان وفى كل مورد من موارد اللهو والقصف تقام شعائر الفرح وبشائر الابتهاج، وقد أعدّت المراقص العمومية فى الشوارع وفي الميادين، وأخذ الناس يرقصون، ولكن لم أشهد فى المراقص غير الأطفال، فكلما صدحت موسيقى الرقص انطلق الصغار كأسراب القطا يرقصون رقصا ينقصه الفن ولكنه فى سذاجته جميل جذاب، ولعلهم كانوا يعجبون كيف خلا الميدان من المنافسين الأشدّاء الذين يعرفون كيف تكون المخاصرة، وكيف يضم الصدر إلى الصدر والساق إلى الساق، ومثلهم فى ذلك مثل الأطفال فى مصر تقام أمامهم الأعلام والأقواس فى الموالد العمومية، فيذهبون فرحين مستبشرين ثم يرون المولد خلواً مقفراً إلا من وثباتهم المرحة وجذلهم الفياض، ولو فهموا لعرفوا أن الكبار يشغلهم المولد

بأشياء أخرى، فهذا تاجر ينظم عرائس الحلوى وذلك مهرّج يعد الألعاب والصواريخ وهذا شيخ يفكر فى استقبال . مريديه وزائريه، وتلك سيدة «تبين وتدق الودع» وتكون الخلاصة أن الموالد فرصة تجارية عند الكبار، والصغار لا يفهمون ذلك، فهم يعجبون كيف يلعبون وحدهم من دون الناس!

وقد رأيت أن أختبر شعور الباريسيين نحو ١٤ يوليه فعجبت إذ رأيت كثيرا منهم لا يأبهون له، ولا يحفلون بقدومه فتذكرت الحكمة العربية التى تقول: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يبصره إلا المرضى» وكذلك يمكن أن نقول: «الحرية تاج على رؤوس الأحرار لا يبصره إلا المستعبَدون» فنحن الشرقيين الذين كتب علينا أن نعانى أهوال الظلم والاستبداد ننظر إلى عيد ١٤ يوليه نظراً يختلف أشد الاختلاف عن نظر الفرنسيين الذين طال عهدهم بالحرية، وألفوا استعباد الشعوب.

قال قائل منهم: ما الفرق بين ١٤ يوليه و١٤ يونيه؟ انهما سواء ! وكتب أحد الصحفيين يقول: لقد أحسن محافظ المدينة فى إعلان إباحة الرقص العام ثلاثة أيام. فإننا سنرقص

وسنرقص لننسى في ساحات الرقص أثقال الضرائب!!

أما أنا فقد أعطتنى هذه الشواهد فرصة للتفكير. وقد وصلت إلى أن معانى الوطنية والقومية تحتاج إلى وقود: فالشعب الذى يعانى أزمة اقتصادية أو اجتماعية غير مستعد للتصفيق والهتاف لحادث تاريخى مرت عليه أجيال، فمن شاء أن يحرك الشعب فليرفع عنه عبئاً ضاقت بحمله كواهله، وليفتح أمامه بابا من أبواب الرجاء، والرجل الذى لا يجد ما يشبع أمعاءه لا يهتز لما يغذى عواطفه. وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأساتذة قال لى مرة: لقد كان غذاء الجنود فى الحرب الأخيرة أجمل غذاء شهده الشعب الفرنسى، فكان الجندى يجد من أنواع الشراب والطعام وأسباب اللهو والمجون ما يحبب إليه البقاء فى الميدان.

وكذلك كان الإنسان كتلة من الأعصاب والحواس قبل أن يكون صاحب رأى أو مذهب أو عاطفة أو إحساس. ولست فى هذا ممن يقدمون الغرائز الحيوانية على المعانى الإنسانية. ولكنى أحاول كشف الحقائق في صورها الواقعية. ليعلم من لا يعلم أن الوطنية الباقية هى التى تبنى على أساس المنافع والمصالح المادية. فالشعب الذى تدعوه إلى الدفاع عن الحرية

لأنها فقط معنى نبيل لا يصبر طويلا على الجلاد والكفاح فى تأييد المعانى الصرفة، أما الشعب الذى تفهمه وتصل إلى إقناعه بأن الحرية غرض مادى صرف وأنه ينبغى أن يكون سيد نفسه وأن يفتح أمامه أبواب الرزق والغنى. فإنه يستبسل ويستميت لأنه يسعى إلى عمل محسوس ملموس، فمن كان فى ريب من ذلك فليذكر كيف ساد المسلمون يوم كانوا يسعون لفتح ممالك الأرض وجنى ما فيها من الخيرات والثمرات، فلما شغلوا بالتصوف ورياضة النفس على الزهد خملوا وضعفوا وضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

فى ١٣ يوليه

ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر اليوم تغير الحال فى باريس ونشط الجمهور للتمتع بعيد الحرية، وكانت موسيقى الرقص تصدح فى كل مكان، وهى موسيقى لها جاذبية خاصة يرقص الناس عند سماعها من حيث لا يشعرون. فلما جاءت الساعة السادسة انصرف الناس إلى منازلهم يطلبون

العشاء، وكنت على موعد من صديق فرنسى، فتعشينا معا وحضرنا رواية هزلية تمثل خيانة الأزواج وخرجنا قبل منتصف الليل نشهد المراقص العمومية.

فإن كان القارئ المصرى لا يعرف ما هى المراقص العمومية التى تسمح بها الحكومات الأوروبية فى أعيادها القومية فلنذكر له أنها مراقص تقام فى الشوارع والميادين، ولها حرمة كبيرة لا تقل عن حرمة الصلاة عند المؤمنين. فإذا صدحت الموسيقى وتخاصر الراقصون كان حتما على مركبات الترام والاوتوبيس والسيارات أن تقف فى خشوع حتى يتم الدور، فإذا تم تحركت خطوط المواصلات لحظة قصيرة ثم يستأنف الرقص فيخشع كل ما فى الوجود. ومن مزايا المراقص العمومية أنه لايشترط تعارف سابق لمن تراقصها من الفتيات: فلك أن تهجم متى شئت لتخاصر من تشاء من ناعسات الجفون، ولا عيب فى هذه المراقص إلا أن الرجال أحيانا يكونون أقل عددا من النساء فترى مع الأسف الشديد فتاتين تتراقصان، مع أن الرقص كالحب يحتاج إلى رجال وحبال! وهذا يذكر بما نراه فى بعض مراقص القاهرة حين يكون النساء أقل عددا من الرجال

فنشهد رجلين يتراقصان، والجمع بين النظيرين جميل إلا فى هذه الأحوال!

طفنا كثيرا حول المراقص وكان أبدع مرقص شهدته فى ميدان السوربون. كان الراقصون والراقصات يعدون بالمئات، وكانوا يرقصون فى زحام شديد جدا تنقل فيه الخطوات ببطء شديد. كان هذا يجرى أمام الجامعة حيث كان تمثال أوجست كونت محور المرقص. ولا موجب للتفكير فيما يمر بذكرى ذلك الفيلسوف العظيم، فهو أيضا بلا جدال قد أغرق شبابه فى لجة الفتون، فمن العدل أن يغض الطرف فى عالم الأبدية عن ألعاب الجيل الجديد.

أتريدون الحق أيها القراء؟ أنا والله فى حيرة مما أشهد فى أعياد باريس، هذا الرقص العام هادم لصروح الأخلاق ولكن الناس هنا لا يلتفتون إلى ذلك. أفتكون الأخلاق أمورا نسبية؟ أو تكون كالنباتات لها أقاليم ولها أجواء: فبعض الأخلاق ينمو فى مصر، وبعضها ينمو فى الشام، وبعضها يتحول لونه وطعمه إذا نقل من أرض إلى أرض؟

«ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»

فى ١٤ يوليه

ماذا رأيت فى يومى هذا؟ ستمر الأعوام ولا أنسى

لقد شهدت استعراض الجيش، ورأيت رئيس الجمهورية الفرنسية وبجانبه سلطان مراكش، وباى تونس ، وشقيق امبراطور اليابان: فرأيت كيف تكون عظمة الأمم التى قدر لها أن تملك وتسيطر وتسود.

وكان من أهم المناظر التى طرب لها أهل باريس استعراض فرق الجزائر التى قدمت فى لباسها العسكرى القديم الذى كان معروفا منذ مائة عام حين فتح الجزائر بمناسبة العيد المئوى لذلك الفتح المشئوم.

مرت تلك الفرقة الجزائرية بين الهتاف والتصفيق!

أما أنا فدارت بى الأرض، وأظلم فى وجهى الفضاء وغلبنى الدمع.

ويلاه! هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء. ملكتهم هذه الدولة العاتية فمزقت شملهم، وفرقت جمعهم وأذاقتهم حلاوة الترف واللين فعادوا نبتا يؤكل بعد أن كان فتاهم يقول.

وكم عاجم عودى تكسر نابه

إذا لان عيدان اللئام وخاروا

ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوحوا بإشارة الرضا ازددت حسرة إلى حسرة ودمدمت.

يقضى على المرء فى أيام محنته

حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

كان أولئك الجنود يخطرون بخيولهم على شاطىء السين وهم صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا وأذلوها فى القرون الوسطى أشنع إذلال، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير. كانت خطواتهم يومئذ خطوات عزة وكبرياء، واستطاع شاعرهم أن يقول.

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا

أرضا ترب الشيخ والقيصوما

فى الساعة الثالثة من صباح ١٥ يوليه

لقد نجوت بحمد الله من شر هذه الليلة فعدت سليم الجيب والعرض ، ولم أزعج الكرام الكاتبين بكثير من الذنوب.

كانت الألعاب النارية على شواطئ السين تجمع إلى جمالها أكثر سكان باريس وكان فرح الجمهور فوق كل تقدير.

وكان للحب وللشيطان نصيب عظيم. استغرقت الألعاب النارية أربعين دقيقة مرت كأنها ثانية واحدة. ولم يحشر الله جيوش الحسن والجمال والملاحة والرشاقة فى أى بقعة كما حشرها فى هذه البقاع السعيدة شواطئ السين.

وقد قضيت نحو ساعة فى اختراق المسافة من القنطرة الجديدة إلى قصر المدينة وهى تقضى عادة فى خمس دقائق . ولكن ازدحام الناس والسيارات أطال الطريق.

قضيت أربع ساعات هائما بين اللاهين واللاهيات واللاعبين واللاعبات فى ميادين باريس. ثم عدت إلى المنزل وحدى فى ليلة لا يبيت فيها وحده إلا كل صبور، والنفس قد تطغى فتكون على صاحبها أشد خطرا من حكام الباستيل. وقديما كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول عند الرجوع من الحرب «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر جهاد النفس» أفأستطيع أن أهنئ نفسى بهذا النصر المبين؟ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أما بعد فهذه هى المرة الرابعة التى أشهد فيها عيد الحرية فى باريس، فهل يقدر لى أن أشهد عيد الحرية الكاملة على ضفاف النيل! لن يبعد هذا الأمل وفى مصر رجال.

عيد الملاح فى باريس

شهدت اليوم عيد الملاح وهو عيد تأخر عن موعده في هذا العام انتظارا لصفاء الجو، وهو فى الاصل عيد دينى، ثم تحول إلى عيد دنيوى، لأن الدنيا غلبت الدين فى جميع البقاع، وتكاد أعياد العالم كله ترجع إلى أصول دينية ثم تحولت مع الزمن إلى أعياد دنيوية فإن الإنسان فيما يظهر يؤثر العاجلة على الآجلة، ولا يدرك كيف يصح التفريط فى الرغد الحاضر استبقاء لما وعد به من نعيم مجهول. ولسنا بهذا ندعو إلى إيثار الدنيا على الدين ، ولكننا نثبت هذه الملاحظة لنسجل بعض التغيرات العقلية والروحية التى أثرت عن إخواننا بنى آدم الذين يزعمون أن الله شرف بهم الأرض وفضلهم على سكان الماء والهواء.

وما أنا منهمو بالعيش فيهم
ولكن موطن الذهب الرّغام

وبعد فما الذى رأيت فى موكب الملاح؟

رأيت الجمهور الباريسى وقد اصطف شبابه وكهوله من رجال ونساء على جانبى الجران بلفار. وازدحمت الشرفات

والنوافذ والسطوح بالمتطلعين المترقبين لمفاتن الحسن وملاعب الجمال.

وما هى إلا لحظات حتى علا الضجيج والهتاف فى استقبال الموكب المرموق.

هذه إذا ملكات الجمال؟ إى والله، هذه ملكات الجمال، وتلك هى الأذرع البضة، وتلك هى القامات الممشوقة التى تفضح الغصون الرِّطاب، وتلك هى البسمات العذاب تلقى فى سخاء لجميع المتفرجين فى عدل وإنصاف، فلا ظالم ولا مظلوم فى هذا اليوم المشهود!

أى جمال هذا يا رباه!

لقد كنت أتهم فرنسا بالإقفار من الحسن فمن أين ظفرت بكل هذه الظباء ؟ ومن أى واد من أودية السحر استطاعت باريس أن تقنص كل هذه الشوارد لتعرضها على الناظرين فى مثل هذا العيد؟

لقد كنت أعرف أن الحسن فى فرنسا شخت ضئيل، وكنت أرثى للمرأة الفرنسية حين تمدد على السرير كعود الخلال أو كالدمية المسخوطة، أو كالمومياء تتقدم إلينا من وراء التاريخ!

فما الذى جد فى مظاهر التطور حتى رأينا فى باريس

فتيات لهن معاصم ونحور، وقدود ونهود؟

ما الذى جد فى عالمكم يا أهل باريس، لقد أثرتم أشجانى بما عرضتم فى هذا اليوم، وأنا رجل طالما نعيت عليكم فقركم إلا من بوادر الظرف والذكاء، وطالما أسيت لبؤس فتياتكم كلما تخطرت فى شوارعكم عذارى فينا وبرلين!

أفى الحق أنكم تملكون مثل هذه الكنوز؟ وهل فى منزلكم ومقاصيركم وملاهيكم أمثال لهذه الأجسام الفينانة التى ترد الحليم وهو غوى أثيم؟ أأنتم إذا تفهمون كما كان يفهم العرب والمصريون واليونان والرومان أن المرأة يجب أن لا يقل حظها من جمال الجسم عن حظها من جمال الروح؟

ويلاه ! ما هذا الذى تراه عيناى فى موكب الملاح؟

هؤلاء صبايا يخطرن فى نضرة الزهر، ورقة النسيم، ولكنهن جميعا مسوقات للإعلان! فكل سرب منهن قد قرن إلى سيارة مزدانة بالأزهار والتصاوير فى سبيل التنويه بالمتاجر العمومية، فهذه سيارة اللوفر، وتلك سيارة البون مارشيه، وهاتيك سيارة السماريتين، وهذه عجلة سينما مونج، تلك عجلة مسرح بيجال!

أكذلك يعرض الحسن فى سوقكم يا أهل باريس؟

وقفت أتأمل هذا الحسن المعروض فى حسرات وزفرات، لأنى أعلم أن كل معروض مهين والحسن أجدر بأن يرفع عن مواطن الهوان .

ثم مر بالنفس خاطر بدد من آفاقها سحائب الحزن: ذلك أن الجمال لئيم، ومن ذا الذى يجهل لؤم أهل الجمال؟

الجمال لئيم، لأنه لا يؤمن بغير الجاه والمال، ونحن قوم لم نرزق غير الشعر والأدب والخيال، فلا حظ لنا ولاخلاق فى دولة الجمال، فليخضع الحسن صاغرا لأصحاب المتاجر والملاهى ولأنهم يملكون منابع الثروة، ولننظر إليه لاهين شامتين بمارزئ به من التسخير الشائن فى شوارع باريس.

أيها الجمال!

أنت لا تعرف من يعبدك، ولكنك تعرف من يملكك، أنت لا تعرف من يسهر ليله ويشقى نهاره فى التسبيح بحمدك، والثناء على لألائك. ولكنك تعرف من يملأ جيبك ثم يسوقك فى مدارج الذلة بلا رحمة ولا إشفاق.

أنت لا تعرف من ينسج فى سبيلك روائع القصائد والرسائل ولكنك تخضع فى ضراعة لمن يحوك لك مبهرج الأثواب، فامض فى هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث يشاء

اللئام من أرباب المال.

أنت لئيم أيها الجمال، ونحن مع ذلك نعبدك فى لؤمك، وكم على ظهر الأرض من لئيم معبود!

أيكون معنى هذا أننا نعبد اللؤم طائعين؟

هيهات نحن نعرف أن الحياة قست عليك، ونعرف أن المال صير الأرذال آلهة يعبدون، ومن أجل هذا نرحمك، ونرثى لك، لأن من حقك أن تعيش، وعواطف الشعراء لن تعود عليك بنفع جزيل ولا ضئيل.

وهؤلاء الفرنسيون الذين عرفوا برقة الطبع معذورون حين يرون الجمال سلعة تباع فى الأسواق لأن الحياة قست عليهم كما قست علينا وعليك، فليغفر الله للجميع!

* * *

عدت إلى المنزل الذى أقيم فيه بعد شهود موكب الملاح، وكان همى أن أسأل معبودتى هناك كيف تخلفت عن ذلك الموكب المشهود، ولكنى رأيت فى المنزل عجوزا فانية لم أرها قبل ذلك، فما كدت أفتتح الحديث عن الحسن حتى ابتدرتنى قائلة:

أين أنت يا بنى من حقائق الحياة؟ أتحسب باريس هى كل

ما شهدت ورأيت فى الجران بولفار؟ إن فى باريس عالما آخر: هو عالم الجد أو عالم الحزن إن شئت، فليس فى باريس غير قوة الجد ومرارة الأحزان.

صدمتنى تلك العجوز بهذه الكلمات، غير أنى تجلدت وأقبلت على معبودتى أداعبها فى نزق وطيش، فعادت العجوز تقول:

دع هذا يابنى، واستمع إلى حديثى فقد عركت الزمان، وعرفت ما ستعرف من أهوال الوجود. إن الحسن الذى تتغنى به باب من أبواب الشر، وإنه ليجنى على أهله قبل أن يجنى على الناس وأولئك الفتيات اللاتى سحرن لبك فى موكب اليوم ستكون لهن هموم وأشجان (وعما قليل ليصبحن نادمين) فلا تحسب أن الدنيا ستبقى على تلك البسمات، أو سترحم سحر تلك العيون. إنها أيام ثم تصبح كل جميلة سيدة مسئولة، بين طفل يتدلل وزوج يتحكم ، ودهر يطغى ويجور!

ثم زلقتنى تلك العجوز ببصرها وقالت : أمتزوج أنت؟

فأجبت : لا : يا سيدتى!

وهنا انبرت تلك الصغيرة الفتانة وقالت : اخدع سوانا يا مسيو مبارك لقد سألت عنك مواطنيك فأخبرونى أنك متأهل

وأن عندك خمسة أطفال ! فلا تقل إنى خطيبتك بعد اليوم.

فتراجعت وقلت : إنها دسيسة يا معبودتى. وما أشنع ما يكيد المواطنون بعضهم لبعض حتى فى بلاد الغربة!

ثم صعدت إلى غرفتى وقد اقتنعت أننى فى باريس أشد جنونا من أهل باريس. فليرحم الله ذلك العاقل المجنون.

٢٣ ابريل سنة ١٩٣١

قلب المرأة

فى أكثر الشوارع فى باريس توجد مقاعد عمومية يجلس عليها السائرون إذا أجهدهم المشى واحتاجوا إلى الراحة بضع لحظات ، لهذا الغرض وضعت تلك المقاعد ، ولكنها تستعمل فى بعض الأحيان لأغراض ثانوية ، فمن العشاق من يستفيد من تلك المقاعد إذا جن الليل وأسدلت عليها ظلال الأشجار . ومن الفقراء من لا مأوى له فيتخذ منها مأواه ويظل جالسا عليها بين النوم واليقظة حتى مطلع الفجر ، وليس له أن يرقد وإلا طرده البوليس . وقليلا ما تكون تلك المقاعد موعدا لصديقين يفضلان أن لا يكون ملتقاهما فى قهوة تكلفهما بضعة فرنكات على شرط أن يكون ذانك الصديقان من الجرأة وفهم حقائق الواقع بحيث لا يهمهما الاتهام بالفقر والإفلاس . فقد رأيت من الأساتذة المحترمين من ينتظرون زملاءهم على تلك المقاعد فى حين أنه يندر أن يوجد من الطلبة والشبان من ينتظر رفيقا له هناك .

ولهذه المقاعد مظهر آخر من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء ، فعندها يلتقى العمال الذين امتد بهم الزمن وطالت عليهم الحياة ، ومع كل عامل كيس كبير فيه الخبز والجبن ،

وفيه كذلك كأس وسكين وشوكة . وبجانبه قارورة كبيرة فيها لتر من النبيذ الأحمر ، ثم يجلسون فرادى وجماعات وقد طالت لحاهم ، واغبرت شعورهم ، وعليهم خرق بالية قذرة قد تكون كل ما يملكون لدفع غوائل البرد الشديد .

وماهى إلا لحظة يفتح العامل فيها كيسه ، ويكسر خبزه ، ويملأ كأسه ، حتى تدور به الأرض ، وينقله الشراب إلى عالم الأحلام . إذ ذاك تراه يسمر مع رفاقه فى لطف ودعة وانشراح ، كأنه رئيس الجمهورية ، أو كأنه لم يقض يومه فى حفر الأنفاق ، ونقل الأتربة . وحمل الأحجار .. ولبعض هؤلاء العمال خليلات مساكين صح فيهن قول الشاعر :

لكل ساقطة فى الحى لاقطة
وكل بائرة يوما لها سوق

فتراهم أحيانا وقد جلس الرجل الأشمط إلى خليلته الشمطاء يبادلها أطيب الأحاديث ولكن للهرم والشيخوخة حكم قاهر فى مثل هذه الظروف ، فقد يندر أن يجرى الضم والعناق بين العشاق الكهول مهما بعثهم الراح ، وهى تبعث الأموات . وكثيرا ما ترى رجلا وامرأة يتطارحان الشعر ويتحدثان عن كورنى وراسين وموليير ، فتحكم بأنه كان لهما

شأن فى العالم المهذب ، ثم طاحت بهما الأيام .

وما أنس لا أنس عجوزا فانية جلست إلى رفيقها على مقعد فى ميدان (نوترادم) فجلست قريبا منهما أسترق السمع وأختلس بعض أطايب الحديث ، فلمحت المرأة مكانى وأقبلت تسأل :

أنت اسبانى يا مسيو ؟ فقلت : لم تبعدى يا مدام ، فقد كان لى فى أسبانيا أجداد ، وأنا اليوم مصرى . فاندفعت تتكلم بحماسة ولباقة عن الفراعنة وتاريخ قدماء المصريين ، ثم سألتنى عما أحفظ من الشعر الفرنسى فأجبتها بأنى حفظت كثيرا ولكنى لا أستطيع فى اللحظة الحاضرة أن أنشدها إلا مقطوعات قليلة ، وكذلك كنت أنشد البيت الأول من القصيدة وأقف فتتمها هى بلا تحبس ولا توقف كأنها تغرف من بحر . ولكن المسكينة كانت تخلط ذلك بخطرات من الجنون حملتنى على الانصراف قبل منتصف الليل ، وكانت مستعدة إلى المضى فى الإنشاد حتى الصباح !

وفى مساء الأمس بجانب السين وبالقرب من قنطرة سانت جنفييف رأيت الناس مجتمعين حول مقعد من تلك المقاعد ، فنظرت فإذا امرأة تناهز الخمسين لا يزال شعرها أصفر وفيه

بريق ، وإن سقطت أسنانها جميعا وظلت أشداقها خالية كثيرة التلافيف . وهى واقفة يهاجمها الناس وتهاجمهم ، ولكنها تخلط جدا بهزل ، وتنتقل في جوارها من فن إلى فن . وكلما فرغت من شوط من أشواط لجاجها مدت بصرها وعنقها وهي تقول : لقد دفعت ثمن ما شربت . فماذا تريدون! عجبا لكم ، لقد دفعت ثمن ما شربت ، أنا أنا ، من دون أن أحتاج إلى مساعد ولا معين . فذكرتني بذلك المتحذلق الذى كان يقول وهو من غروره فى مثل سكرها : ما لكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنة ، افرنقعوا ، أو كما قال !

وفى لجة تلك الفورة كانت تتقدم المسكينة إلى بعض الشبان فتناوشهم فى شيء من اللطف ، فمنهم من كان يثبت ومنهم من كان يفر ، وفى النهاية صمد لها شاب يقارب الثلاثين وأخذ يلاعبها فى جد يشوبه هزل ، ومضت الملاحاة بضع دقائق والناس ينظرون لاهين ضاحكين ، والمرأة تهزم حينا وتنتصر حينا ، وبين الهزيمة والانتصار تستسلم إلى أحلامها وهواجسها فتتغنى وتتمايل وهي تدمدم : لقد دفعت ثمن ما شربت فماذا تريدون ؟

وأعجب ما فى الأمر أن تلك المرأة كانت تتجنى على ذلك

الشاب فتذكر أنه من بلد منحط وضيع وتصارحه بأنه من الجزائر . فكان الفتى يثور ويقول : إن بلادى أقدم حضارة ومدنية من بلادكم ونحن خير منكم . وكان ذلك يجرى ونحن نظن أن الأمر مزاح فى مزاح وماهى إلا لحظات حتى اشتد اللجاج . وكانت المرأة تقول : أنا أرى الجزائر فى وجهك . أنا أرى الجزائر فى وجهك ! ثم غلبت على أمرها وفاضت عيونها بالدمع السخين .

وفى سَورة تلك المعركة تقدمت سيدتان محتشمتان كل الاحتشام حتى لتحسبهما من عقائل القاهرة ، وليس على وجههما أى أثر من آثار التلوين والتزيين ، إن كان بقى فى باريس امرأة لم تعرف تلوين الجباه والشفاه والخدود، فنظرت فإذا تانك السيدتان تخطوان خطوات حذرة هيوب نحو تلك المرأة التى بدد رشدها الشراب وهما يقولان : هلم إلينا يا مدام ، أين منزلك يا مدام ، يا مدام أين تسكنين ؟ فى أى شارع ومن أى حى ؟ حدثينا ، أجيبى ، نحن معك حتى تصلى هادئة مطمئنة .. كل هذا والمسكينة لا تعيرهما التفاتة واحدة لشغلها الشاغل بتلك الحرب الشعواء . وفى النهاية تغلبت السيدتان وانتزعتا المرأة من أنياب اللجاج والخصام ،

ومضتا بها إلى حيث تقيم .. فعدت أتأمل كيف يتكون قلب المرأة وكيف تحنو على بنات جنسها فى ساعات البأساء والضراء ، وذكرت أن باريس مهما استسلمت واستسلم أهلها إلى الترف والفساد ستظل تحفظ فى أعماقها بقايا الرفق والعطف والحنان ، وأن العواطف الإنسانية ستبقى سليمة فى صميمها مهما طغت عليها المظاهر وأخفاها التمدن المصنوع...

وذكرت تلك القصة القديمة التى تحدثنا أن ملكا زعم أنه يستطيع أن يحول الخصال والطباع من حال إلى حال بالتربية والتعليم ، وأن وزيره كان يخالفه فى ذلك الرأى ، ويحكم بأن الطبيعة هى الطبيعة لا تتحول ولا تتغير مهما لونتها ظروف الزمان والمكان ، وكان من ذلك أن عنى الملك بتربية القط الذى كان يداعبه تربية خاصة حتى كان القط يحمل الشمعة ويقف بين يدى سيده وهو خاشع مطيع ، واستقدم الملك الوزير ليريه أن التربية والتعليم يغيران الطباع، ولكن الوزير كان أدهى وأمكر حيث وضع فى جيبه فأرا صغيرا ، فلما كانت المحاورة بينه وبين الملك بشأن القط الذى يحمل الشمعة ألقى الوزير الفأر على البساط ، فرمى القط

الشمعة وانطلق يعدو خلف عدوه الذى أعدته له الطبيعة !

مضت السيدتان بالمرأة إلى حيث تقيم ، إن كان لمثلها منزل تأوى إليه ، ولكن الحادث تفرعت عنه مشكلة : ذلك بأن الشاب الذى كان يلاحى المرأة عربى من الجزائر ، والمشاهدون للنزاع أكثرهم عمال فرنسيون ، والعربى الجزائرى فى زعم هؤلاء منحط وضيع ، فكيف يتسنى له أن يلاحى امرأة أثقلها السكر وفارقها الوقار ؟ وكذلك برز له اثنان يناوشانه بقارص الكلام ، وهو يلاحيهما ملاحاة الأكفاء ويهاجمهما بمثل ما يهاجمانه : ذم بذم ، وسباب بسباب . لكن هؤلاء جماعة وهذا واحد فرد ، وهم فى بلادهم وهو غريب! فوقفت أنتظر ما سيكون علنى أقف فى صف ذلك العربى المغترب إن جد الجد واحتدم القتال . وماهى إلا دقائق حتى فاض الشر فتقدم الفتى إلى خصومه وفى عينيه نار تتقد وقال لهم : إن كنتم تريدون الحرب فأنا عندما تريدون وفوق ما تظنون ، وإن كانت عزائمكم لا تتخطى السباب والفحش والإقذاع فأنا أنصح لكم بالاقتصاد فإن هذا سلاح النساء والضعفاء .

كنت أظن عند هذا أن ستقع الحرب بالفعل ، ولكنى لمحت

العمال الفرنسيين تراجعوا وتقهقروا وقال قائلهم : نحن نلومك على أن تتعرض لامرأة فى سن الخمسين ، هذا ينافى الذوق ، هذه وقاحة ، شاب مثلك لا يحسن به أن يهاجم امرأة فى مثل تلك السن . أما الحرب فأنت تعرف أننا لا نجبن عنها . ولكن .. ولكن ..

وكذلك وقفت المشكلة عند هذا الحد وانصرف الفتى الجزائرى وهو يقول : لعنة الله على الجبناء !

وبهذه المناسبة لا يفوتنى أن أذكر للقارىء أن العمال التونسيين والجزائريين والمراكشيين لهم فى باريس نفوذ رهيب، ولهم فى كل حى عصابات تشبه عصابات الصعايدة فى الاسكندرية ، أفأستطيع أن أقول بأن هذا النوع من التشرد المخيف يشبه أن يكون عدوانا بعدوان واحتلالا باحتلال ؟

٨ أكتوبر سنة ١٩٣٠

معرض الأزهار فى باريس

تفضل المسيو بلانشو فارسل إلى دعوة إلى حضور معرض الأزهار فى الشانزليزيه على شاطىء السين ، وكتب مع تذكرة الدعوة كلمة رقيقة جاء فيها : « ولكن أسرع يا صديقى فإن الأزهار سريعة الذبول» ؟

أى كلمة هذه ؟ وأى قوة سحرية ثار بها قلبى حين قرأت هذه الكلمة ؟ لقد كنت أعرف كما يعرف سائر الناس أن الأزهار سريعة الذبول ، وكنت أعرف فوق ذلك أن هذا معنى قديم لم ينفرد بإثارته كتاب الغرب وشعراؤه ، فقد أثاره أحد شعرائنا الأقدمين حين قال :

عهدتك ذا عهد هو الورد نضرة

وما هو مثل الورد فى قصر العهد

ولكنى تلفت إلى قلبى أبحث عما كان ثار فيه من أمان وآمال كانت أندى وأعطر من الأزهار الغضة فى أسحار الربيع ، ثم ذبلت وذوت قبل أن تعمر أعمار الأزهار . فكم من وعد جذاب أخلف قبل أن يمضى عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من لقاءة حلوة حسبتها مشرق وصال فكانت مغرب وداع ! وكم برق من بروق الحب تألق ثم غاب ! وكم حلم من أحلام الصبابة بددت غفواته صروف الحياة! وكم لحظة من لحظات

العتاب شهدها القمر وغاب عنها الرقيب ، ثم عصف بها الدهر فأدرجها فى أكفان الفناء ! وكم غفلة من غفلات العيش أويت إلى ظلالها فى طمأنينة الطفل ثم ثارت من حولها العواصف فألقتنى فى وادى الخطوب !

ويحك يا قلبى ! تعال أقاسمك العزاء . فقد كنت نعم الصاحب ونعم الرفيق ، وإنك لتذكر كيف كنت أحنو عليك فأطوف بك بين سعير الحب ونعيم الجمال ، وتذكر كيف بكيتك يوم قل خفوقك ، وخف وجيبك ، وإنك لأهل لذلك ، فقد عرفت بك معانى الحب والعطف والشوق والحنين ، فلأقف بجانبك أشاطرك ما جنت عليك الملاحة من ألوان العناء .

«أسرع يا صديقى فإن الأزهار سريعة الذبول»

إنى لأعود إلى هذه الكلمة فأذكر أن لى فى دنياى معارض من الأزهار تختلف عن معرض الشانزليزيه على شاطىء السين : فإن هذا المعرض يقع فى أسبوع من بعض الفصول ثم يمضى وله فى نفوس مشاهديه ذكرى طيبة ، ولكنها سريعة الذهاب ، فقد تطغى عليها حفلة راقصة من حفلات المساء ، والأزهار على جمالها لا يعرف الناس مالها من الأنفس والأرواح ، فهم يشهدون ذبولها فى حسرات خفيفة لا يمكن أن تقارن بحسرات من يشهدون أنات العليل ،

والأزهـــار أضـعف من أن تـهم بقـبـلات النسـيم ، وضـمـات التوديع ، وهـى بعد ذلك حسن مكرر تجود به الطبيعة ويسمح بلقائه الزمان .

أمـا مـعـارض الأزهـار التي يسـوقـهـا إلينا الحب ، وينظم أحواضـها وعيونها فى أودية الذكريات فهى فرص تعرض فى جميع الفصول ، ومن عجب أنها تكثر فى فصل الشتاء . وهى مـعـارض تثـيـر جوى القلب لأنهـا فى الأغلب تقـيم دقـائق أو لحظات ثم تغيب فلن يقال فيها «يقام معرض الأزهار من ٢٦ أكتوبر إلى ٣ نوفـمـبر » حـيث تمكن المشـاهدة مـرة وثانيـة وثالثة، كلا فقد تكون لمحة مخطوفة فى المترو ، أو فى المسرح أو فى الملعب ، ثم لا يمكن بعد ذلك قرب أو لقاء .

ولهذه الأزهار ؛ أزهار الحسن والصباحة أنفس وأرواح ، فـهى إلى نفـوسنا أقرب ، وإلى أرواحنا أسـرع ، وقد تتـلاقى النظرتان فيكون فيهما من التناجى والتشاكى والتعاطف معان دقيقة تلقيها العيون وتفهمها القلوب ، ثم يفترق المتلاقيان وقد نهلت قلوبهما من نمير الحب فى حال لم يقع فيها تعارف ولا يرجى معاد ، إلا أن يقدر التلاقى فى عالم الأرواح .

وأنت فى معرض الأزهار قد تشترى لوحة فنية تذكر بها ما يفوت من أرج الزهر النضير ، ولكنك فى معارض الجمال

لا تملك شيئا من ذلك ، أو لا تملك إلا الحسرات الباقية فى حنايا الأحشاء .. وفى معرض الأزهار قد تقول : إلى اللقاء ! لأن كل وردة وكل بنفسجة ، وكل قرنفلة تلهى النفس عن نظيراتها فى عالم الأزهار ، ولكنك فى معارض الجمال لاتقول: إلى اللقاء لأن النفس التى ألفت دراسة الجمال تعرف أن كل وحدة من وحداته لاتغنى عن نظيراتها فى عالم الجمال: فلكل عين سحر ولكل ثغر فتون ومهما تعشق الناس الزهر فلن يأرق لهم من أجله جفن، ولن يقض لهم مضجع ، لأنه إن مات فسيبعث من جديد ، أما الجمال فحلم مشرد يذهب فلا يعود . ولقد أعذر من قال:

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة
لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذى خلق الملاحة لم يشأ
إلا شقائى فى الهوى وبلائى(١)

* * *

معذرة إليك أيها القارىء : فقد شغلتك بنفسي وإنى لعائد إلى موضوع الحديث .

أول ما يلفت النظر فى معرض الأزهار أنه أقيم فى اللحظة التى يفصل فيها بين الخريف والشتاء . فكأنه تذكرة

لما مر من أيام الصحو ، وتوديع لأيام الشعر والخيال . وكأن الذين أقاموه أرادوا أن يحشروا فى صعيد واحد ما تفرق من بقايا الزهر ليستطيع شعراء الطبيعة وعشاقها أن يصافحوها للمرة الأخيرة من هذا العام على شاطيء السين.

وهو كذلك دلالة على مهارة الجنان الفرنسي ، فهو يعرف كيف يغرس الأزهار وكيف يعدها لمواجهة الزائرين فى يوم معلوم . وغرس الحدائق وتنسيق البساتين فن من الفنون العالية التى يشغل بها أصحاب الأذواق فى الغرب . وحسب القارىء أن يعرف أنه كان فى هذا المعرض مئات من الكتب القيمة فى تربية النحل والطير والأزهار والأشجار، وليس من الحرج فى شيء أن أقول إن ما ألفه الفرنسيون فى هذا الباب يربى بكثير على ما ألفته أى أمة من أمم الشرق الأدنى فى أهم ما يعنيها من الآداب فى نحو قرن من الزمان . وليسمح لى أن أقول إن كلية الطب المصرية لم تنتج فى نيف ومائة عام عشر ما أنتجه البستانيون الفرنسيون فى نحو عشرة أعوام.

ولست بهذا أريد الغض من الجهود المصرية ، ولكننى أريد أن أوقظ من طال عليهم السُّبات ، فقد أصبح من العار أن

---

(١) من شعر المؤلف..

نعلل أنفسنا بأننا أمة صغيرة العدد وأنه يكتفى منا بالقليل. هذا خطأ فإن الجمهور المصرى كاد يقارب نصف الجمهور الفرنسى . على أن الأمم لا يقاس جهدها بالعدد . ولكنه يقاس بالحذر والحرص واليقظة والطمع فى امتلاك نواصى المجد. ونحن نملك أخصب الأراضى فى العالم، ولكننا حين نقيم معرضا للأزهار يكفينا بهو من أبهاء فندق سميراميس ، على أن فينا مع الأسف الشديد زهادة تامة فى استغلال الأرض ، ولانكاد نعرف من أنواع الفواكه والأزهار والبقول غير أنواع معدودات ، ولا يهوى إلى مدرسة الزراعة إلا الطلبة الذين عرفوا بالتخلف فى الحياة المدرسية، مع استثناء من أعرف من الشبان الأذكياء ، وفى هذا دليل على أننا نقبل على الطبيعة بقلوب تعوزها الحرارة وسواعد ينقصها النشاط . والشعر العالى الذى يوجد فى عوالم الزراعة بعيد من أذهاننا، فقليل من طلبة الزراعة فى مصر من يدرك أن ليلة مقمرة في سهول الريف أحفل بالشعر والموسيقى والغناء من ليلة صاخبة فى ملاهى القاهرة وما أريد أن أزيد !

يرى الزائر أول ما يرى فى ذلك المعرض أودية مهندمة من الأشجار المثمرة ولكل طائفة منها وضع خاص يروع الذوق

وهى تريك مبلغ مهارة الإنسان فى تهذيب الطبيعة، وكيف يمكنه أن يروض الأشجار على مسايرة الأوضاع الهندسية بحيث يصبح الشجر مخدع زينة ومجنى فاكهة. والقوم هنا يريدون أن يملؤوا الصور المادية بالحقائق المعنوية ، ففى كل شجرة سر ، ولكل حوض روح .

وقد صفت الفواكه من كل نوع على جانبى كل ممر من ممرات المعرض بطريقة مغرية فاتنة تقنعك بأن من الضعة أن يعيش الإنسان على الخبز والماء ، على حين أنه لو جدَّ ونشط لعرف كيف يحيا من فضل ما تنتج الحدائق والأعناب.

وفى كل ركن من أركان المعرض تقوم مدارس صغيرة تعلمك كيف تصنع بنفسك مربيات الفواكه ، وكيف تربى النحل والطير وكيف تقى الزهر آفات الجو ، وكيف تحرث الأرض بمحاريث دقيقة ، وكيف تجنى ، وكيف تحصد ، وكيف تنقل الماء إلى المشاتل والأحواض .

وكم تمنيت لو أتيح لي أن أرى كيف صفت أزهار المعرض، فإنها وضعت بحيث يظن الرائى أنها هكذا خلقت، وأنه لم يقم بتنسيقها إنسان ، فحينما تلفت فسهول مبسوطة قام فيها البنفسج والقرنفل والشقيق ، أو نجود غالية تسامت

إليها الأزهار فكستها فى رفق وحنان.

ومـــا أنس لا أنس كـــيف لاحظت أن الحظوظ تصـــيب الأزهار. كما تصيب الرجال ، فمن الأزهار ما كان حظه أن لأمس الارض فوجد بذلك سبيلا إلى النضرة والنماء ، ومنها ما كان حظه أن يوجد فى تربة صناعية مجتلبة فكان يجاهد فى مطاردة الذبول.

كان معرض الأزهار شعرا كله ، وما كان ينقصه إلا الندى فقد وضعت من فوقه سقيفة من الزجاج حالت بينه وبين أنداء السماء : فصار بذلك كالعروس بين الستائر والحجال.

* * *

ولقد رأيت أن أتأمل ما يصنع المشاهدون فى مثل هذا الجو العطر ، ورأيت الرجال يكثرون فحص الاشجار المثمرة ويجمعون ما تناثر حولها من الإعلانات ، ويوغلون فى الأبراج المشيدة لتربية النحل والطير ، ويقبلون على الكتب التى وضعت فى أروقة المعرض . أما النساء فكن يجتمعن حول الفواكه فى حماسة دونها حماسة الفتيان فى تعقب أسراب الفتيات، وكن يكثرن فحص الزهريات وأدوات صنع المربى . ومنهن من كانت تقبل على مشاهدة ما كان هناك من صغار

التماثيل.

وقد رأيت ثلاثة رجال يدرسون المعرض بعناية فسألتهم السماح بمصاحبتي لهم لأرى كيف يدرسون وكيف يفهمون ، فأنا رجل فلاح ولي حديقة مثمرة، ولكن الجنان المتواضع الذى أقمته فيها يستفيد من غربتى فيقيم المواشى فى جانب ويبذر البرسيم فى جانب ! وكذلك يكون الفلاح ابن الفلاح.

ولكننى لم أستطع الصبر أكثر من ساعة . ثم انصرفت عنهم بعد التحية والثناء ، وعدت أتأمل وحدى خمائل الأزهار.

وبعد لحظة عدت على نفسى باللائمة . ولكنى اقتنعت بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لاتعطى سرها إلا للرجل المنفرد ، وهى أشبه بالغوانى تنفر من الصاحب والشريك.

وقد أعيانى التعب من فرط التأمل ، فاكتفيت فى النهاية بنظرة باكية ودّعت بها الزهر المهدد بأرواح الشتاء ، وخرجت أتأمل المعارض الحية فى أحياء الشانزليزيه بقلب مقسم محزون.

وإنى لأكتب هذه الرسالة فى نفس اللحظة التى تقوَّض فيها خمائل المعرض ، وأكاد أشهد من وراء حجاب كيف يقبل العمال بسواعد قوية فيجمعون الأزهار أكداساً أكداساً

بلارحمة ولاحنان إلى حيث تلقى ذابلة فى تيار السين.

فإليك يامرتع النواظر بالأمس أقدم التحية ، تحية شاعر مغترب ، مفطور القلب لمصرع الزهر النضير ، ولو ملكت فى تكريمك غير هذه السطور لقدمت نفسى فدية خالصة فى عالم قل فيه من يفدى الجمال.

باريس فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٠

من غربة إلي غربة
بين القاهرة وباريس

صديقى فؤاد

كتبت إلى تقول : «فى مصر فراغ لغيابك . وفى قلوبنا شوق لحديثك» فهل لك أن تعيرنى قلبك لحظة واحدة لأحدثك عما فعل في نفسى خطابك الجميل؟

إنك لتذكر كيف كنت أعيش فى مصر ، وتذكر كيف كانت تمضى الأيام والشهور ولاتتاح فرصة صغيرة أتحدث فيها إلى صديق أو أذهب إلى حفلة ساهرة ، أو أشهد منظراً من مناظر اللهو والطبيعة على ضفاف النيل . وأصدقائي الذين يراسلوننى فى باريس هم أنفسهم الذين كنت أراسلهم فى القاهرة على قرب المزار، يوم كانت أعمالى لاتسمح بملاقاة من فى طريقى منهم بالقاهرة أو من يجاورنى فى مصر الجديدة ، ويوم اطّردت الشواغل اطراداً مزعجا لايترك فراغا فى صباح ولاهدوءاً فى مساء.

ولكن هل من الحق أن ضرورات العمل والجد هى وحدها التى كانت تحبسنى فى قفص من حديد ؟ .

ما أظن ذلك ، فقد كانت هناك ساعات مختلسة أقضيها

على الشواطيء وفى الحدائق ، وكانت هناك لحظات يومية أقضيها فى المترو صباحا ومساء ، وكان فى هذه وتلك ما يكفى لمتعة النفس ، وطمأنينة القلب، وراحة الروح . فهل أجدى ذلك على شيئا؟

وهل غير من قلقى واضطرابى ؟ وهل نقل نفسى إلى قرار أو سكون؟

الحق أن المشكلة الباقية الخالدة هى أزمة القلب . فانى لا أعرف أشقى من ذلك الصاحب الذى يسكن بين الضلوع ، إنه صاحب ولكنه فى الوقت نفسه عدو وحبيب ، قد سعدت به وشقيت، ومت وحييت ، وأنا به بين حزن دائم وفرح مخطوف . ولا أستطيع أن أصف لك كدر الساعات التى كنت أقضيها على شاطيء النيل فى هدآت المساء ، ولاتستطيع أن تقدر كيف كان انقباضى وضجرى من مناظر الرائحين والرائحات، والغادين والغاديات، على ذلك الشاطيء الخالد الذى شهد ما شهد من وثبات النفوس وخفقات القلوب فى مدى ما لايعلم إلا الله من طوال الأجيال .

فهل يمكنك أن تقدر أن ذلك كان مرجعه إلى خذلان فى الحب أو إخفاق فى المجد ؟

أنا لا أحسب ذلك : فإنى رويت من الحب رياً لاظمأ بعده ، ولم أترك لغيرى غير أوشال ، وكلما أرسلت الخاطر لأشهد ما كان من غفلات الصبا وغوايات الشباب عدت وأنا قرير العين، جذلان الفؤاد .

والمجد ؟ أنا لم أخفق فى سبيل المجد يوما من الأيام حتى أقول مع الطغرائى .

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتنى أناس كان شوطهمو
وراء خطوى لو أمشى على مهل

وأوضح من ذلك أنى أخطو فى سبيل العلم والأدب خطوات هادئة طبيعية ، لم يلهيها حقد، ولم تشعلها منافسة، ولم يجر فى خاطرى يوما أن أسرع الخطا لأسبق هذا أو ألحق ذاك . وما شعرت - يشهد الله - بالحقد على متقدم أو الشماتة بمتخلف .

وقد تدهش إن حدثتك أننى أنظر إلى الشهرة وبعد الصيت بعين يسودها الحياد منذ جئت إلى أوربا فى سنة ١٩٢٧ فوجدت الدكتور سنوك قد نشر عنى رسالة باللغة الهولندية

ولقينى المسيو ماسينيون فهنأنى وأخبرنى أن الدكتور سنوك قلما يفعل ذلك، فوقفت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف إلى أى حد وصل بى الارتياح ، ثم لم أجد إلا فراغا مطلقا . وفى كثير من الأحيان يلقانى أفراد من الأجانب الذين يهتمون باللغة العربية فينشدوننى شعرى فأقف أتأمل أثر ذلك فى نفسى ثم لا أجد أيضا إلا فراغا مطلقا. وقد اقتنعت بأن الصيت والشهرة لايعدوان أن يكونا من الخرافات فإنه لا أثر لهما فى نفسى وأنا حى ، فكيف أهتم بما يكون لهما من الأثر بعد الممات!

أضف إلى ذلك أنى مقتنع بأنه لا يشقى نفسه فى سبيل الشهرة والصيت غير صغار الناس ، فهناك أفراد لايتقدمون ولا يتأخرون إلا حيث ينتظرون الجزاء . وكم شهدت من أناس يقتتلون حول الشهرة ، وإن الرجل منهم ليصفر وجهه وتأخذه الرعدة والقشعريرة حين تقع عينه على كلمة هوجم بها أو لوم وجه إليه. وكم رأينا من أذلاء لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال هذا مؤلف بارع ، وذاك كاتب مجيد ، وذلك شاعر بليغ! وأنت تعرف أنى نشرت طائفة

من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع : فلتعرف إذن أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : اصنع معروفا واكتب لنا كلمة في تقريظ كتابك لننشرها في أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ومنذ ذلك اليوم أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية : إذ أعرف أن أكثر التقاريظ من وضع المؤلفين.

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وقليل الاهتمام بما يوجه إلي من نقد ، وإني لأعرف أن هناك ناسا ينبحونني كلما ذكرت عندهم أو جريت في خواطرهم كما تنبح الكلاب القمر حين ترى خياله على صفحات الماء وفى يقينى أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء.

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التى لا تفتأ تغزو قلبى وتفتك بأحشائى؟ وما مصدر تلك الأشجان التي لا أتذكرها إلا فزعت يوم كان المترو يشارف محطة الحمامات ثم يغادرها إلى كوبرى الليمون ، وأروع ما كنت أقاسى فى تلك المنطقة كان يقع فى اللحظات الدامية لحظات الغروب حين تواجهنى الشمس بتسليمة التوديع، والشفق من حولها يشبه

الخدود الداميات ، إنها لحظات مفزعة مخيفة كان قلبى يجتازها فى وجيب وخفوق ، وكنت فيها أشعر الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجد وإحساس لاقوافٍ وأوزان.

وليست تلك اللحظات على قسوتها بأقل خطرا من الساعات التى أقضيها بعد العشاء على شواطىء السين فى هذه الأعوام ، وإنى لأشعر أن هذا النهر يدرك ما بينى وبينه من علائق وصلات : فأنا فى باريس غريب، وهو فيها كذلك غريب، فقد يندر أن يرى هذا النهر ساهراً غيرى يمشى وحده فى سكون الليل من قنطرة إلى قنطرة ومن شاطىء إلى شاطىء كأنه موكل بمراقبة السفن وعد الأمواج!

وما أحسب نهر السين رأى قبلى من يتلمس روحه وأسراره فيصغى إلى خريره فى قنطرة أو سترليتز ثم يسافر ليسمع هديره فى روان . على أننى لم ألق منه شيئا من الجزاء : فقد كنت ولاأزال أسايره بنفس حيرى وقلب محزون.

ماهى إذن أسرار الغربة التى أعانيها فى القاهرة وأقاسيها فى باريس ؟ إنها لاترجع إلى خذلان فى حب ولا إخفاق فى مجد ، أتظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء؟

اللهم غفراً ، فأنا لا أحفظ عن أصدقائى غير الجميل.

ويضـاف إلى ذلك أننى لم أقدر فى حياتى أن الصـداقـة مما يوضـع فى مـوازين المنافع، إنما الصـداقة علاقة روحيـة تبنى على أسـاس الصدق والإخـلاص ونسيـان النفس، ولم يقـع ما يكدر صفوى غـير أحداث صـغيرة مرت بالقلب ومضت كما تمضى آثار النسيم على وجه المحيط، وكان مبعث الأسى أننى كنت دائما أفترض أصـدقائي من الملهمين الذين يعلمـون ما كـان وما سـيكون من أسـرار النفـوس ، ثم كنت أتلفت فجـأة فأجدهم كسائر الناس يستمعون اللغو ويصدقون الأراجيف. هنالك كنت فـأحـزن وآسى ، ولكن حـزنى مـا كـان يقـع لأنى علقت بأصـــدقـائي أمــلا ضـــاع ، إنما كـان حـزنى وأسـاى لشعورى بالغربة فى عالم الأرواح، فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغى على الأقل أن نوفر عليه أتعاب المحاماة فى الدفاع عن نفسـه لدى الأصدقاء ، وأفهم أن الصـديق لاينتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه ، إن كان له هفوات، بل يجب أن تعمى عينه وتصم أذنه إن وجد مـا يوجب تعقب الأصدقاء المختارين.

وأشـد مـا يزعجنى أننى مـريض بالوفاء وأرى من النذالة والخسة وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تغير

تبعا للأيام والفصول، ويتخذ بعضها للأفراح وبعضها للأحزان ، وأربأ بنفسى أن يقال : هذا صديق غدر وصاحب خان!

ويعز على أن يحرم صديقى من مناصرتى ووفائي ، ولكن كيف وأنا رجل لاعمّ لى فى الحكومة ولاخال؟ ألا فلتعلم أننى أعتقد أن البر لايوجد إلا حيث أوجد ، وأن الصداقة لاتكون إلا حيث أكون.

وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هى النعمة الباقية، والعز المقيم ، من أجل ذلك يعز على أن يحرم صديق من وفائى وإن تغير وحال . وكم حملنى الواشون على مهاجمة بعض الناس، ثم عز على أن أكون أقل رفقا وعطفا من كثير بن عبدالرحمن إذ يقول :

وما أنا بالداعى لعزة بالجوى
ولا شامت إن نعل عزة زلت

فلايحسب الواشون أن صبابتى
بعزة كانت غمرة فتجلت

وإنى وتهيامى بعزة بعد ما
تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجى ظـل الغمـامـة كلمـا

تبــوأً منها للمقيل اضمحلت

كأنـى وإياها سحـابـة ممحـل

رجـاها فلما جاوزته استهلت

وعساك تذكر أنى كنت فى صف الحزب الوطنى حين كان يهاجم سيـاسـة سعـد باشـا طيب الله ثراه ، ألا فلتـذكـر أن حماستى كانت تفتر فى مـهاجمة ذلك الرجل حـين ألمح فهمـه للصـداقـة وحـرصــه على الأصـدقـاء ، فـقـد كنت أرى فى ذلك الجانب كل مـعـانـى النبل وجـمـيـع دلائل الرجولة والإخـلاص ، فـإن الرجل الذى لايخلص لصـديقـه لايعـرف كـيف يخلص لوطنه، لأن العـواطف مـتشـابكة الأصـول والفروع يمد بعضـهـا بعضـا . وقـد عـابوا عليـه رحـمـه الله أنه صـرح بحـرصـه على إيثار الأقرباء . وأنه قال لو استطعت لأقمت دولة زغلولية لفظا ومـعنى ودمـاً . وفـاتهم مـا فـى الصـراحـة من مـعـانى الشـمم والشـجـاعـة والإبـاء فـإن كل رجل فى الدنيا يـتمنى لو اسـتطـاع أن يكون من أقربائه أمـة مـوحدة ، ولكن أين من يجد من قـوة نفسه وصـراحة يقينه ما يساعده على مثل ذلك التصريح.

والرجل لـم يكن طـاغـيـة حين قـال مـا قـال فـإنه علل فكرته

تعليلا يقره العقل والذوق حين صرح بأنه يقرب من يثق به ويعتمد عليه والذين عابوا على سعد باشا إيثاره لأصدقائه وأقربائه لم يستطيعوا إقناع أحد بأنهم بررة أطهار . فقد كانت لهم مآرب وأغراض ، ولم يكونوا يؤثرون من يؤثرون وفقا للنزاهة الأفلاطونية . بل التبس عليهم الأمر فكانوا لايفرقون بين العدو والصديق ، لأنهم لم يصادقوا غير أنفسهم ومنافعهم ، ولم يقتربوا من أحد أو ينفروا منه إلا وفقا لما لهم من كيد مدفون ، أو حقد مكنون.

وأعود إليك يا صديق فأخبرك بأن الأزمة الباقية هى أزمة القلب : فقد فهمت كل شيء ، وعرفت كل شىء ، وبقى قلبى كالغابة المجهولة فى ضمير الظلماء ، فإن قلت لك إنى أشكو خيبة فى الحب أو إخفاقا فى المجد ، أو غدرا من الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول، وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما فى أنفسهم من القلاقل والثورات، وأنا لم أنجح فى شىء من ذلك، لأن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة

من الهيئات أو حزب من الأحزاب : فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبي يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خيالي يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب.

وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار، وفاجر عند الأبرار ، فأنا فى كل بيئة أجنبي وفى كل أرض غريب.

وهنا يكون الفزع الأكبر إذ أعود إلى قلبي وجها لوجه، وهو قلب خطر، والموت عندى أهون من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب فليت شعرى أين المفر؟ ومتى يكون القرار؟

ويرحم الله المتنبى إذ قال :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة؟ وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى.

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

أيام البحر ولياليه

باريس في ١١ يونيه سنة ١٩٢٨:

صديقي...

أيدهشك ـ وقد تغير ما بيني وبينك وعصفت العواصف بذلك الود الوثيق ـ أن أكتب إليك من هذا البلد النائي البعيد؟.

لاتدهش يا صديقي، فأنت تعلم أنني رجل لا أستطيب الحياة إلا إذا وجدت قلبا يخفق بجانب قلبي، ولست والله بناس أيامك وعهودك، حين كنت تفيض بالبر وتذخر بالحنان، وإني لعاذرك فيما اجترحت من القطيعة وما جنيت من التغاضي، فقد تغير أو كاد من كنت أحسب أن ستغيض البحار وتزول الجبال، قبل أن يغيض الود من صدره، وقبل أن يمر بباله أن ما بيننا عرضة للزوال.

وإني لأحمد الله على أن وجدت أصدقائي لا يعدمون المعاذير حين يقدمون على هدم ما شقيت في بنائه من صروح الوداد، فإن أشد ما أخافه وأخشاه أن يتبينوا أنهم أساءوا إلى بغير حق، فيجدوا في قلوبهم مس الحزن ومرارة الندم الوجيع، وإني ليسرني أن تهدأ حرارة الإخلاص في صدور

الذين أعزهم، وأحنو عليهم، وأضمر لهم أجمل الود وأصدق الوفاء، فليس يرضيني أن يقاسوا الذى أقاسى، وأن يبيتوا معذبين بفضل ما قدموا من صدق الولاء، فقد علمتنى الأيام أن الإخلاص قد يكون جريمة، وأن الوفاء قد يفتح لصاحبه باب الخيبة والحرمان.

فإن كنت فى ريب من ذلك فاذكر كيف يؤول النبل وكيف تفسر السماحة عند بعض الناس، فقد رأيت من يعد الحياء ضعفا، ومن يرى ضبط اللسان حصرا وعيا، ومن يضيف المجاملة إلى التملق والرياء، ورأيت من يحسب أنك لاتفى له ـ حين يكون الوفاء من سجاياك ـ إلا لأنك ترى أسباب رزقك تحت رحمة رضاه، وبفضل هؤلاء فهمت لأول مرة قول أبى فراس:

وفيت وفى بعض الوفاء مذلة

لإنسانة فى الحى شيمتها الغدر

ومالى أبعد وفيك وحدك أصدق الشواهد وأصرح الأمثال، أفتستطيع أن تخبرنى ماذا تملك من ضرى ونفعى وأنا أحفظ عهدك، وأنسى غدرك، منذ عقدت بيننا أواصر المودة طوال مالا أدرى كم أعد من السنين؟ إنك تعرف أنك لاتملك لى ضرا

ولا نفعا، ولعلك تجد كثيرا من الجهد والمشقة حين تحاول تعليل ذلك العطف من رجل لايخشى بأسك، ولايرجو خيرك، ولا ينتظر أن تغير الأيام من طبعك فتكون من الصادقين.

وكل ما أرجوه أن لا تذهب بعيدا فى جورك وظلمك، فإن لك ساعات من النحس تحملنى فيها عامدا على مخاشنتك وتكاد تفلح، ولك الويل إن أفلحت فى إثارتى إلى سخطك، فإن لمحة من بوارق الغضب إن غضبت لكافية لسحقك ومحقك وتبديد ما انتظم من أحلامك حين آثرت أن تجنى على من لاذنب له ولاتفريط فيه، اعتمادا على أنك فلان بن فلان!!.

وما أنس لا أنس تلك اللحظات المظلمة التى تثور فيها نفسى وأكاد أهم بالبطش بك وأرمى بأيامك، وعهودك فى هاوية من العقوق، ثم يتراءى وجهك المشرق وكأنه لبغيه سماء شاتية مثقلة بالسحب السوداء، أو قلب جاحد رماه الغى بأوزار الضلال!.

* * *

ومهما يكن من شىء فقد ابتليت بك فى دنياى، وأبى وفائى إلا أن أظل أسيرا يمقت الحرية ويفزع من التفكير فى يوم الخلاص، فاستمع إذاً حديثى إليك فقد يكون فيه عزاء لقلبى

أو عطف لقلبك، وسبحان من لو شاء لفجر الصخر بالماء النمير.

* * *

خليت مصر منذ أسبوع، وخليت ورائى فيها هموما مريرة أثقلت كاهلى وأمضت عيشى وراضتنى بعد الجموح، وكنت أحسبنى أقسى وأصلب من أن أعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين إلى حين، ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عينى لفراق الإسكندرية ولم يخفق القلب لفراق الوطن العزيز ومرت بالنفس طوائف من الذكريات الحزينة تمثلت فيها كيف شقيت بأهلى وأصدقائى، وكيف ضن وادى النيل بنفحة من نسمات البر على من يشقى ليسعد، ومن يفنى ليقدم له أسباب الخلود، ثم أخذ قلبى يذخر ويفيض بألوان من الحزن الثائر العنيف إلى أن غابت معالم الاسكندرية وشيعتها بهتاف الوداع، وكم فى الدنيا من ظالم محبوب!.

ثم ماذا؟ هذا جرس يصلصل، وهذه أفواج من المسافرين تمضى إلى الغداء، وأنا كذلك أمضى إلى حيث يمضون بين الفتور والنشاط، ولكنى ألفت منذ أزمان أن أهتم بغذاء عينى

وقلبى وروحى ووجدانى، قبل أن أهتم بما تطلب الأمعاء، فأخذت أترقب وأنتظر حتى أعرف من جليسى المختار على المائدة، ووقفت بعيدا أدرس الوجوه والشمائل، وأتعرف مواقع الحسن فى اعطاف من تقل السفينة من أسراب الظباء، وما هى إلا لمحة حتى وقع طائر قلبى على فتاة جسمها ريان فينان كأنها من صبايا دمياط، ويالوعة القلب من صبايا دمياط! وما كادت تختار مكانها من المائدة حتى رأتنى أمامها وجها لوجه وكأننا رفيقان يلتقيان.

لاتسل كيف طارت هموم صدرى فى تلك اللحظة، وكيف محا ذلك الوجه كل ما خط قلبى من سطور الشجون، وكيف تناسيت ما رمانى به أصدقائى من سهام العقوق، وكيف أقبلت أسألها من هى، وفى أى عش درجت، ومن أى نبع رويت، وقد عرفت أنها فرنسية نزحت إلى مصر، فأقسمت لها أن خصوبة جسمها هبة من هبات النيل، وأن مصر لذلك جديرة بالتقديس.

ثم كانت فى البحر ليال وأيام استطعت فيها أن أستبد بذلك الغصن الرطيب، واستطاع شيطانى أن ينفرد بها فى ساعات الرقص فلم يخاصرها أحد سواى، ورأيت بعينى كيف

يكون الحب والعذاب في حياة قصيرة لاتزيد على خمسة أيام فوق بحر الروم.

ولكن أتدرى ما الذى وقع بعد ذلك؟ لقد وقع أن أخذنا نتناجى فى اليوم الخامس، ونراجع ما كان من حياتنا وما نرجو أن سيكون، فعرفت ، ويا هول ما عرفت، انها ليست حديثة العهد بالنضال، وأنها صرعت بمصر كثيرا من النواب والوزراء، فانقبض صدرى، واستطير فؤادى من الفزع، فجزعت وقالت: ما خطبك ياسيدى؟ فأجبت فى هدوء مصنوع: لا شىء يا مولاتى ولكن لايرضينى فى هواك أن أكون الشهيد الأخير، وإن كان فى ميدان الضحايا متسع للجميع!.

أرواح الذكريات ؟!

صديقي...

أنتِ تحيا حياة طيبة في دنيا فاتنة مملوءة بالرغد والرفاهية وطيب العيش، ولك من شبابك، ومالك وجاهك ما كان لعمر بن أبى ربيعة، طيب الله ثراه، ومنحه فى أخراه ما منحه فى دنياه! لذلك يقل اهتمامك بالذكريات، والتطلع إلى ما فات، أما أنا فرجل مكدود لايتاح لى طيب العيش إلا بمقدار، لذلك ترانى أبدىء وأعيد ما لقيت من الطيبات فى اللحظات الخالية، ولا أقول فى الأيام الخالية، لأنى لا أذكر يوما طاب لى كله، ولا أذكر أنى عرفت كيف يكون الصبوح والغبوق فى يوم واحد أو ليلة واحدة، ولعل هذا هو السر في أنى أعرض أحيانا لبعض الجوانب الحسية من متع الحياة فأصفها بشره وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ما سيلقى من طيبات دنياه!.

فلا تعجب إذن يا صديقى إن رأيتنى أعود إلى ماصفا من أيامى فأتذكر ما وقع فيها من الغفلات الحلوة العذبة التى يمر طيفها بالقلب فيبدد ما فيه من سحب الهم والاكتئاب، وعساك تذكر تلك الأيام العصيبة أيام الدراسة حين كنت توصينى بأن

أضع في كل ركن من أركان غرفتي خريطة وافية لأجزاء العالم القديم والجديد حتى تنطبع في ذهني صور العالم بجباله وأنهاره وبلدانه، وحتى لايجد أستاذنا اسماعيل رأفت بك، يرحمه الله، مقتلا يأخذني منه إذا جلست أمامه أؤدي الامتحان في الجغرافيا ووصف الشعوب، أنت تذكر ذلك، فيما أظن، فاذكر بجانبه إن شئت أنني عنيت بعد ذلك بطائفة أخرى من الخرائط، علقت كل خريطة منها في زاوية من زوايا القلب.

وهنا تستطيع أن تفهم معنى قولهم: كم في الزوايا من خبايا وهذه الخرائط متعددة الأشكال والألوان، ففي كل خريطة نقط عديدة منها السوداء والبيضاء والحمراء، وفيها نقط خفية لا أدري ما لونها لأنها تمثل بعض جوانب من النفس يغلب عليها الشك والارتياب، وهذه المجموعة من الخرائط فيها دائي وفيها شفائي، وإليها المرجع كلما جن الليل واطفأت المصباح ونظرت من النافذة أتأمل من خلف ستار ما يصنع جيراني، فهذا شاب يقضي سهرته وحيدا في غرفته، ولكنه ليس بوحيد لأنه مشغول بتمرينات مهمة في ضرب العود حتى لألمح العرق يتصبب من جبينه، وهذه فتاة

تغازل صورتها فى المرآة، وهذان قرينان يتناولان القهوة ويسمران بعد العشاء.

أما أنا فوحيد وحدة كاملة لارفيق لها ولا أنيس، أقرأ ما أقرأ حتى تصرخ جفونى من الألم، وأعود إلى مذكراتى أرتبها فى رفق، ولكن ذلك كله لايمنع من أن أنظر الساعة فأجدها لم تتخط العاشرة، وأنا لا أصافح النوم إلا بعد نصف الليل، فماذا أصنع إذن؟، لا شىء إلا أن أعود إلى تلك الخرائط التى علقتها فى قلبى فأراجعها واحدة واحدة فى غبطة وارتياح لايعدلهما شىء من طيبات الحياة، وهذه المراجعة لذيذة جدا، لأنها ليست من تلك المراجعات المملة المضجرة التى يُضطر إليها المتقدمون إلى الامتحانات العمومية من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات، هى مراجعة لطيفة لخرائط وجدانية، يتراءى فى بعضها الشيخ زكى مبارك بعمامته البيضاء، وفى بعضها الآخر يتراءى زكى أفندى مبارك بطربوشه الأحمر، وفى جوانب أخرى يتراءى المسيو زكى مبارك فى قبعته الرمادية، ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص الذين يختلفون فى ملابسهم وأزيائهم يلتقون عند نقطة واحدة هى الحظ العاثر والفؤاد الخفاق.

إن الذى رزقك رغد الحقائق هو الذى رزقنى لذائذ الخيالات والأحلام، فلا تحسب أنك أسعد منى حين تمتطى سيارتك وتصاحب شيطانك من ميدان إلى ميدان، فإن لى من أحلامى سعادة باقية دائمة تتجدد نضارتها كلما نفضت تلك الخرائط بين يدى لأذكر متى نعمت ومتى شقيت، متى فرحت ومتى حزنت، ومتى طربت، ومتى جزعت، أما أنت ففى دنيا صاخبة تحسبها شيئا وليست بشىء، وليست لك قدرة مع الأسف على تذوق الذكريات لأن النعيم طغى بك، وأنساك ما فى الماضى من متع كانت جديرة بالحياة لو وقعت لرجل حساس من الذين رزقوا قوة الخيال وعرفوا كيف يكون استحضار الأرواح، أرواح مادفنا على الزمن من ذكريات الحب والوجد والوفاء، أفتحسب يا صديقى أن ابن زيدون كان يخادع نفسه حين قال:

يدنى خيالك حين شط به النوى

وهم أكاد به أقبل فاك

هيهات، هيهات!، ان ابن زيدون لم يخدع نفسه بذلك، فالواقع أن نعمة الخيال من أعظم النعم التى من الله بها على عباده الشعراء، إن أحلام اليقظة أوفى وأمتع من أحلام النوم،

لأن اليقظان أملك لنفسه، وأعرف بخواطره، وأقدر على تمييز ما يتراءى له من أشباح النعيم، وأنت لاتنكر أن الأحلام حياة ثانية ننعم بها وادعين ولكل دور من أدوار الحياة أحلام خاصة به، فالطفل حين يحلم يفتح فاه ويطبقه في رفق وحنان لأنه يحلم بثدى أمه الرءوم، وأمه فى ذلك الحين هى كل شىء فى دنياه، وذلك الثدى المعسول هو كل مايملك ذلك الوليد الغرير، أما نحن فأحلامنا معقدة أشد التعقد، ونكاد نزعج فى النوم، لأن أعباءنا ثقيلة، ولاترينا الأحلام غير صور مرعبة مخيفة من صور التكاليف والفروض. وبهذه المناسبة أخبرك أن أحلامى المزعجة فى باريس ترجع فى صورها المختلفة إلى أصل واحد، هو الذهاب لإعطاء درس أو إلقاء محاضرة بعد مضى ربع ساعة من الوقت المحدد، ويرجع هذا الفزع فيما أظن إلى أننى كنت دائما أحرص الناس على التبكير، حتى لاأذكر أننى كنت أصل دائما قبل الميعاد بنصف ساعة، وهذه الوسوسة فى المواظبة تجلب لى الآن أحلاما، مزعجة لايذهب شرها عنى إلا أن قمت فأوقدت المصباح وقلت بصوت مسموع: أنا فى باريس!، أنا فى باريس!، فلينتظر تلامذتى مما شاءوا فى القاهرة، فإننى لست هنالك، ولست عن انتظارهم بمسئول!.

الأحلام لاتجمل إلا فى الطفولة، من أجل ذلك كنت أقول لك حين تأوى إلى مضجعك نم هنيئا، واحلم أحلام الأطفال!.

أما قوة الخيال وجبروته فى استحضار أرواح الذكريات فنعمة عجيبة أنعم الله بها كاملة على أخيك، فأنا أرد كل غائب، وأبعث كل ميت من ذكريات الماضى، وأتمثل كل شىء حين أشاء، وأنت الآن أمامى بحوادثك اليومية، وأكاد أراك تنتقل من قهوة إلى قهوة، ومن مرقص إلى مرقص، ومن ملعب إلى ملعب، فى حيرتك الدائمة تبحث عما لاتجد، وتجد مالا تريد، وأكاد أرى صديقنا (أ) يخرج من الفصل فيقال له: كيف حال الطلبة، فيجيب «جتهم داهية دا شىء يطلع الروح»!، وصديقنا (ح) ذلك الأديب الألوف المولع بتتبع سقطات الشعراء والكتاب من بين الناس، لا أزال أراه مهموما محزونا يبحث وينقب عساه يظفر بخبر طريف يطالع به إخوانه إذا تلاقوا فى المساء فى ملهى من ملاهى الجزيرة، أو التقوا مصادفة فى الطريق، وهذا النوع من تلمس هفوات الأدباء شر لابد منه، أو هو شر جميل عاش بفضله كتاب الأغانى على مر الأجيال.

الأحلام هى التى جعلت المتنبى يظفر بأنس من لاسبيل

إليه حتى استطاع أن يقول فى نشوة الظافر الطروب.

بتنا يناولنا المدام بكفه

من ليس يخطر أن نراه بباله

وقوة الخيال فى بعث الذكريات هى التي جعلت أحد الشعراء يتغني ويقول:

ترينيك عين الوهم حتى كأنني

أناجيك من قرب وإن لم تكن قربى

وهى كذلك التي تحييني حياة صادقة كلما تمثلت ما طاب من غفلات الماضى، أو تمثلت ما سيطيب من غفلات المستقبل القريب والبعيد، وثمراتها أشهى وأطيب وأمتع من ثمرات الأماني الشاردة التى أقنعت جحدرا فى سجنه، وحملته على الاطمئنان إلى الرضا بأن محبوبته تشاركه في رؤية الليل والنهار والهلال، إذ يقول:

أليس الليل يجمع أم عمرو

وإيانا فذاك لنا تدان

نعم وأرى الهلال كما تراه

ويعلوها النهار كما علانى

ونحن بالأحلام والخيال نحيا حياة طويلة مملوءة بالأنس

والرغد، ولنا من ذكرياتنا الحلوة مااندفع به مرارة الساعة الحاضرة، ولنا من الأمل فى طيبات المستقبل ما نقتل به جيش التشاؤم المضجر الذى ينتابنا فى ساعات السأم والملال.

• إلى هنا تحسبنى ياصديقى أثِرا لا أحب إلا نفسى فالذكريات كما ترى حياة وبعث للأيام السوالف والليالى الخوالى، وهى كذلك وقود من اللذات أقدمه لتلك النفس القلقة الحيرى المولهة، التى لاتهدأ، ولاتقف عند حد من حدود المطامع، أو رسم من رسوم الأهواء، وهي فوق ذلك كله غذاء شهى لنزوات القلب، ونزغات النفس، ووثبات العقل، وهفوات القلب.

ولكن رويدك، فأخوك أطيب من ذلك نفسا، وأعف ضميرا، وأكرم قلبا، إن لى من تلك الذكريات أنصبة روحية صرفة لايشوبها طيش ولانزق ولا جموح، وفى تلك الذكريات جوانب طيبة لم أرد بها غير وجه الله، ولمْ أبتغ منها غير جمال الصدق وعذوبة الوفاء.

إننى ما رجعت إلى تلك الخرائط الوجدانية إلا تمثلت فيها صورا ورسوما وأشباحا لصداقات قديمة، وعلاقات ماضية

أراد الزمن أو شاءت تقلبات الناس أن تضاف إلي غيابات التاريخ، فأولئك قوم كانوا فى صداقتهم كراما بررة، ولكن الموت قضى عليهم، وهؤلاء قوم لايزالون أحياء، ولكنهم كذبوا بعد صدق وخانوا بعد وفاء، فماذا ترانى أصنع فى ذكريات أولئك وهؤلاء؟.

أما الذين قضى عليهم الموت فلى فى ذكرياتهم شئون غريبة تستثير الدمع، وأعزهم على المنسيون منهم ما عادوا يمرون بخاطر أو يجرون على لسان، فذلك الطفل «عبدالحسيب» الذى اختطفه الموت بعد عام من حياته لايزال يتمثل إلى قلبى وروحى فى عقله ورزانته، وتلك الطفلة (سكينة) التى سميناها بهذا الاسم لصباحة وجهها راجين أن نذكر بسميتها الجميلة الحسناء سكينة بنت الحسين، سكينة هذه لاتزال تظفر أمامى وتثب على سريرها الصغير، ولاأزال أتمثل كيف كانت تعالج سكرات الموت فى نبرات حلوة عذبة حسبتها لغفلتى تغريدات طائر لا تأوهات عليل، وأخى سيد؟ ويلاه! ماذا أقول؟ لقد شهدت أيام مرضه وحضرت لحظاته الأخيرة ورأيت كيف قام فزعا فقبل يدى ليغمض بعد ذلك عينيه أبد الدهر، وقاسيت أهول منظر شهدته فى حياتى حين كفنته

بيدى وأسلمته إلى الفناء.

أفتحسب من المروءة والنبل أن نبخل على هؤلاء بنفحات الذكرى؟ هؤلاء بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون، فالطفل كان يسخو بنظراته الرقيقة، والطفلة كانت تجود ببسماتها العذبة الحلوة التى تفيض بنورها على حنايا القلب والأحشاء، وذلك الشاب اليافع كانت مخايله تعد بأشرف أنواع البطولة لو أمهلته الأيام، وسبحان من تفرد بالبقاء.

أما أصدقاؤنا الذين غدروا بنا وتناسوا ولاءنا وإخلاصنا فلى معهم شأن آخر، هم لايزالون أحياء ولكنى أرحمهم فوق ما أرحم الموتى، ذلك بأن الموتى مضوا وراحوا قبل أن تمتحنهم هذه الدنيا الغادرة وقبل أن ترغمهم ضرورات الجسد وحاجات العيش على قطع ما وصل الوداد، وفصم ماربط الولاء ولهؤلاء أيضا مقابر تزار، لكن كيف؟ لاتسأل عن ذلك، فليس عندى جواب ويكفى أن تعرف أنى أميز بين الوجهين للشخص الواحد: فهذا وجه قاتم وهذا وجه مضىء، وما لقيت صديقا غدر إلا كدت أستوقفه وأقول له: ما أشبهك بصديقى فلان!، لقد كان له وجه كوجهك، واسم كاسمك، وعمل كعملك، وجاه كجاهك ولكنه رحمه الله كان لايغدر ولا

يخون!.

هؤلاء أيضـــا بذلوا فـى برنا كل مــا كـــانوا يملكون فى اللحظات التى كانوا فـيـها أوفـيـاء ونبلاء، أفـتـرانى أنسـاهـم وكـانوا قـرة العين، ومنيـة النفس، وبغـيـة القلب، وقبلة الروح؟ هيـهـات ، هيـهـات! فلقـد فطرت على البـر والوفـاء والإخـلاص وبغضّ الله إلى نقائص القطيعة والجحود والعقوق.

وبعـد فـهـذه رسـالة كلفـتنى قطرات من الدمـع فى باريس، ذلك البلد الذى لايعـــرف أهله مـــا البكاء إلا فـى الروايات والأساطير، وكل ما أرجو لك، أيها الصديق العزيز، أن يبارك الله فى نضـارة شـبـابك وطـهـارة وجـدانك، وأن لاتحـملنى الظـروف على أن أترحـم عليك وأنـت حى تـغـــــدو وتروح . والسلام.

١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠

هادم اللذات

لنا صديق فى باريس مفتون بالجلوس فى بول ميش، وتلك أكبر متعة أن يشهد الغادين والغاديات، والرائحين والرائحات، فى حى الشباب.

وهو فى أغلب الأحيان يجلس وأمامه كأس وفى يده سيجارة، ثم يرمى بعينيه وبفؤاده إلى اقتناص مايرى وما يدرك من أسرار الجمال، وهو فى تلك اللحظات أشعر الناس، لأنه يتحول إلى جذوة من الشعور والإحساس.

وقد جلس فى صباح اليوم كعادته وكان قد أجهد نفسه بالليل فى دراسات مضجرة تقتل الأعصاب، فرمى ببصره عله يشهد من روائع الحسن مايذهب السآمة عن عقله المكدود، ولكن نظره اصطدم بمنظر السواد على باب المنزل الذى يواجهه، فعرف أن هناك مأتما وأن هذه ساعة بكاء وانتحاب عند الجيران المجهولين.

وهنا استولى عليه الخوف، ومر بخاطره الحديث الذى يقول: تذكروا هادم اللذات.

ولكن ذلك الصديق عاد فألقى على دنياه نظرة ساخرة ثم ألقى على نفسه هذا السؤال:

إذا كانت دنيانا ستنقضى بمثل ما انقضت به دنيا هذا الميت فلم نتحفظ ونتبلد ونتوقر فرارا من سفالة المنافقين الذين يأمرون بمالا يأتمرون به، وينهون عما لاينتهون عنه؟ أليس الحزم أن نغنم دنيانا قبل أن تفوت متأسين بأبى الحسن التهامى إذ يقول:

فاقضوا مآربكم عجالا انما
أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا
أن تسترد فإنهن عوار

وماكادت تفرغ الكأس حتى نقل الميت ونزع السواد وعاد الشارع والسابلون إلى الجذل المألوف، وبذلك اطمأن صاحبنا إلى أن الحياة أقوى من الموت، كما أن الصراحة أشرف من النفاق، ولكن أكثر الناس لايفقهون!.

نجوى القلب على شاطئ السين

تصارع فى سلم الجمال وحربه
مخاطر منها طارف وتليد
فيالك من صب على البين مولع
أثارت شجاه أعين وخدود

رشادك لا تجزع فكم من صبابةٍ

تحمـل عنـها قلـب وهـو عميـد

ستأسو عذارى النيل آثار ماجنت

علـيك عـذارى السين حـين تعـود

***

رعى الله فى الوادى العزيز عقيلة

عـزيــز عليهــا أن يقــال بعيـد

تذكرها الآصال ما كان بيننا

فتـرعـــد منهــا أذرع ونهــــود

جنيت عليها ما جنيت من الهوى

وخلفتهــــا تفنـــى أســى وتبيــد

وكم من أمان للشباب تقطعت

مــرائــر مــن أحداثهــا وعقــود

***

أتمضى ليالى الصيف لا تنقع الجوى

مباسـم بـالعـذاب النميـر تجـود

ويدرج فى مغداه أسوان صاديـــاً

فـــؤاد بـأثقـال الشجـون يميــد

وتخلو مغانى النيل من لهوفاتــك

لـــه مـــن رباهـا جنـــة وخلـــود

ويحيا أسير الحزن فى ميعة الصبا

فتى مرح طاغى الشباب مريد

سيذكرنى الناسون حين تشوكهم

شمـائل مـن بـعـض الخـلائق سود

سيذكرنى الناسون حين تروعهم

صنائع من ذكرى هواى شهود

فوالله ما أسلمت عهدى لغدرة

ولا شاب نفسى فـي الغرام جحود

ولاشهد الناسون منى جنايـة

علـى الحب إلا أن يقـال شهيـد

باريس فى ٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

الآن فهمت

كنت فى حدائق فلاحا مقسم الجهد بين الفأس والمحراث ، وكان لا يغيظنى من حياة الريف غير فصل الشتاء . وكنت أسمع أهالى سنتريس يقولون (لما يخضر التوت ، البرد يموت) وكذلك كنت أتأمل أشجار التوت وأترقب اخضرارها لأبشر نفسى بالربيع ، ولكننى كنت أجد الأشجار الصغيرة تسرع إلى الاخضرار وأجد الأشجار الكبيرة تخضر فى بطء قريب من الجمود . وما أذكر أننى شغلت نفسى بفهم هذه الظاهرة الطبيعية .

وقد غاظنى شتاء هذا العام فى باريس فما كاد ينتصف مارس حتى أخذت أترقب اخضرار الأشجار فى حديقة النباتات . ولاحظت أيضا أن الأشجار الصغيرة هى التى تسرع إلى الاخضرار ، فتذكرت أيام الحداثة فى حقول سنتريس يوم كنت أترقب أخضرار أشجار التوت .

ومع أنى لم أكن بليد الذهن بدليل أن اسمى (ذكى) - بالذال . لا بالزاى فى هذه المرة ! - لم أفهم السر فى تبكير صغار الشجر إلى الاخضرار إلا فى هذه الأيام .

ذلك بأنها فى ميعة الشباب ، والشباب أكثر إحساسا بنضارة الربيع .

أعاذنا الله من كهولة القلوب ، وشيخوخة الأرواح !

بين الرشد والغواية

صديقى عبد المجيد

أكتب إليك هذا وقد قهرنى البرد على المكث فى غرفتى ، فإن الجليد يتساقط على الناس وهم سائرون فى الطرقات ، وليس لدى من مرافق الحياة ما يتمتع به أكثر الجيران ، فنحن فى يوم أحد ، ولكل جار فنوغراف يستمع إلى أناشيده وموسيقاه ، أو أهل يعطفون عليه ، أو أصدقاء يسألون عنه ، فى حين لا أجد ما أدفع به السأم والملال غير ثلاثين كتابا أو تزيد ، مبعثرة فى أرجاء الغرفة فى اضطراب له روعته وجماله فى ساعات النشاط ، ولكنه فى ساعات السآمة ثقيل «ممجوج» أضف إلى ذلك أن هذه الكتب قلتنى وقليتها لطول ما اصطحبنا وتجاذبنا الأحاديث فى الصباح والمساء ، وهى فوق ذلك متنافرة الطباع ، متباينة الأشكال ، فمن لغة إلى أدب ، ومن فلسفة إلى تشريع ، ومن جد إلى هزل ، حتى لأحسب أنه لا يمنعها من العراك غير خوف البوليس !

وقد فكرت فيما أقتل به هذه الساعات الباردة فلم أجد غير الكتابة إليك ، ولكن ماذا أكتب ؟ أتريد شيئاً جدياً ؟ هيهات فإن الجد فى هذه الساعات أقسى من البرد ! فلم يبق إلا أن

أحدثك عن بعض الغوايات التى تقع فى باريس ، ثم نظرت فرأيت أن هذه الرسالة ستصل إليك فى شهر الصيام ، وهو شهر له حرمة وكرامة فمن الخير أن نباعد بينه وبين جميع ألوان الرفث والفسوق ، والغواية فى جملتها ترجع إلى الدنايا التى عناها الشاعر حين قال :

إذا مـــا المـــرء صام عن الدنايا

فكل شـــهوره شهـــر الصيـــام

ولكنى تذكرت أن هناك مخرجا من هذا المأزق : فقد كنت أرى ناسا يقتدى بهم ، وينعمون بجميع مظاهر التبجيل والإجلال كنت أرى أولئك الفضلاء المبجلين يعرضون لمحارم الله فى غير تورع ولا تحرج ، وينالون من أعراض الناس بلا توقر ولا عفاف ، فإذا نالوا من شهوات اللسان والزهو والخيلاء ما يبتغون رفع الرجل منهم بصره إلى السماء وقال : اللهم إنى صائم ! اللهم إنى صائم !

وكانوا يقولون ذلك فى ضراعة وخشوع ، بحيث لا مجال للشك فى أنه قد غفر لهم ، فإن وصلت إليك رسالتى بخير فاقرأها كلها . ولا تنس أن تقول فى ختامها : اللهم إنى صائم ! اللهم إنى صائم !

أما أنا فسأقول عند الفراغ من تحريرها : اللهم إنى فى باريس ! اللهم إنى فى باريس ! وأنت تعلم معنى ذلك ، فإن رحمة الله وغفرانه يشملان هنا سكان الأرض والسماء ، وما ظنك بمدينة اللهو فى عرف أهلها لباقة والوقار عندهم جمود ؛ أول ما تقع عليه عين الوليد فيها أكواب الشراب وأول ما تسمع أذنه أغانى الفتك والمجون ، ولله حكمة فى كل ذلك فلو مشينا هنا على الصراط المستقيم كما تمشون فى مصر لهلكنا ، إن كان صحيحا ما نسمع من أنكم تمشون على الصراط السوى فى شهر رمضان ، ولو شاء ربك لهدى الناس أجمعين .

ألوان من اتجاهات الأذواق

صديقى :

تذكر أني أرسلت إليك رسالة عن الرشد والغواية ، وتذكر أني وعدتك بالعودة إلى مثل ذلك الحديث ، فالآن أوجه إليك القول مرة ثانية على شريطة أن تفهم أنى لا أدعوك إلى ترك التحفظ والوقار ، ونبذ ما أنت عليه من إيثار الصمت والتورع عن الفضول .

أنت تعرف ما بينى وبين صديقنا «ب» وتعرف أن إخاءنا بنى على أساس المجاملة ، وترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله ، وتعرف أن لدينا من التسامح ما يكفى لإغضاء العين على بعض الأقذاء ، فلست منه وليس منى ، ونحن مع ذلك إخوان فى السراء والضراء .

غير أنى لا أنكر عليك أنى أحب أن (أنكد عليه) ولو مرة واحدة ، وهو انتقام طفيف ترضاه نفسى ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذاعة بعض ما يلهو به فى باريس .

وقد تسأل : وما موجب ذلك ؟ وأجيبك فى صراحة : إنى أحقد عليه لأنه يجد من الفراغ ومن المال ما يمكنه من إحياء عهد عمر بن أبى ربيعة ، وكنت أحب أن أكون ذلك الرجل لو

ساعفتني المقادير . وهو فوق ذلك ينغص على تلك المتعة العقلية التي شاء الله أن تكون أجمل ما أطمح إليه من طيبات الأرزاق .

وأني لأذكر أنه صادفني مرة في حديقة لكسمبور ومعي كتاب موضوعه «روح القرن السابع عشر» فأخذ يندد بإقبالي على الماضي ، وإغفالي ما في العصر الحاضر من مفاتن ومغريات .. وكان (المضروب يقول ذلك ويده في خصر فتاة لو وقعت عليها عينك لدارت بك الأرض وتخاذلت من عزمك الأوصال !

وله من نوع هذا الجنون مناكر كثيرة حملتني على مطاردته والتصميم على هتك ستره لدى قراء (المساء) وقد أنذرته بالفعل فهو منذ ثلاثة أشهر يصابح موزع المساء في باريس ويماسيه ، وأنا أقسم أنه سيلقى مني ما يكره . ولكن ما الذي يكره هذا الخبيث ؟

إنه لا يخشى إلا خطرا واحداً ، ذلك أن له أبا صالحا يصلي الفجر في سيدنا الحسين ، والظهر في السيدة زينب ، والعصر في السيدة فاطمة النبوية ، والمغرب في السيدة سكينة ، والعشاء في مسجد قاضي الشريعة الأمام الشافعي

الذى قضى بين أمه وأبيه ، رضوان الله عليهم أجمعين ! وهذا الأب الصالح يرسل إلى ابنه فى باريس ثلاثين جنيها شهريا وهو مبلغ ضئيل لا يتناسب مع ثروة ذلك الشيخ الجليل ، ولكنه يؤثر التقتير على ابنه لئلا يفسد فى بلاد الفساد ، والابن من جانبه لا يزال يكاتب أباه شاكيا باكيا ، لأن الثلاثين جنيها لا تكفى للخبز القفار! والوالد يقرأ تلك الرسائل فى اطمئنان ، لأنه يعلم أن الثلاثين جنيها كافية ، وأن عيشة الخشونة أنفع له ، وأجدر بأن تحمله على الانقطاع للمدارس ليجتاز امتحان السنة الأولى فى كلية الحقوق بعد أن قضى فيها أربعة أعوام !

وهذه الإشارة كافية لأن تقدر كيف يضطرب كلما هددته بالكتابة عنه ، وهو هداه الله يقول فى خشوع : إن حالى يشبه حال فلان ! وفلان هذا الذى يعنيه شاب مصرى تعجزه الامتحانات لأنه لا يتلقى الدروس الا فى قهوة داركور ! وهو يخشى أن يستقدمه أبوه إلى مصر ، فهو لذلك يقول لمحادثيه وهو يتوجع :

أنا جالس على تل من البارود ، وهناك شرارة نار تقترب ثم تبتعد ، وتقرب ثم تبعد ، وأخشى أن تمس البارود ؟

وهذا كما ترى من الخيالات الشعرية البديعة ، واستبعد أن يكون تلميذ قهوة داركور هو صاحب هذا الخيال .

وقد صممت أخيرا على الكتابة عنه ، ولكنى سأطوى اسمه عن القراء لئلا يكون فيهم من يصلى مع أبيه فى السيدة زينب أو سيدنا الحسين ، وبذلك تظل شرارة النار بعيدة عن تل البارود إلى حين !

ولست أرجو بذلك أن يقلع عن الغواية ، فذلك شأن لا يهمنى على الإطلاق ، وإنما يهمنى فقط أن يكف عن مغايظتى فلا يقرأ على رسائل الحب التى تصله من خليلاته ، ولا يأتى لزيارتى ومعه ثلاث بنات من الكواعب الملاح ، كبراهن رفيقته ، والوسطى بنت عمتها ، والصغرى بنت خالتها . فتلك أشياء تذهب بالرشد وتغرى بالجنون .

وهذا إنذار لا يغنى فيه أن يعتذر بأنه يقرأ على تلك الرسائل الدنسة لأشرح له بعض ما يخفى عليه من التعابير التى تدق عن فهمه ، لأنى لست مترجما فى دائرة أبيه حتى يضطرنى إلى توضيح تلك المشكلات ، وإن كنت أعترف بأنى أستزيده أحيانا من تلك الرسائل التى كان مدادها من لعاب إبليس ، والتى تحمل القارىء والسامع على تصديق من يقول :

أرى طيب الحلال على خبثاً

وطيب العيش فى خبث الحرام

* * *

لصاحبنا هذا طرق كثيرة فى الصيد ، فلنذكر بعضها هنا تمهيداً للمفاجآت التى سنكف بها من طماحه إذا مضى يتلمس أسباب اللهو فى باريس .

وأخبث طريقة كانت له ما وقع منه يوم نشر فى إحدى الصحف الأسبوعية إعلانا هذه ترجمته :

(شاب مصرى مستقيم يقضى نهاره فى الدرس ويحتاج إلى فتاة مقبولة الصورة متينة الأخلاق ترافقه فى بعض السهرات لتذهب وحشته وتعينه على فهم الروايات الكلاسيك التى تمثل فى الأوديون وفى الكوميدى فرانسيز) .

وقد أطلعنى على هذا الإعلان قبل نشره وكلمة (مستقيم) أضيفت باقتراحى ، وقد كاد يرفض لظنه أن هذه الكلمة قد تنفر بعض الملاح . ولكنى أقنعته بأنها ضرورية . على الأقل لحفظ سمعة مصر فى الخارج . ولأنها فوق هذا كلمة طالما انتفع بها المنافقون الذين يضمرون الإفك ويظهرون الصلاح ، وهى بعد ذلك كله تنفى عن الإعلان صبغة المجون ، وتضيفه

إلى الشئـون الجدية ، وتلك تحفظات قد يحتاج إليها بعد حين .

وفي صبيحة يوم دق التليفون فاستمعت ، وإذا صاحبنا يقول :

احضر حالا فقد تسلمت اليوم أكثر من خمسين رسالة ، وأحب أن أدرسها معك فلا تتأخر ، أرجوك .

خمسون رسالة ! يا ابن الخنزير ! «أستغفر الله ، فإن أباه من الصائمين القائمين» .

وما هى إلا لحظات حتى كنت عنده وقلت : (هات ياولد ، هات ، حتى نشوف الخبر إيه!) .

وفى مثل هذه المواقف تظهر براعة الفتيات الفرنسيات . فإن اللغة الفرنسية من أغنى لغات العالم بالأوصاف ، والمرأة الفرنسية من أعرف النساء بالصياغة الفنية لعبارات التودد والتلطف والإقبال .

وقد جلس صاحبنا بجانبى وأنا أقرأ بصوت مرتفع ، وهو يقاطعنى من لحظة إلى لحظة قائلا : «يعنى إيه ؟» أو قائلا : «وإيه رأيك فى البنت دى ؟» أو قائلا فى لؤم «دى مش قد كده، خليها لك !» .

وكانت الرسائل تختلف اختلافا ظاهراً في مراميها ، وأغراضها باختلاف الكاتبات . وقد وجدت في بعضها نوعا من الصدق ، لأن هناك فتيات محرومات من نعمة الألفة ومرافقة الفتيان ، هؤلاء كتبن في صراحة أنهن في حاجة إلى الرفيق ، ولا يشترطن إلا العفاف ، وكتبت إحداهن تعلن رغبتها فى مصادقة (صاحبنا) حبا فى مصر ذات النخيل ! ومنهن من قالت إنها تود أن ترافق فتى مصريا شاء له حسن الطالع أن يركب الجمل فى صباه !

وهناك بنت ملعونة كتبت رسالة فى غاية من الخلاعة ، وقد زعمت أنها أجمل مخلوقة مشت فى شوارع باريس ، وأنها بالرغم من جمالها الساحر لم تخضع لمخلوق ، ولم يذق شهدها أحد من العالمين ، وقد ختمت الرسالة بقصيدة من نظمها فى وصف عفافها الفائق وجمالها الفتان ، وهى قصيدة تتوافق كل التوافق مع الأغنية المصرية التى تقول :

إيه رأيك فى خفافتى إيه رايك فى لطافتى
مش خفه شربات مش رقه دلكات
إيه تسوى الجنهات جنب البرلنتى
دا جمالى ما وردشى ومثالى ما صدفشى

حورية م الجنة | هربانه بالعنيه
لناس تتهنا | لوصالى تتمنى

* * *

جبيبه باليه | تعجبنى الحرية
يدوبوا ما استألشى | لوصالى ما اسمحشى
على نارهم خليهم | بدلالى أكويهم
من صغرى ألا موده | لجمالى معبوده
عشاقى تتزلل | عن تقلى ما اتحول
كده طبعى يا لطافه | كده ذوقى يا خفافه
مش خفه شربات | مش رقه دلكات

ومن أغرب ما جاء فى تلك الرسائل ما كتبته إحدى البنات تسأل صاحبنا عن مستقبل وزارة صدقى باشا ، وعن رأيه فى الدستور الجديد . وقد قررنا فى الحال إبعاد صاحبة هذه الرسالة لأنها «غلباوية» ولأنه يحتمل أن تكون من الجواسيس وصاحبنا كما تعلم جالس على تل من البارود ، وقد يرسل إليه صدقى باشا بعض الصواريخ جعل الله كلامنا خفيفا عليه ، آمين .

قرأنا الرسائل بعناية ، وميزنا ما رأيناه جديرا بالجواب ،

وأجبنا على سبع وعشرين رسالة من بين ثلاث وخمسين .

ولكن مـا الذى وقـع بعـد ذلك ، انتظر انتظر ، إن الله مع الصابرين .

باريس فى ٢٥ مارس سنة ١٩٣١

فى ليلــة العيــــد

صديقي :لقد غفت العيون، وطوى الليل تحت سدوله أرباب النعيم وأنضاء الشقاء، فكم من قلب يتذوق أكواب الحب، وكم من كبد تتنزى فوق جمرات البؤس، وأنا فى دنيا صاخبة من أشجانى وأحزانى: فهذا وجد فىّ، وذاك وجد قديم، وتلك صبابة دفنتها منذ عشر سنين وبعثتها ليلة العيد، كل أولئك يغزو قلبى فى قسوة دونها قسوة الحظ العاثر على الرجل النبيل، وأين أنا ياربّاه ممن أحنو عليهم وأذيب فى حبهم لفائف الفؤاد؟

وما يدرينى لعلى منسى من جميع من أشتاق إليهم وأبدد بذاكراهم لجب النهار وهدوء الليل!

لاتزل عندى من الشوق بقايا، فهل عند من أهواهم من العطف بقية؟

أم كتب علىّ أن أقضى العمر فى التغنى بقول بعض الشعراء:

ســـيذكرنى الناسون يـــوم تشـــوكهم

شـــمائل من بعض الخلائق سود

سيذكرني الناسون حين تروعهم
صنائع من ذكرى هواى شهود
فو الله ما أسلمت عهدى لغدرة
ولا شاب نفسي فى الغرام جحود
ولا شهد الناسون منى جناية
على الحب إلا أن يقال شهيد

وإليك ياصديقى أقدم أطيب الأمانى بأن يعيد الله عليك أمثال هذا العيد، وأنت على ما أحب لك من عافية البدن، ونعيم القلب، وهدوء البال. والسلام.

زكي مبارك

فهـــرست

صفحـة

رقم الإيــداع
٢٠٠٢/١١١٨٥
الترقيم الدولــى
977 - 07- 0958 - 1

روايات الهلال
تقدم

حالة مستعصية

تأليف
سعيد سالم
تصدر ١٥ أغسطس ٢٠٠٢

كتـاب الهـلال
القادم

الانسان والحضارة

بقلم دكتور
عبد الوهاب المسيرى
يصدر ٥ سبتمبر ٢٠٠٢

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

وصف لمشاهدات د. زكي مبارك في باريس وتصوير مثير لما في مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال.

وهذا الكتاب ذكريات الأديب والكاتب الموسوعي د.زكي مبارك في الفترة التي كان يتلقى فيها العلم في السربون على مدى خمس سنوات «١٩٢٧ - ١٩٣١» تجول خلالها في ربوع فرنسا، وخبر حنايا باريس ودروبها وناسها وفنونها وآدابها وكشف اللثام عن أسرارها، والجانب الآخر من تلك المدينة المثيرة التي تجمع بين المتناقضات بين الحب السامي، والحب الحسي، وبين العلم والبوهيمية.

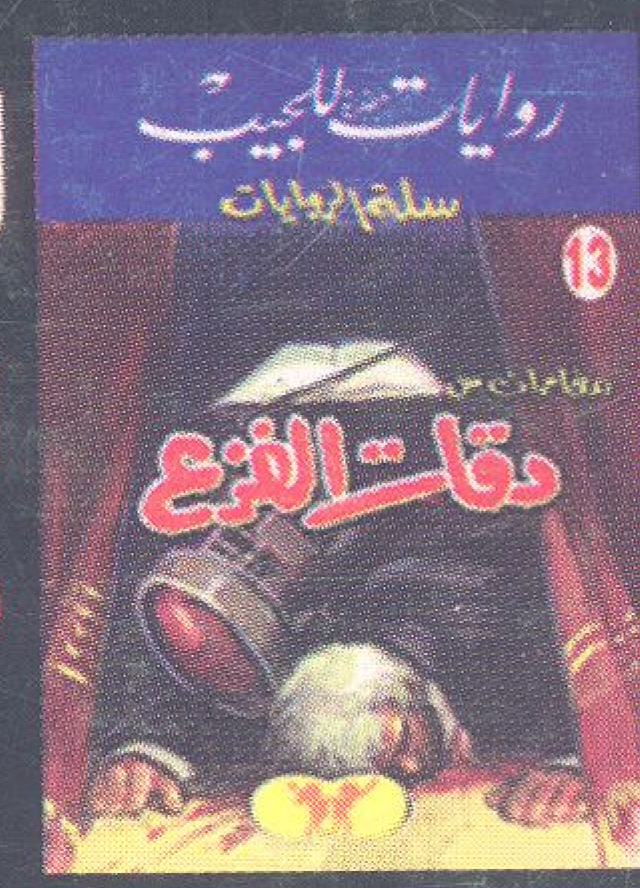
وصور لنا الدكتور زكي مبارك كل ذلك بقلمه الرشيق وأسلوبه المتميز المبدع ولم يكن الدكتور زكي مبارك مجرد شاعر عاشق للحب والجمال، بل كان ناقدا له ميزان خاص يعتمد على الحس الفني الأدبي الرفيع والثقافة المتدفقة دائما. فهو أديب متميز وباحث قدير، ترك للمكتبة العربية انفس المؤلفات الأدبية والثقافية وأدق الدراسات الأدبية وأعمقها، فأنتج لنا النثر الفني في القرن الرابع الهجري، وليلى المريضة في العراق، ومدامع العشاق ، ورسائل مجنون سعاد بالإضافة إلى معاركه الأدبية والفكرية مع فحول الأدباء والشعراء والمفكرين وغير ذلك من الكتب والدراسات التي أثرت المكتبة العربية .

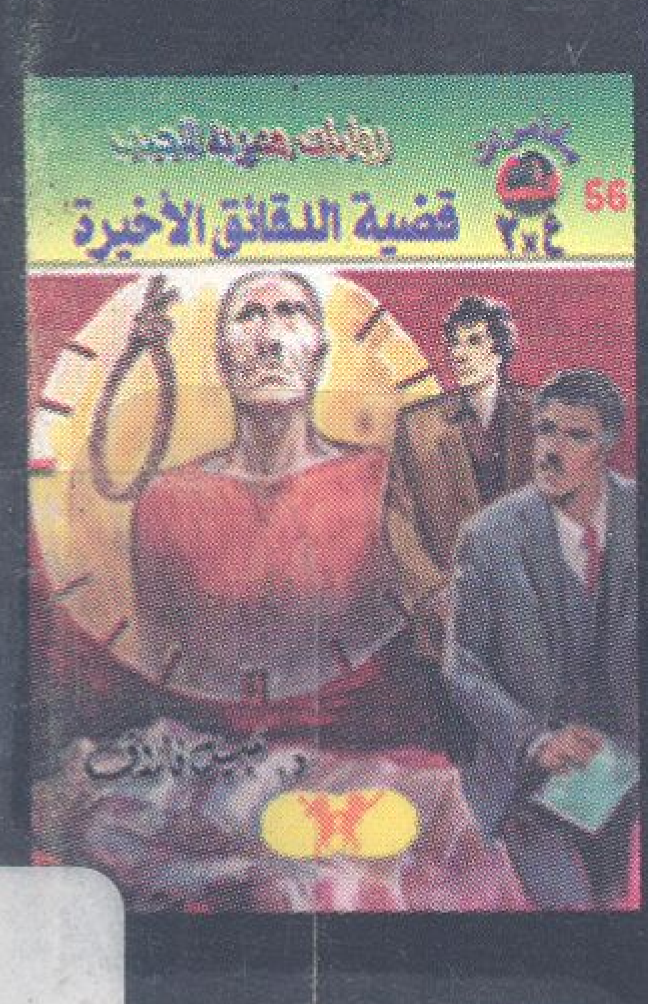
ويعد هذا الكتاب «ذكريات باريس» من أنفس الكتب للدكتور زكي مبارك وقد نفدت طبعته الأولى التي صدرت عام ١٩٣١.

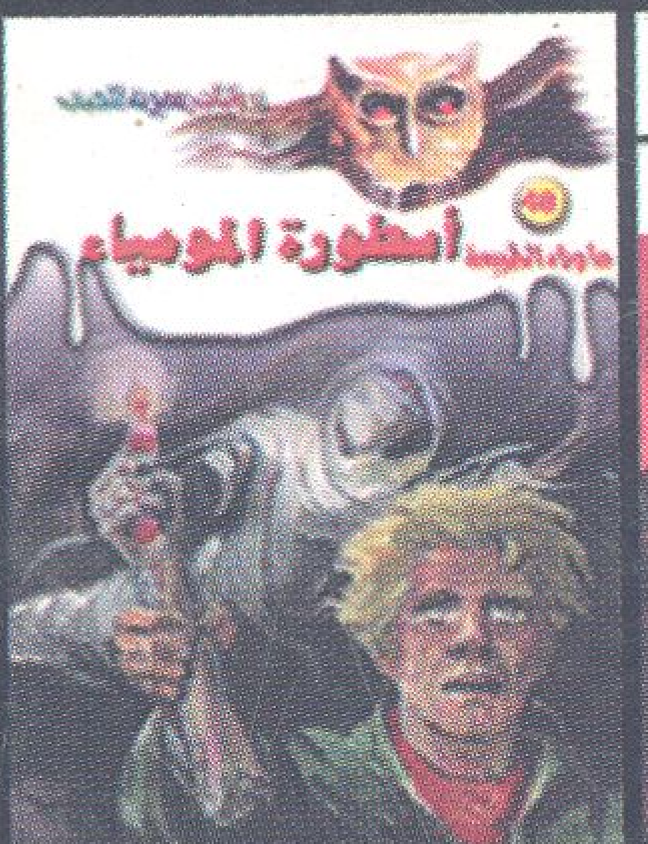


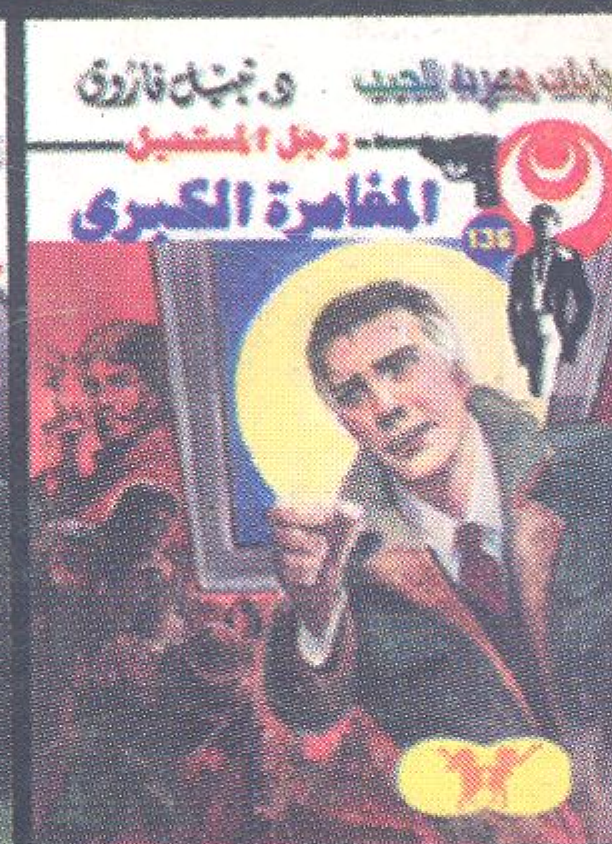
روايات مصرية للجيب

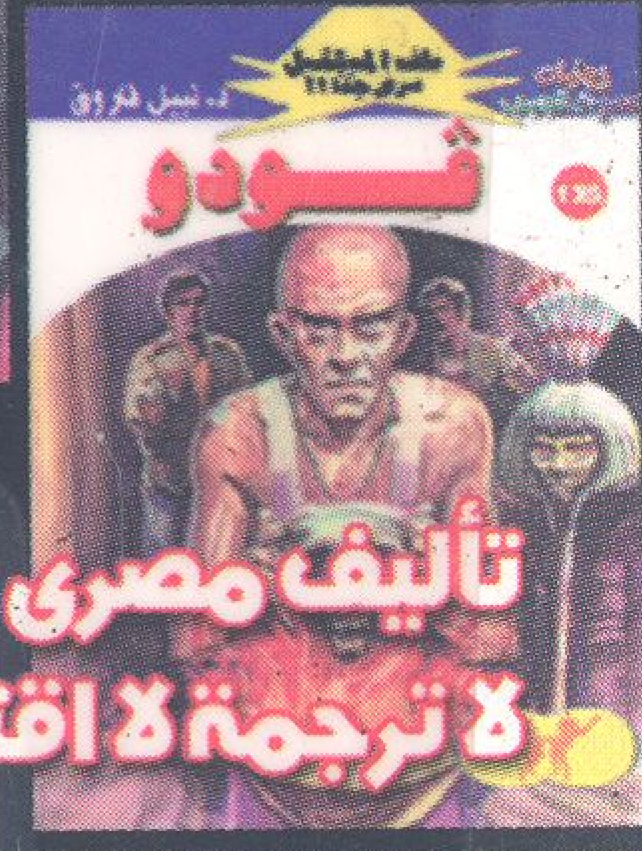
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات

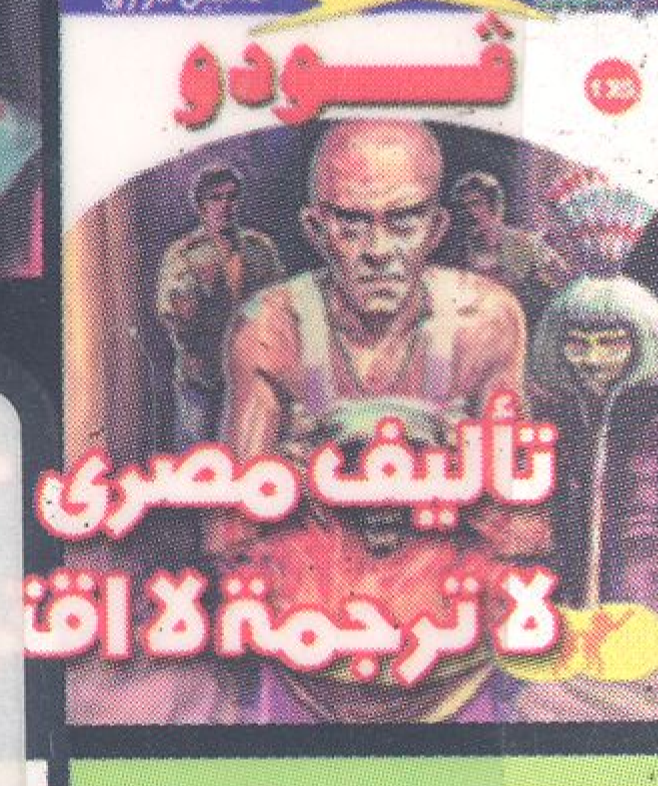








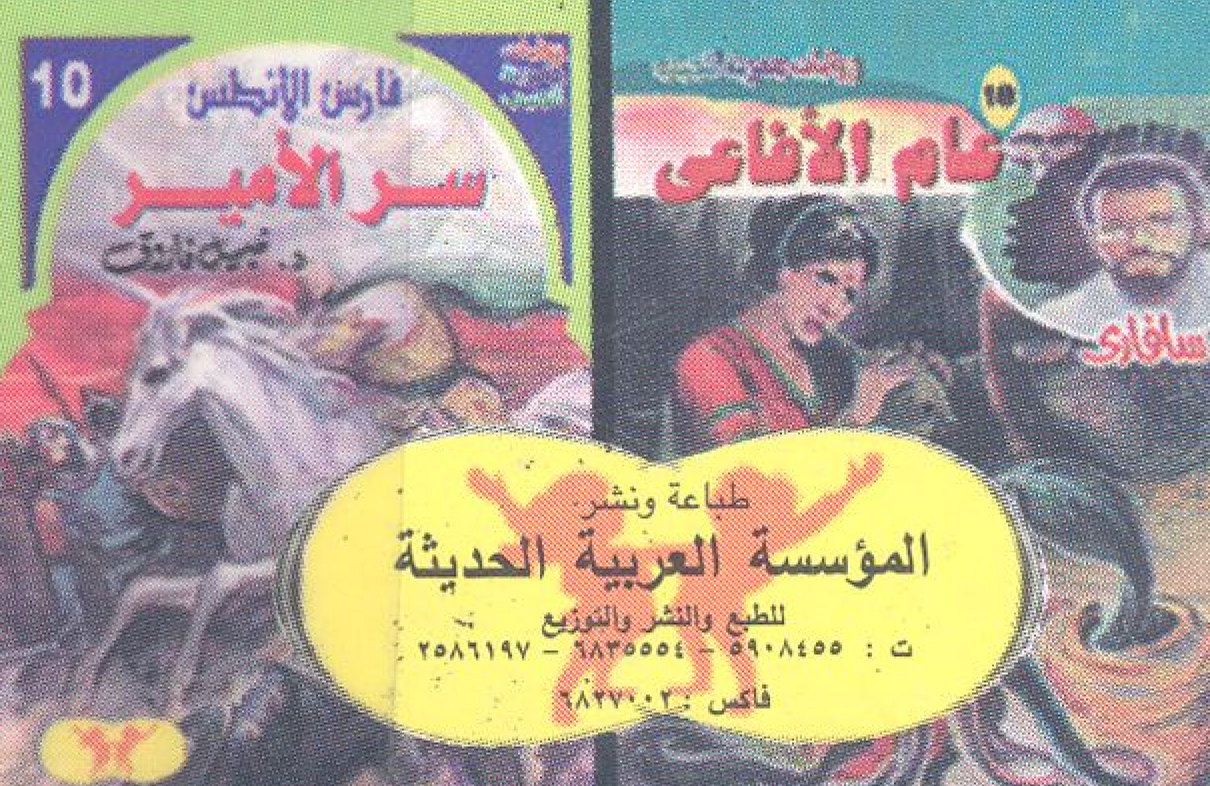






روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب العالم العربى
من مشرقه إلى مغربه





طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٠٢ / ٦٨٢٧٠...